الدّعوة الإسلاميّة

في عهدِ أميرِ المؤمنين عُمرَ بن الخطّاب

رضي الله عنه

بقلم
حسني محمد ابراهيم غيطاس

الزهراء للإعلام العربي

تقـديم

لم يبالغ الباحث ـــ فيما أعتقد ـــ حين قال : إنه على كثرة ما كُتب في سيرة عمر رضي الله عنه قديمًا وحديثًا ، فإن أحدًا لم يتوفر على دراسة جوانب شخصية عمر رضي الله عنه كلها من حيث صلتها بنشر الدعوة الإسلامية .

ذلك أن الدراسات المتعددة في شخصية عمر رضي الله عنه ، منها ما هو ترجمة ذاتية له ، ومنها ما هو تأريخ له ولعصره ، ومنها ما اقتصر على إبراز جانب أو جوانب من شخصيته ، لكن لا أعلم ـــ في حدود معرفتي ـــ أن أحدًا توفر على ربط ذلك أو بعضه بالدعوة في عصره على الصورة التي قدمها الباحث .

لذا ، فإن هذا البحث مهم في إبراز هذه العلاقة .

وليس ذلك وحده ما يجعل هذا البحث مهمًّا ؛ فإن هناك أمورًا أخرى ذات أهمية كبيرة في مجال الدعوة الإسلامية أبرزها الباحث ونبه إليها ، منها :

إبراز شمول الدعوة الإسلامية للقول والعمل ، بعد أن أوشك بعض المتحدثين عن الدعوة الإسلامية وأساليبها على أن يقصروها على مجرد القول ، مع أن الإسلام قول وعمل لا ينفصل أحدهما عن الآخر ولا يغني أحدهما عن الآخر . وهذا هو اعتقاد أهل السنة بالإجماع لتوافر نصوص الكتاب والسنة على هذا الربط الوثيق بين القول والعمل .

ومنها أيضًا : أن القول ليس هو البيان وإقامة الحجة فقط ، وإنما هو أيضا الفقه والاجتهاد ، لأن الفقه والعلم سبيل هام من سبل الدعوة الإسلامية . ولم يكن الفصل بين الدعوة وبين الفقه والاجتهاد معروفًا في القرون الأولى ، أما اليوم فقد غلب على ظن كثير من الدعاة أن الدعوة الكلامية هي : البلاغ والبيان ، وأن الاجتهاد والفقه شيء آخر ، مع أن البيان الصحيح لا يقوم إلا على أساس من فقه صحيح واجتهاد صحيح .

ولقد كان للاجتهاد الرشيد والفقه المستنير دور عظيم جدًّا في الدعوة الإسلامية في القرون

الأولى . وكان الدعاة فقهاء ، مهدوا بفقههم سبيل فهم الإسلام ، وسبيل العمل به ، وهذا مما نبه إليه الباحث حين أبرز فقه عمر واجتهاده رضي الله عنه ، وأبرز دور هذا الفقه وهذا الاجتهاد في نشر الدعوة الإسلامية وتثبيت أركانها .

من الأمور أيضًا ــ إلى جانب التأكيد على الصلة بين القول والعمل ــ تأكيد الباحث على أن العمل هو الجهاد بجميع أنواعه : جهاد النفس وجهاد الأعداء ..

ولقد راجت بين المسلمين اليوم دعوات تصور الجهاد في الإسلام على أنه مجرد دفاع عن النفس ، وذلك ردًّا على دعاوي أعداء الإسلام القائلة : إن الإسلام قد انتشر بالسيف .

لذا كان من الأمور الهامة أن يبين الباحث أن الجهاد لم يكن دفاعيًا فقط وأنه كان هجوميًّا أيضا ، وأن ذلك أمر ثابت بالنصوص الصريحة ، والأفعال والوقائع الصحيحة . أما أن يكون هذا الجهاد الهجومي إكراهًا للناس على الدخول في الإسلام أو أن القول بذلك يتعارض مع نص القرآن الصريح بأنه ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ فإن ذلك يتوقف على نوع الإكراه ومعناه ، ومعنى الإكراه في الآية الكريمة ، وعلاقة ذلك بالأمر الصريح بقتال المشركين على الإسلام حتى يسلموا .

ولقد بين الباحث حقيقة الجهاد في الإسلام وأقوال الأئمة فيه ، وبين اتفاق الفقهاء على القتال بعد البيان . والقتال إكراه بلا شك ، وضرب الجزية على أهل الكتاب ــ خاصة إذا قبلوها وتركوا القتال ــ هو نوع من الإكراه بلا شك ، لأن فيه امتهانًا وصغارًا أي إذلالًا كما صرحت بذلك آية الجزية ، وهذا نوع من الإكراه كما صرح بذلك ابن كثير في تفسير الآية .

والمشكلة هنا هي أن بعض المسلمين يفهمون حقوق الإنسان والحريات العامة بمفاهيم الثورة الفرنسية التي تستند إلى القانون الطبيعي المزعوم عندهم ، بينما للإسلام مفاهيمه الخاصة بشأن الحقوق والحريات ، وهي مفاهيم تجعل الحقوق والحريات منحة من الله تعالى ترتبط بإخلاص العبودية لله ، وتجعل إباء الإنسان لهذه العبودية مسقطًا لحقه في هذه المنحة ، بل ومستحقًّا للعقاب في الدنيا والآخرة .

فالبحث ــ كما أرى ــ مفيد في مجال الدعوة الإسلامية من جوانب متعددة . وليس معنى ذلك أن الباحث قد وفى الموضوع حقه ، وهو لا يدِّعي ذلك ، لأن الموضوع واسع

متشعب ، وقد كان لي شرف الإشراف على هذا البحث ، ولمست مقدار الجهد الذي بذله ليخرجه على هذه الصورة وحسبه أنه فتح بابًا أرجو أن يكثر السالكون من خلاله .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله في ميزان صاحبه .

د . محمد رشاد خليل
رئيس قسم الثقافة الإسلامية
جامعة الملك سعود (الرياض سابقًا)
١٦ من جمادى الآخرة عام ١٤٠٥ هـ
الموافق ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله وحده ، أعبده ولا أشرك به شيئًا ، سُبْحانه القائل في كتابه العزيز : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] ، وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم أنبيائه سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذي أرسله الله رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا ، فحمل لواء الدعوة الإسلامية ، وجاهد في سبيل نشرها ، وصبر وصابر ، وتحمل صنوف الأذى ، وألوان الاضطهاد ، صابرًا محتسبًا أجرَه على الله تعالى حتى نصر الله عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

أما بعد

فإن من بين الأسماء الإسلامية الكبيرة يبرز اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحوله ـــ دائمًا ـــ هالة من الإكبار والإجلال ، توارثتها الأجيال المسلمة ، ولم تنكرها عليه الأوساط غير المسلمة التي تُنصف الرجال وتَعرف أقدارهم . وهذا الإكبار قد تُرجم بين العلماء والدارسين على مر العصور إلى دراسات تقوم حول هذا الداعية المجتهد ، وكلها تدور حول ناحية من نواحي عظمته ، كعدالته ، وعزة الإسلام به ، وتقدير الصحابة له ، وفتوحاته التي أشرف عليها وتمت في خلافته ، واجتهاداته الفقهية ، وأولوياته ، ومناقبه .. إلخ . وبالرغم من كل هذه الاهتمامات المتعددة والتي توارثتها أجيال الأمة الإسلامية جمهورًا ودارسين حول شخصية هذا الرجل ، إلا أنني لست أعلم أحدًا ممن كتبوا في هذا الموضوع سواء من القدماء أو المحدَثين توفر على دراسة هذه الجوانب كلِّها من حيث صلتها بنشر الدعوة الإسلامية في هذا العهد الميمون .

وهذه الدراسة مهمة ، لارتباطها بالدعوة الإسلامية التي هي فرض على المسلمين

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها حتى قيام الساعة ، ولخلو المكتبة الإسلامية ممن تصدى بالدراسة والتحليل لهذا الموضوع ، ولما نلمسه في هذه الأيام من ازدياد النشاط الجاهلي الذي ثبّط من همم المسلمين ليَقْعُدوا عن واجب الجهاد في سبيل الدعوة الإسلامية متعللين في ذلك بعلة واهية ، ألا وهي أن لا سبيل للمسلمين للتصدي للغرب المتقدم ماديًّا ـــ على حد زعمهم ـــ وللأسف الشديد أن من يقول ذلك هم ممن ينتسبون للمسلمين ويُحسبون عليهم ويُعدون منهم . وأيضا لما يقوله الجاهليون ويدّعونه ـــ كذبًا ـــ أن الإسلام شيء وسياسة أمُور المسلمين شيء آخر ، بمعنى أنه يحظر على المسلم ـــ على حد زعمهم ـــ التكلم في أمور تخصُّ المسلمين من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل يريدون من المسلم أن يتقوقع داخل المسجد ويغمض عينيه عما يجري خارجه من فسوق وعصيان لله تعالى .. ! إنهم بذلك يتعاونون مع الشيطان كي يقضوا على ما فضل الله به هذه الأمة عن الأمم السابقة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(*) ، حيث قال تعالى : ﴿ **كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ . وقال ﷺ : (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ)[1] لقد نسوا أو تناسوا أن من واجبات ولي أمْرِ المؤمنين الأساسية هي حراسة الدين وسياسة الدنيا به كما قال الفقهاء ، وكما كان سائدًا في صدر هذه الأمة ﴿ ... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولون إِلَّا كَذِبًا ﴾[2] .

من أجل ذلك وغيره ، تقدمت بهذا البحث في محاولة متواضعة أظهر فيها مدى العلاقة بين نشر الدعوة الإسلامية وبين جوانب العظمة العديدة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك في فترة إمارته الميمونة ، التي ثبت فيها عمليًّا من خلال الواقع الملموس عكس كل ما قيل ويقال من دعاوَى جاهلية لئيمة أريدَ بها تدميرُ الإسلام وأهله ولكن هيهات ... وسميته (الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه) ، حتى أثبت لأصحاب الدعاوَى الجاهلية من أبْناء جلدتنا وغيرهم بالدليل العملي من خلال دراسة الدعوة في هذا العهد الميمون ، أن الجهاد في سبيل الله باق حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن المسلم الصادق في إسلامه العميق في إيمانه لا يُضيره عدد أو عُدّةُ عدوه من المشركين ، وعليه

---

(١) رواه الترمذي وحسنه (رياض الصالحين حديث ١٩٨) تحقيق الألباني .

(٢) سورة الكهف آية ٥ .

(*) قال السادات رئيس جمهورية مصر قبيل موته بقليل : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين .. وهذه مقولة غير صحيحة ، وزعم خاطئ منه ومعصية ، لأن الإسلام دين لسياسة الدنيا .

فقط أن يتوكل على الله تعالى ويأخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية والبشرية ويَعَضَّ عليها بالنواجذ واثقًا ومتيقنًا من نصر الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] ويرمي عنهم ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾[2] ، وحتى أُبين لهم أيضًا أن الدين والسياسة صنوان لا ينفصلان أبدًا إذا أريد بالمسلمين خير .. أمَّا إذا أريد بهم عكس ذلك ، فحدث ولا حرج .

ولا إخالني قد غطيت هذا الموضوع أو أدعي لنفسي ذلك . كلا ، إن ما قمت به مجردُ محاولةٍ فقط ، محاولة لفتح باب كبير على مِصْراعيه من أبواب العزة والكرامة والخير للمسلمين ، وهم في أحلك عصورهم وأشدِّها حاجة لفتح هذا الباب ليروا ما بداخله من نور يبدد ظلام هذه الجاهلية الجهلاء ، ويتأسوا بعصر من أحسن عصور الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ألا وهو عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عصر العزة والكرامة والعدل ، وهي أمور افتُقدت كلهُّا أو تكاد في بلاد المسلمين في هذا العصر إلا من عصم ربي .

خطتي في البحث :

وكانت خطتي في هذا البحث أن قمت وبعون الله تعالى بجمع المواد المتعلقة به من مصادر شتى فقهية وتاريخية متعددة ، حتى أنني لم أدع مرجعًا قط أسمع به أو أراه في المكتبات ويتعلق بهذا الموضوع إلا وقرأته قراءة فاحصة مستخلصًا كل ما يتعلق بموضوع البحث ، مدوِّنًا إياه . في كراسة أعددتها لذلك وتحت العنوان الذي أفردته له .

ثم بعد ذلك ، قمت بعون من الله بتصنيف هذه المواد بأن جمَعت كل الأخبار المتجانسة والمتشابهة من مصادرها المختلفة ودونتها في كراسة خاصة بها حتى يسهل الرجوع إليها في المرحلة التالية . ثم قمت بعد ذلك وبعون الله تعالى بتبويب هذه المادة وتمحيصها وحذف الأخبار الغريبة منها والتي لا تتلاءم وأخلاق الدعاة من صحابة رسول الله ﷺ في ذلك القرن الخيِّر من الزمان .

ثم بعد ذلك ، بدأت مرحلة الصياغة وربط الموضوعات بعضها ببعض في قالب متناسق متسلسل الأحداث مقسمًا إياها إلى أبواب وفصول ومباحث حتى يسهل الإفادة منها إن شاء الله .

---

(١) سورة الحج : ٣٨ .

(٢) سورة الأنفال : ١٧

وقد قسمت البحث ، بالإضافة إلى هذه المقدمة ، إلى : تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة .

أوضحت في التمهيد أن الدعوة الإسلامية ليست وعظًا وإرشادًا فقط ، بل هي دعوة بالقلب واللسان واليد . ثم عقبت على خصال الدعوة الثلاث كما بينها رسول الله ﷺ وهي : الدعوة إلى الإسلام أولًا بالبيان والحجة وذلك بشرح تعاليم الإسلام للناس ، أو دفع الجزية في حالة رفض الإسلام ، أو القتال في حالة رفض دفع الجزية . ثم بينت كيف أن رسول الله ﷺ كان يطبق هذه الخصال الثلاث في جميع غزواته وبعوثه ويأمر بها قواد جيوشه . ثم بيت موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الدعوة الإسلامية ، وكيف كان لاجتهاداته وفتوحاته ، وبَعْثه للدعاة أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية .

الباب الأول (نشر الدعوة الإسلامية) . وقسمته إلى فَصلين :

الفصل الأول (نشر الدعوة هدف الإسلام الأساسي) . أوضحت فيه أن دعوة الرسول ﷺ دعوة عامة ولجميع الناس إلى أن تقوم السَّاعة . ثم أوضحت فيه مسئولية المسلمين عن التبليغ بعد الرسول ﷺ ، وما حكم هذه المسئولية أهي فرض عين أم فرض كفاية .

وفي الفصل الثاني (الجهاد وعلاقته بنشر الدعوة) . تكلمت فيه عن الجهاد وعلاقته بالدعوة ، وأن الجهاد إنما شُرع من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض . وذلك من خلال أقوال الفقهاء وأهل العلم في ذلك .

الباب الثاني (عمر الداعية المجتهد) . وقسمته إلى فصلين :

الفصل الأول : (حجِّية قول الصحابي) . أوضحت فيه مدى الاحتجاج بقول الصحابي بصفة عامة ، ثم بينت كيف أن أقوال الخلفاء الراشدين مقدمةٌ على غيرها ، وكيف أن رأي كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مقدم على غيرهما . ثم أوضحت مدى الأخذ بأقوال عمر رضي الله عنه في خلافته .

الفصل الثاني : (اجتهادات عمر وأثرها في الدعوة) . وقد اخْترت من بين اجتهادته الجمَّة اجتهادين فقط ، رأيت أنهما جديران بالاهتمام لأهميتهما ، وهما موضوع أرض السَّواد ، والمؤلفة قلوبهم ، وبينت آراء الصحابة رضي الله عنهم والفقهاء وأهل العلم في ذلك ، ثم استخلصت تأثيرات هذين الاجتهادين في نشر الدعوة الإسلامية .

الباب الثالث (عمر الداعية الفاتح) . وقسمته إلى فصلين :

الفصل الأول (حالة بلاد الفرس والروم قبل الفتح الإسلامي) . ألقيت فيه بعض الضوء عن حالة هذه البلاد من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وكيف كانت من السوء بحيث تطلع سكان هذه البلاد إلى التخلص من الحكمين الروماني والكسروي اللذين انهارا إلى الأبد .

الفصل الثاني (أخلاق الجهاد وأساليبه عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقادة الفتح) . وقسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : عمر القائد الداعية . بينت فيه كيف كان عمر رضي الله عنه يختار قواد جيوشه بأن يكونوا من السابقين للإسلام والذين لهم خبْرة بالحروب والكرِّ والفرِّ ، وحسن التصرف والحنكة . ثم أوضحت بعضًا من أوامره وتعليماته لقادة جنده وجنده ، وكيف كان على الجليَّة من أمرهم يتابعهم ساعة بساعة ويوجههم ويرسم لهم الخطط الحربية وينسق بين الجيوش في الجبهات المختلفة .

المبحث الثاني (الإعداد للقتال) . وقسمته ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الإعداد المعنوي . بينت فيه كيف أن عمر رضي الله عنه أعد الجنود إعدادًا معنويًّا مبنيًّا على الإيمان بالله تعالى والثقة في نصره ، ومثلت لذلك بأمثلة حية من واقع الدعاة أنفسهم ومن خلال حياتهم اليومية في ميادين القتال المختلفة .

القسم الثاني : الإعداد المادي . بينت فيه دور عمر رضي الله عنه في ذلك والذي انحصر في الآتي :

١ ــ توفير كل أدوات الحرب من كراع وسلاح لكفاية الجيوش .

٢ ــ إنشاء نظام اقتصادي قوي ينهض بنفقات الحرب .

القسم الثالث : الإعداد البشري . بينت فيه كيف تم لعمر رضي الله عنه تعبئة الجيوش للحروب وتدريبها على القتال ، وجئت بالأمثلة الحية على ذلك من داخل ساحات القتال .

الباب الرابع والأخير (الفتوحات الإسلامية في عهد عمر رضي الله عنه وأثرها في نشر الدعوة) . قسمت هذا الباب ــ الذي هو صلب موضوعنا ــ إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : (الدعوة بالبيان في بلاد الشام) . بينت فيه أن الجيوش الإسلامية لا تبدأ أحدًا من الكفار بالقتال إلا بعد دعوتهم إلى الإسلام ، فإن رفضوا يُؤمروا بدفع الجزية . وأوردت فيه طريقة الدعاة في دعوة أعداء الله بالحجة والبيان دون قتال . ولم أذكر كل ما

دار في جميع جبهات القتال خوف الإطالة والإملال . ولكني اخترت بعض المعارك التي لها دور وأثر كبير في مجريات الأمور لأوضح ما دار فيها .

الفصل الثاني : (الدعوة بالبيان في بلاد العراق وفارس) . بينت فيه كذلك مثل ما في الفصل الأول .

الفصل الثالث : (الدعوة بالبيان في مصر) . وقد أوضحت فيه ما أوضحته في الفصلين الأول والثاني .

الفصل الرابع : (القتال في سبيل نشر الدعوة) . أوضحت فيه قتال الكافرين الذين رفضوا الدخول في الإسلام وأيضا دفع الجزية حتى نصر الله جنده ، ثم أوضحت حكم القتال في الإسلام وأنه ليس للسلب والنهب والقتل ؛ ولكنه قتال لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

الفصل الخامس : (الدعوة عقب القتال) . بينت فيه أن حرب المسلمين ليس فيها غالب ولا مغلوب ، ولكنها حرب فقط من أجل بداية نشر الدعوة وفتح الطريق أمامها ، ثم بينت كيف أن المعاملة الحسنة لجند الله سبب في إسلام أهل البلاد المفتوحة ، وأن عمر رضي الله عنه أرسل دعاته إلى الأمصار المفتوحة ليعلِّموا الناس أمور الإسلام وسنة رسول الله ﷺ ، ويقيموا العدل بين الرعية مسلمهم ومعاهَدِهم ، وكيف كان لهذا العدل دوره الكبير في دخول كثير من أهالي البلاد المفتوحة في الإسلام .

الخاتمة ونتائج البحث : وقد أجملت فيها ما سبق أن فصلته داخل أبواب وفصول هذا البحث .

هذا وأسجل شكري لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وأخص بالذكر معالي مدير الجامعة فضيلة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، كما أخص بالشكر العميق كلية الدعوة والإعلام بالرياض ممثَّلة في مديرها فضيلة الشيخ صالح بن سعود العلي ، وفضيلة وكيل الكلية الشيخ سعود البشر لإتاحة هذه الفرصة العظيمة التي كانت سببًا في اطلاعي وتمحيصي لأمهات الكتب والمراجع ، مما أفادني إفادة جمة وصقل معرفتي ـــ وزادها قربًا عن علم وبصيرة ـــ بالإسلام وشرائعه العظيمة ، والتي لولاها ما كنت اكتسبت ذلك ، فللَّه الحمد أولًا وآخرًا .

وأخص بالشكر الجزيل فضيلة الدكتور محمد رشاد خليل الذي تشرفت بإشرافه على

هذا البحث ، وقد أفادني فضيلته بالتوجيهات والنصائح التي لا أستطيع وصفها والتي كان لها الدور الأكبر والأساسي في إخراج هذا البحث ، فجزاه الله عني خيرًا .

كما أشكر كل من ساعدني في إخراج هذا البحث ، وأخص بالذكر فضيلة الشيخ محمود عمر سكر المدرس بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم بالرياض على ما قام به مشكورا من تصحيح وضبط الآيات القرآنية في هذا البحث فجزاه الله عني خيرًا .

هذا ، وأدعو الله القدير أن يسدد إلى طريق الخير خطانا ، وأن يوفقنا إلى ما تطيب به ذكرانا وتحمد به عقبانا . إنه نعم المولى ونعم النصير . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المؤلف

حسني محمد إبراهيم غيطاس

٢٧ من رمضان سنة ١٤٠٣ هـ

٧ من يوليو سنة ١٩٨٣ م

تمهید

معنى الدعوة إلى الله تعالى وحكم تبليغها ومراحل تطبيقها

معنى الدعوة في اللغة وفي الاصطلاح:

الدعوة في اللغة: كلمة تطلق ويراد بها عدة معان، فمنها:

الرغبة إلى الله. والفعل: دعا. ومصدره: الدعاء، والدعوى... والاسم: الدعوة والدعاوة[1].

ودعا: بمعنى الاستغاثة، قال تعالى: ﴿وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. قال الفراء: استعينوا بهم، وهو كقولك للرجل: اذا تعقبت العدو حَالياً.

فادع المسلمين، ومعناه استغث بالمسلمين فالدعاء هنا بمعنى الاستغاثة.

والدعوة اسم لما تَدَّعِيه، وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[3] ويقال تداعت السحابة بالبرق والرعد من كل جانب اذا أرعدت وبرقت من كل جهة، وادَّعيتُ الشيء: زعمته لي حقًّا كان أم باطلاً، ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، والنبي ﷺ داعي الله تعالى وكذلك المؤمنون، وفي التهذيب: المؤذن داعي الله[4].

والدعوة بمعنى الدعاء أو ادعاء الحق، والدعاء إلى الطعام، وقد وردت كلمة الدعوة في عشرة مواضع من القرآن الكريم[5]. (والدعوة) إلى الطعام بالفتح. يقال كنا في دعوة فلان و (مدعاة) فلان وهو مصدر والمراد بهما الدعاء إلى الطعام و (الدِّعوة) بالكسر في النسب و (الدَّعْوَى) أيضاً هذا أكثر كلام العرب.

---

(١) القاموس المحيط مادة: دعا.
(٢) سورة هود آية ١٣.
(٣) سورة الأحزاب آية ٤٦.
(٤) لسان العرب مادة دعا.
(٥) القاموس الإسلامي أحمد عطية الله ٢/ ٣٧٣.

والدعي من تبنَّيتهُ. و (ادَّعي) عليه كذا والاسم (الدَّعوى). و (تداعت) الحيطان للخراب تهادمت. و (دعاهُ) صاح به و (استدعاه ايضاً)، و (دعوتُ) الله له وعليه أدعوهُ (دعاء). و (الدعوة) المرة الواحدة و (الدعاء) أيضاً واحد (الأدعية) وتقول للمرأة: أنت تَدْعِين وتدعُوِين وتَدْعُيْنَ بإشمام العين الضمة وللجماعة أنتُنَّ تدْعون مثل الرجال سواء...[1].

الدعوة في الاصطلاح

يطلق لفظ الدعوة اصطلاحاً على الرسالة الإسلامية، كما يطلق على الرسول ﷺ (داعي الله) أي صاحب الدعوة إلى توحيد الله تعالى، لهذا يعتبر دين الإسلام دين الرسالة أو دين الدعوة أي أنه من الأديان التي تدعو الإنسانية إلى اعتناق المبادىء التي تنادي بها، كما يعتبر الرسول ﷺ أول الدعاة، وقد نص القرآن الكريم على أسلوب نشر هذه الدعوة بالإقناع ناهياً عن الإكراه، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3]. وتحوي كتب التاريخ أسماء كثيرين من الدعاة الذين بشَّروا بالإسلام ونشروه ...[4].

والدعوة إلى الإسلام واجب المسلمين جميعاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هم المفلحون﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[7].

حكم تبليغ الدعوة:

بعث الله تعالى نبيه ورسوله محمداً ﷺ ـ خاتم النبيين ـ برسالة الإسلام الخاتمة، وأمره أن يُبلغها للناس كافة، ورغَّب سبحانه وتعالى من آمن منهم بالفوز برضاه تعالى والجنة، وحذر من عصى منهم بسخطه سبحانه والنار.

---

(١) مختار الصحاح ص ٢٠٥، ٢٠٦. (٢) سورة النحل آية ١٢٥. (٣) سورة يونس آية ٩٩.
(٤) القاموس الاسلامي أحمد عطية الله ٢/ ٣٧٣. (٥) سورة يوسف آية ١٠٨
(٦) سورة آل عمران آية ١٠٤. (٧) سورة الأنعام آية ١٩

وقد أوجب تعالى على كل من آمن به وبرسوله تبليغ الدعوة الإسلامية إلى جميع الناس في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة. ولكن ما نوع هذا الوجوب أهو فرض عين أم فرض كفاية؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: . . . . والدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول ﷺ وهم أمته، وقد وصفهم الله بذلك، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

هذا في حقه صلى الله عليه وسلم[2].

أما في حقهم فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3]. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزكاة. . .﴾[4].

وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة: وهو فرض كفاية يسقط عن البعض بالبعض، كقوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[5] الآية. فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة، فَبِهَذَا إجماعهم حجة، وإذا تنازعوا في شيء ردوه إلى الله ورسوله، فإذا تقرر هذا فالواجب على كل مؤمن أن يحبَّ ما أحب الله ورسوله، وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابه، فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلاَّ لرسول الله ﷺ، ولا لقول إلا لكتاب الله عز وجل[6]. والنصوص تثبت الوجوبين: فرض العين، وفرض الكفاية.

قال ابن كثير[7] في تفسير الآية الكريمة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ﴾[8]: المقصود من هذه الآية: أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧.
(٢) الفتاوى لابن تيمية ٢٠/٨.
(٣) سورة آل عمران آية ١١٠.
(٤) سورة التوبة آية ٧١.
(٥) سورة آل عمران آية ١٠٤.
(٦) الفتاوى لابن تيمية ٢٠/٨.
(٧) ابن كثير ١/٣٩١.
(٨) سورة آل عمران آية ١٠٤.

الله ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْأَيمَانِ)[1]. وقال عليه السلام (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُستَجَابُ لَكُمْ)[2] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ..﴾[3]. ينهي تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم[4]. ويقول أيضاً: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[5].

ويقول القرطبي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾[6] ... قيل إن (مِنْ) لبيان الجنس. والمعنى لِتَكونوا كلكم كذلك.[7] ويقول القرطبي أيضاً إن (مِنْ) في قوله تعالى (منكم) للتبعيض. ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء[8]. وقال: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وقد عينَّهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[9] وليس كل الناس مكنوا.

ويقول الطبري في تفسير الآية ﴿ولتكن منكم أمة﴾[10] أن جماعة يدعون الناس إلى الخير أي إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده. ويأمرون بالمعروف أي يأمرون الناس باتباع محمد ﷺ، ودينه الذي جاء به من عند الله، وينهون عن المنكر: يعني ينهون عن الكفر بالله، والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله بجهادهم بالأيدي والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة[11].

ويقول الشيخ أبو زهرة: في معنى الآية الكريمة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ..﴾ (فمن) في قوله تعالى ﴿مِنْكُمْ﴾ تدل على أحد معنيين: أحدهما ـ أن تكون بيانية، والثانية أن تكون للتبعيض، وعلى أنها بيانية يكون المعنى ولتكونوا أيها المسلمون جميعاً أمة داعية إلى

---

(١) رواه مسلم انظر رياض الصالحين حديث ١٨٩ تحقيق الألباني.
(٢) رواه الترمذي وحسنه، انظر رياض الصالحين حديث ١٩٨ تحقيق الألباني.
(٣) سورة آل عمران ١٠٥.
(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٩٣.
(٥) نفسه ١/٣٩٣.
(٦) سورة آل عمران آية ١٠٤.
(٧) تفسير القرطبي ٢/١٤٠٧.
(٨) نفسه.
(٩) سورة الحج آية ٤١.
(١٠) تفسير الطبري الجزء ٤/٣٨.
(١١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، فإن ذلك أساس الفلاح وإن هذا المعنى متلاق مع قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾[1].

واستطرد يقول أيضاً: فالآيتان على أن (من) بيانية تكونان دعوة للأمة كلها أن تبلغ الرسالة المحمدية، ولكن ذلك لا يمنع أن يتخصص بعض المؤمنين لتفقيه الناس في دينهم بعد أن يدخلوا في دين الله تعالى كشأن كل أمر واجب على الجماعة كلها، يقوم كل واحد بما يستطيعه الواحد منفرداً ثم تخصص الجماعة له من يقوم به، ويهدي الناس إليه.[2].

وقد كان في جيل الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ من يتعلم ومن يُعلّم، أي من يعرف أصول الإسلام فيقوم بها، ومن يستفتي عنده في العلم بما يجهله[3].

وعلى تفسير (من) في قوله تعالى (منكم) بأنها تبعيضية بمعنى بعض، فالمعنى على هذا ليكن بعضكم متخصصاً في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون هذا متفقاً في مؤداه مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[4].

ويرى الشيخ أبو زهرة أن يكون معنى الآية آنفة الذكر على أن (من) بيانية على معنى الأمر بأن تكون الأمة داعية إلى الخير كقول القائل: ليكن منك رجل فاضل يدعو إلى الخير ويهدي إليه، والذي سوغ لأبي زهرة اختيار ذلك: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ بضمير القصر أي أن الفلاح مقصور عليهم دون غيرهم، وذلك أنسب أن يكون وصفاً للأمة كلها...[5].

وفي كيفية أن تكون الدعوة فرض كفاية وفرض عين معاً يقول أبو زهرة: إن التكليف عام، بحيث يقوم كل بكفايته وما آتاه الله تعالى من علم، ولا يُخلي إنسان نفسه من تبعة الدعوة، والقيام بحقها، بيد أن على الأمة واجبين:

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠. (٢) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٤١.
(٣) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة. (٤) سورة التوبة آية ١٢٢.
(٥) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٤٢.

أحدهما ـ ما يقوم به كل واحد بعينه في الدعوة الحق هادياً مرشداً.

ثانيهما ـ أن يخصص أناس لهذه الدعوة من الأمة يكون لهم فضل علم بكتاب الله تعالى وفضل كفاية بيانية، وحكمة وإدراك، كما فعل النبي ﷺ عندما اختار مصعب بن عمير لأهل المدينة معلماً مقرئاً للقرآن، وكما اختار بعد فتح مكة لقريش من يعلمهم أحكام الإسلام، ويخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام[1].

ويستطرد قائلاً: وبذلك يتبين أنه التقى التكليف العام، وفرض الكفاية، وأن الإمام الشافعي (رحمه الله) وصف الفروض بأن الخطاب بها عام، ويدخله الخصوص، فالأمة تكون كلها مخاطبة، وهو على العموم وتركه إثم للجميع، ويجب تخصيص جماعة لذلك، وعلى الجميع يستوون في الإثم عند الترك العلماء وغيرهم، لأنهم جميعاً لم يقوموا بالواجب عليهم.

وبتطبيق ذلك على الدعوة إلى الإسلام دعوة الخير الشاملة يكون كل واحد في الأمة مطالباً أولاً: بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان، ومطالباً ثانياً: بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بياناً، وأعلم بالأحكام، وتعرف أوجه الحق والدعوة إليه، ومخاطبة النفوس عارفين بلغات من يدعونهم، ولهم جلد على الضرب في الأرض، وتحمل مشاق الأسفار في البر والبحر. وأنه بمقتضى هذا يتحقق فرض الكفاية، وفرض العين معاً ويتحقق تخصيص الذين يقومون بالدعوة في كل مكان، ويتحقق الوجوب للذين يقومون بالدعاية الشخصية، حيثما وجدوا للدعوة سبيلا[2].

وبناء على ما تقدم فإن الدعوة الإسلامية فرض عين وفرض كفاية معاً، فهي فرض عين على كل شخص في الأمة الإسلامية بأن يدعو إلى الله بما يعلم من أمور الدين مهما كان يسيرا، وفرض كفاية على الأمة الإسلامية بتخصيص فئة متفقهة في الدين للدفاع عنه ضد ما يحاك من مؤامرات للنيل من الإسلام والمسلمين.

مراحل تطبيق الدعوة:

الدعوة الإسلامية ليست بالوعظ والإرشاد فقط فهما شعبة من شعبها، إن الدعوة الإسلامية هي الإسلام ذاته، إنها كل عمل إسلامي في كل ميدان من ميادين الحياة، إنها

---

(١) الدعوة إلى الإسلام للشيخ أبي زهرة ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٤٣ ـ ٤٤.

دعوة بالقلب واللسان واليد، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ حيث قسم الدعوة إلى ثلاث خصال أو خلال:

الخِصلة الأولى:

تبدأ بالوعظ والإرشاد والبيان، وذلك بشرح تعاليم الإسلام، ودعوة الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

ولقد طبق رسول الله ﷺ ذلك أحسن تطبيق إذ بدأ بعشيرته الأقربين يدعوهم إلى الله بالقرآن وبالبيان، ويوضح لهم أن الله واحد لا شريك له، وأن الله يبعث من في القبور، وأنه مرسلٌ من قبل الله تعالى ليبين للناس ما نزِّل اليهم من ربهم، فكان يغشى الناسَ في مجالسهم في أيام المواسم وغيرها ويأتيهم في أسواقهم فيتلو عليهم القرآن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقول (مَنْ يُؤْوِيني وَمَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رَسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةَ) فلم يجد أحداً ينصره ولا يؤويه...[2].

ثم بعث بالكتب إلى ملوك وأمراء العالم يدعوهم للإسلام فمنهم من يجيب وأكثرهم من يرفض وقد اتسمت تلك المرحلة بالدعوة بالقلب بأن كان يتمنى رسول الله ﷺ لو يُسْلم الناسُ جميعاً.

لقد دعا رسول الله ﷺ قومه بلسان البيان أول الأمر وجادلهم بالتي هي أحسن، فآمن من آمن وصد عنه من صد، ولم يكن مأموراً بعد باتخاذ أي اجراء بشأن من يصدُّ عن سبيل الله. بل كانت مهمته ﷺ الدعوةَ إلى الله بالبيان فقط رغم ما كان يضيق صدره منهم حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[4] وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[5]. واستمر ﷺ يدعو إلى الله ويصبر على الأذى ويصفح عن الجاهل مدةَ ثلاث عَشْرَةَ سنةً لإقامة حجة الله تعالى عليهم ووفاء بعهده الذي امتن عليهم به في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[6].

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥.
(٢) الدعوة إلى الجهاد (عبد الله بن حميد) ص ٥٥.
(٣) سورة العنكبوت آية ١٨. (٤) سورة فاطر آية ٢٣.
(٥) سورة الحجر آية ٩٧. (٦) سورة الاسراء آية ١٥.

الخِصلة الثانية:

وهي أن يُؤمر أعداء الإسلام بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون إن هُم رفضوا الدخول في الإسلام، وأَخْذ التعهدات عليهم بعدم التعرض لدعاة المسلمين أو الوقوف في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

الخِصلة الثالثة:

القتال لتبليغ الدعوة ـ لما أراد الله تعالى إظهار دينه، أيده بنصره وبعباده المؤمنين إذ أمره الله بالهجرة وأذن لهم بالقتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِن اللَّه عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[2] ثم بأمرهم بقتال المشركين كافة فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[3].

ثم أمرهم تعالى بقتال أهل الكتاب إذا لم يُسْلموا حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فقال تعالى: ﴿قَاتِلُواالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾[4] الآية.

وقد جمع ﷺ هذه الخصال الثلاث، فقال ﷺ فيما رواه أبو داود: (إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ... فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ وَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ﴾[5].

تلك كانت القاعدة التي قعّدها ﷺ ليسير عليها المسلمون من بعده، ولم ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله له الدين وأتمَّ عليه النعمة وبين ﷺ لأمته كل شيء. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[6].

ثم خَلَفَ رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فسار على دربه واهتدى بهديه

---

(١) سورة الحج آية ٣٩. (٢) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٣) سورة التوبة آية ٣٦. (٤) سورة التوبة آية ٢٩.
(٥) أخرجه أبو داود حديث ٢٦١٢ ومسلم حديث ١٧٣١. (٦) سورة المائدة آية ٣.

ﷺ وبدأ يوجه الدعوة الإسلامية إلى خارج جزيرة العرب نحو الشام والعراق ولكن جاءه أمر الله ولم يُكمل فتوحه وكانت جيوش المسلمين على أبواب الشام.

ثم تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي فتح الله على يديه بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا، واختطت مدينتا الكوفة والبصرة وانتشر الإسلام في ربوع تلك البلاد.

فقد أتيح لهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما لم يُتَح لغيره من الصفات الشخصية الممتازة، والظروف التاريخية المواتية مما جعله بحق رائد الدعوة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث كان لاجتهاداته أثر كبير على نشر الدعوة الإسلامية، ومن ذلك مثلاً رفضه تقسيمَ أرض السواد بين الفاتحين وجَعْلها في أيدي الفلاحين يزرعونها مقابل خراج فرضه عليهم يستطيعونه الأمر الذي جعله يجد المال اللازم للإنفاق على تجهيزات الجيوش الإسلامية وتعبئتها وتجنيد أكبر عدد ممكن من المقاتلين لتغطية كل الجبهات القتالية وكذا الإنفاق على التدريب وحماية الثغور.

ومن جهة أخرى فقد رفض أيضاً إعطاء سهم المؤلفة قلوبُهم[1] وهذا في حد ذاته أعطى الشخصية القوية للمسلمين وساعد في إعزازهم بالإسلام، وبالمقابل إرهاب أعدائهم وأعداء الإسلام.

وكان عمر رضي الله عنه يبعث الدعاة إلى الأمصار المفتوحة ويراقبهم ويعطيهم التعليمات الكافية المحددة والتي تنحصر في تعليم الناس أمور دينهمُ وسُنَّة نبيهم ﷺ وأن يعدلوا بينهم سواء في ذلك مسلمهم ومعاهَدِهم. وكان لهذا العدل أثره الكبير في دخول أهل الأمصار المفتوحة في الإسلام. كما كان عمر رضي الله عنه دائم المحاسبة والمراقبة لعماله وكان يقول: أيها الرعية إن لنا عليكم حقاً، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير أيتها الرعاة، أن للرعية عليكم حقاً، اعلموا أنه لا حلم أحب إلى الله تعالى ولا أعم من حلم أمام ورفقه، وأنه ليس جهل أبغضَ إلى الله ولا أعم من جهل امام وخرقه، واعلموا أن من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه[2].

---

(١) المؤلفة قلوبهم: قوم أعطوا من الزكاة ليتألفوا على الإسلام. فأفرد لها مبحث خاص في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي ص ١٣٩.

وبهذا فقد أعز الله الإسلام بعمر رضي الله عنه: فتح الفتوح ونشر العدل ومصَّر الأمصار وهو جم المناقب فهو محدَّث ملهم، وهو العبقري، وهو صاحب العلم هكذا وصفه رسول الله ﷺ حين قال: إنه كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناس محدَّثون. وإنه إن كان في أمتي هذه سنهم أحد فإنه عمر بن الخطاب.[1] وقال ﷺ: (الحق بعدي مع عمر ابن الخطاب حيث كان)[2] وقال ﷺ عنه أيضاً (. . . هذا عمر هذا لا يحب الباطل)[3] وقال ﷺ أيضاً: (والذي نفسي بيده ما لقيت الشيطان قط سالكاً فجاً الا سلك فجاً غير فجك)[4].

وعلى هذا فقد كان عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكل أهمية خاصة في الحكم على القيم الحضارية التي أرستها أمتنا يوم كانت خير أمة أخرجت للناس، ففي تلك الفترة أتيحت للنظام الجديد فرصته الكاملة في التطبيق، بعدما تم في عهد رسول الله ﷺ وخليفتِه أبي بكر رضي الله عنه تشكيل المجتمع الإسلامي في أرض العرب وتأمين حريته. في أن يفكر وأن ينظم وأن يحكم نفسه بحكم الله تعالى.

لقد وصلت الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ رغم اتساعِها ـ إلى قمة أمنها الداخلي والخارجي، وأتيح للمنهج الإسلامي أن يمتحن في التطبيق، لا مِنْ خلال العلاقات في مجتمع المسلمين، بل وكعقيدة توجه سلوك المؤمنين بها في تعاملهم مع غير المؤمنين.

وفي عهد عمر رضي الله عنه ظهرت القضايا الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، التي امتحنت قدرة المنهج الإسلامي على التشريع والاجتهاد لمواجهة ما يجد من مشاكل.

ولكن هل كانت روعةُ الدعوةِ الإسلامية في عهد عمر رضي الله عنه نابعةً من شخصيته رضي الله عنه وحدها؟

أبداً، إن هذه العظمة التي سجلها التاريخ للعهد العمري ترجع أساساً إلى ثلاث حقائق هي:

الحقيقة الأولى: العقيدة الإسلامية: التي صاغت سلوك الأمة، وسلوك الحاكم، وحددت العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

---

(١) نفسه ص ٣٤ وأخرجاه في الصحيحين، محدث يعني ملهم.
(٢) نفسه ص ٣٨. (٣) نفسه ص ٣٨.
(٤) نفسه ص ٣٥ وأخرجاه في الصحيحين.

الحقيقة الثانية: الأمة: التي كوَّنها الإسلام، ورباها الرسول ﷺ فعرفت واجباتها وحقوقها، وما كانت لتقبل انحراف حَاكم أو تفريطاً في مثقال ذرَّة من حقوقها، والتي ردَّت على أول خطاب للحاكم عندما طالبهم بتقويم انحرافه حيث قالوا: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا.

الحقيقة الثالثة: شخصية عمر التي تشربت خُلقَ الإسلام ووعت جوهره على يد خير معلم ﷺ، فكان عمر نموذجاً إسلامياً كاملاً في تولِّيه امارة المؤمنين فترة زمنية كافية لامتحان أفضل منهج في التطبيق، وبجهود خير أمة أُخرجت للناس، فالعهد العمري هو مزيج من هذه الحقائق الثلاث: العقيدة، والأمة، والحاكم المؤمن.

البَابُ الأوّل

نَشر الدعوَة الاسلاميَة

الفصل الأول

نشر الدعوة هدف الإسلام الأساسي

المبحث الأول: دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم دعوة عامة:

أولاً: مرحلة النبوة والإعداد للتبليغ:

أكرم الله تعالى نبيه محمداً ﷺ حينما اصطفاه لتبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة، فقد بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة وهي رأس الكمال ولها تبعث الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فكان أول ما شرفه الله تعالى من أمر النبوة أن تأتيه الرؤيا الصالحة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وتحققت كما رآها صلى الله عليه وسلم.

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء[1]. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطني[2] الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم ارسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم﴾[3]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع[4]، فقال

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/٢٣. وانظر سيرة النبي ﷺ لابن هشام ١/٢٥٢.
(٢) الغط: حبس النفس. مختار ص ٤٧٦. (٣) سورة العلق آية ١: ٣.
(٤) الروع: الفزع.

لخديجة وأخبرها الخبر: لقد، خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل[1]، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف[2]، وتعين على نوائب[3] الحق. فانطلقت خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي - ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية وكان يكتب الكتابة العبرانية، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، وقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا[4] ليتني أكون حياً اذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ أومخرجي هم؟ نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب[5] ورقة أن توفي وفتر[6] الوحي[7].

وقد عدد ابن القيم الوحي على رسول الله ﷺ حيث قال: . . . وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة.

احداها: الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: ما يلقيه الملك في روعه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: إن روح القدس نفث من رُوعي[8] انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته.

---

(١) الكل: من لا يستقل بأمره فتح الباري ١/٢٤.

(٢) تقري الضيف: تحسن إليه. مختار ٥٣٣.. (٣) نوائب: المصائب. مختار ص ٦٨٤.

(٤) الجذع: الصغير من البهائم. والمعنى: كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الاسلام شاباً لنصرته. فتح الباري ١/٢٦.

(٥) لم ينشب: لم يلبث.

(٦) فتر الوحي: تأخر مدة من الزمان. فتح الباري ١/٢٧.

(٧) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/٢٣ طبعة المكتبة السلفية. محب الدين الخطيب.

(٨) الروع: بالفتح الفزع، والروعة الفزعة. والروع بالضم القلب والعقل، والمعنى نفث في خلدي وبالي. مختار ص٢٦٣.

الثالثة: إنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتصفد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زين العابدين ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها[1].

الخامسة: إنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي اليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى في سورة النجم[2]. حيث قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوىٰ. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى، ثُمَّ دَنَا فتدلّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فأوحى إِلَى عَبْدِهِ ما أوحَى. مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى، أفتمارونه عَلَى مَا يَرى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سَدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾. سورة النجم ١: ١٤.

السادسة: ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة ثابتة لموسى عليه السلام قطعاً بنص القرآن الكريم، وثبوتها لنبينا ﷺ وهو في الإسراء، وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة بل كلهم مع عائشة رضي الله عنها كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة[3].

وقد أثبت القرآن الكريم نبوته ﷺ، وعلى أنه رسول مبلغ عن ربه دعوة الإسلام للناس كافة، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾.[4] وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ

---

(١) الرض: الدق الجريش وبابه رد فهو رضيض. وكل شيء كسرته فقد رضرضته. مختار ص ٢٤٥.

(٢) انظر زاد المعاد لابن قيم ١/١٨.

(٣) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم ج ١ ص ١٨.

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٥ - ٤٦.

رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ. . .﴾[1] وقوله: ﴿. . وأرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[2]. وقوله: ﴿يا أَيُّهَاالنَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ. . .﴾[3] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الذِي لَهُ مُلْكُ السَمَّوَاتِ وَالأَرضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُميتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾[4]. وقوله: ﴿وَمَا أَرسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً. . .﴾[5].

وقوله ﷺ: (إنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْاً فَأَحْسَنَه وأجْمَلَهُ إلاَّ مَوْضِع لَبنَةٌ من زاويةٍ فجعل النَّاسُ يطوفون به ويَعْجَبون له ويقولون هَلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ قال فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خَاتَمُ النَّبيين﴾[6].

وأعد الله تعالى نبيه ﷺ لتحمل أعباء تبليغ الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُر. وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر﴾[7]

وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها، بهذا التصور، وبهذا الشعور، فيستصغر كل كيد، وكل عقبة وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة، هو الكبير. . ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور[8].

والمبلغ لهذا الأمر الإلهي العظيم يجب أن يكون هو نفسه أهلاً لتحمل أعباء وأثقال هذا التبليغ للبشرية، التي استشرى فيها الضلال والفساد، والكفر والإلحاد، لهذا فإن الله سبحانه وتعالى جعل رسوله ﷺ تحت الاختبار والبلاء العظيم، وأثقل عليه في التكليف ليجعل منه صلوات الله وسلامه عليه أهلاً لتحمل أعباء هذا التبليغ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ الَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً. نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً. إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً. إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ

---

(١) سورة الفتح آية ٢٦.
(٢) سورة النساء آية ٧٩. (٣) سورة التوبة آية ٧٣.
(٤) سورة الأعراف آية ١٥٨. (٥) سورة سبأ آية ٢٨.
(٦) رواه أبو هريرة: كتاب المناقب: باب خاتم النبيين. انظر: هداية الباري الى ترتيب صحيح البخاري للسيد عبد الرحيم الطهطاوي ج ١ ص ٢٠٣.
(٧) سورة المدثر آية ١: ٧. (٨) في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٤ ٣٧٥.

سَبْحاً طويلاً. وَاذْكُر اسْمَ رَبّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيهِ تَبْتِيلاً. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[1].

ثانياً: مرحلة التبليغ:

وتنقسم إلى قسمين
القسم الأول: الدعوة السرية.
القسم الثاني: الدعوة الجهرية.

القسم الأول: الدعوة السرية

استمرت مرحلة الدعوة السرية ثلاث سنين من مبعثه صلى الله عليه وسلم.

قال ابن اسحاق: . . . وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين، فيما بلغني من مبعثه[2]. فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوة سراً، إلى من يطمئن إليه من أهله[3].

فكانت زوجه خديجة رضي الله عنها أول من بادرت إلى الإيمان بالله ورسوله وتؤازر النبي ﷺ وتثبته، قال ابن اسحاق: . . . وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاء به من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاءمنه. فخفف الله بذلك على نبيه ﷺ لا يسمع شيئاً مما يكره من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها اذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى[4].

هكذا كانت زوجه خديجة رضي الله عنها أول من آمن به ﷺ من النساء فبدأ يعلمها كيف الطهور للصلاة، قال ابن اسحاق: فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته، . . .[5].

وكانت الصلاة يومئذ ركعتين ركعتين، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: افترضت

---

(١) سورة المزمل الآيات ١: ١٠. (٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٤. (٣) نفسه ص ٢٦١.
(٤) نفسه ص ٢٥٩. (٥) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٣.

الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة، ثم إن الله أتمها في الحضر أربعاً، وأقرها في السفر على فرضها الأول[1].

ولما فرضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل فتوضأ أمامه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته[2].

وبدأ رسول الله ﷺ يدعو كل من يثق به إلى الله تعالى، فدعا ابن عمه علي ابن أبي طالب فآمن به رضي الله عنه وكان أول من آمن من الصبيان، قال ابن اسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى... وهو ابن عشر سنين[3].

ثم توالت دعوته ﷺ لكل من يثق به من قريش، فدعا زيد بن حارثة رضي الله عنه فأسلم، كما قال ابن اسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزي ابن امرىء القيس الكلبي، مولى رسول الله ﷺ، وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب[4].

ثم أسلم أبو بكر رضي الله عنه بالله ورسوله، كما قال ابن اسحاق: ثم أسلم أبو بكر ابن أبي قحافة واسمه عتيق، وأسلم أبو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر[5].

وأسلم بإسلام أبي بكر عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم[6]، قال ابن اسحاق: فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ - حين استجابوا له - فأسلموا وصلّوْا، وكان رسول الله ﷺ يقول - فيما بلغني -: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة[7] ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه[8] حين ذكرته له وما تردد فيه[9]. قال ابن اسحاق: فكان هؤلاء النفر

---

(١) نفسه (٢) نفسه.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٦٤. (٤) نفسه ص ٢٦٥

(٥) نفسه ص ٢٦٧. (٦) المرجع السابق بتصرف.

(٧) كبوة: يعني تأخير وقلة إجابة، وهو من قولهم: كبا الزند، إذا لم يور نارا، قاله أبو ذر. وقال ابن الأثير: الكبوة: الوقفة كوقفة العاثر أو الوقفة عند الشيء يكره الانسان، ومنه كبا الزند، اذا لم يخرج نارا. ابن هشام (هامش ١ ص ٢٦٨).

(٨) عكم: تلبث (٩) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٨.

الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام، فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ بما جاءه من الله[1].

واستمر رسول الله ﷺ في دعوته السرية لكل من يثق فيه من قريش، فأسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قادمة وعبد الله ابنا مظعون... وغيرهم[2].

القسم الثاني: الدعوة الجهرية

وتشمل:

١ ـ دعوة عشيرته الأقربين

لما فشا الاسلام بدخول الناس فيه رجالاً ونساء، أمر الله رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة، يقول ابن اسحق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به، ثم ان الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو اليه[3]. ثم قال تعالى له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[5]. قال ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يابني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك الا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾[6].

وفي حديث آخر عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: يامعشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله

---

(١) نفسه ص ١٦٩. (٢) المرجع السابق بتصرف ص ١٦٩.
(٣) ابن هشام ج١ ص ٢٧٤. (٤) سورة الحجر آية ٩٤.
(٥) سورة الشعراء آية ٢١٤ ـ ٢١٧.
(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٥٠١ حديث رقم ٤٧٧٠ وانظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٤٨٥٩، وانظر تفسير الطبري ج ١٩ ص ١٢٣/١١٨.

شيئاً. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً[1].

وقد دعا رسول الله ﷺ عمه أبا طالب للإسلام وعبادة الله وحدة لا شريك له وذلك عندما سأله عمه عن هذا الدين الذي رآه يدين به قال: (أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم) أو كما قال ﷺ (بعثني الله به رسولاً إلى العباد وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه) أو كما قال فقال أبو طالب: أي ابن أخي إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص[2] اليك بشيء تكرهه ما بقيت[3].

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على تنفيذ أمر ربه تبارك وتعالى، فمن ضمن ما كان يفعله عليه السلام لجذب انتباه عشيرته الأقربين، وجمعهم لدعوتهم إلى الله تعالى أن أمر ابن عمه علياً رضي الله عنه ذات يوم أن يصنع طعاماً، ويدعو بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمام الرسول ﷺ وهم أبو طالب، وحمزة والعباس، وأبو لهب. ثم دعاهم الرسول ﷺ للطعام فأكل القوم حتى شبعوا، فلما أراد الرسول ﷺ أن يكلمهم، ويدعوهم للإسلام بدره عمه أبو لهب إلى الكلام، ونهى القوم على أن يسمعوا له، وتفرقوا من يومهم هذا[4].

ومضى رسول الله ﷺ يبلغ الدعوة ويصدع بأمر ربه وينذر عشيرته الأقربين الأمر الذي جعل قومه يناكرونه، ويقفون في وجه الدعوة معاندين، يكيدون له ولمن أسلم معه، ويتربصون بهم الدوائر لينالوا منهم ما يكرهون. وكان عمه أبو طالب يمنعه، يقول ابن هشام: . . . وحدب[5] على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه، وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره، لا يرده عنه شيئاً[6].

---

(١) فتح الباري حديث رقم ٤٧٧١ ج ٨ ص ٥٠١، وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٠، وانظر في ظلال القرآن ج ٥ ص ٦١٩، وانظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٦.

(٢) لا يخلص اليك بشيء: أي لا يوصل اليك، يقال: خلصت اليه أي وصلت اليه، قاله أبو ذر (انظر ابن هشام هامش ١ ج ٢ ص ٢٦٥ وانظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١٧ بتصرف.

(٥) حدب: عطف عليه ومنعه (انظر ابن هشام هامش ١ ج ١ ص ٢٧٦.

(٦) المرجع السابق.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ زاد في تسفيه أحلامهم، وتعييب آلهتهم ورأوا من جهة أخرى أن أبا طالب يمنعه، ويقوم دونه، ولم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش يشكون الرسول ﷺ إلى عمه أبي طالب، وهؤلاء النفر من قريش هم: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، نبيه، ومنبه ابنا الحجاج فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وأما أن تخلي بيننا وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلاً، وقولاً حسناً رقيقاً حتى لا يغضبهم، ولم يمتنع رسول الله ﷺ عن إظهار أمر ربه، وواصل دعوته إلى الله تعالى دون خوف من أحد، ودون تردد في الأمر، يزداد كل يوم ثقة في نفسه، وبأن الله تعالى حتماً مظهر دينه.

وظل الإسلام يشيع بين الناس واسم رسول الله ﷺ يتردد على كل شفاه الأمر الذي غاظ قريشاً أيما غيظة، وتزامروا على رسول الله ﷺ وحض بعضهم بعضاً عليه وأصبحوا لا يطيقونه، ولا يريدون أن يكثر أتباعه. فسارعوا إلى عمه أبي طالب ـ للمرة الثانية ـ يريدون أن يضعوا حداً لهذا التحدي لهم من ابن أخيه ﷺ[1]. وقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد نهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ إليهم، ولاخذلانه[2].

ولما سمع عمه أبو طالب مقالة قريش حزن لذلك واضطر أن يرسل إلى رسول الله ﷺ ليكلمه في هذا الأمر الذي عرضوه عليه، قال ابن هشام: فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا له، فابق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله أو مسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، قال: فقال رسول الله ﷺ (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أَهْلِكَ فيه ما تركته) قال ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦، وانظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١٨ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٨، وانظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١٨.

أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[1].

هكذا نرى كيف أن رسول الله ﷺ كان مصراً على تبليغ دعوة الله تعالى لقومه، وكيف كانت وقفته الصامدة الشجاعة ضد الطغاة من قريش، لا يخافهم أبداً رغم قلة عدد المسلمين وعَتادِهم، وكثرة عدد المشركين وعُدَدَهم، إنه الإيمان الخالص بالله تعالى والثقة في نصره.

٢ ـ دعوة أهل الطائف:

ولما أوذى رسول الله ﷺ من أهله أشد الإيذاء، وكذبوه، ورموه بالجنون تارة، وبالكهانة تارة أخرى ومرة يقولون عنه إنه شاعر وأخرى يقولون ساحر. . . ففكر ﷺ في الذهاب إلى الطائف لنشر الدعوة إلى الله في أهلها، لعله يجد منهم قبولاً، يقول الطبري: . . . ولما هلك أبو طالب خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يتلمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه، وذكر أنه خرج إليهم وحده.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ـ هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم اخوة ثلاثة: عبد يا ليل، وسعود، وحبيب أبناء عمرو بن عمير وعندهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم وهو يمرط ـ يمزق ـ ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن ارد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: (اذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني)، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه[2]. فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٨، وانظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١٩.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، وانظر ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ وما بعدها ويذئرهم: أي يحرشهم، وقد قاله ابن هشام، وفي الحديث (ذئر النساء على الرجال فأمر بضربهن) أي غضبن ونشزن.

فعمد إلى ظل حبلة[1] من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

وقد لقى رسول الله ﷺ المرأة التي من بني جمح فقال لها: (ماذا لقينا من أحمائك) فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: (اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى[2] حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)[3].

ذلك كان خبر ثقيف مع رسول الله ﷺ، الذي إن دل على شيء فإنما يدل على عنادهم وصلفهم، فقد ردوا رسول الله ﷺ رداً مهيناً، وانصرف عليه السلام راجعاً إلى مكة المكرمة، حين يئس من خير ثقيف.

ولكن رسول الله ﷺ بشر رسول، يجري عليه ما يجري على البشر في حياتهم من غضب وفرح، ويأس وسرور، كما أن له طاقة تحمل محدودة أيضاً، ليس في مقدوره أن يتعداها، فلما استنفد كل طاقته وجهده في دعوة الناس إلى الله آخذاً بالأسباب البشرية لأنه بشر كما أسلفنا، وعندما لم تفلح أسبابه البشرية في جعل أهل الطائف يقبلون دعوته. عندئذ بدأ يناجي ربه يطلب منه العون.

إن الله تعالى كان يمكن أن ينصر رسوله الكريم ﷺ ابتداء دون أن يناله أذى، ولكن الله تعالى أراد لأمة محمد ﷺ بصفة عامة والدعاة منهم بصفة خاصة أن يتأسوا برسولهم ﷺ ويقتدوا به في تحمل الشدائد، ومقابلة المصاعب والصبر على المكاره في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[4]. فالرسول ﷺ لم يلجأ إلى ربه تعالى قبل أن يأخذ بأسباب بشريته أولاً، فنراه جاهد وصبر وتحمل، وبذل قصارى جهده في سبيل دعوة القوم وعندما

---

(١) الحبلة: طاقات من قضبان الكرم.
(٢) العتبي: الرضي (ابن هشام هامش ١ ج ٢ ص ٣٠).
(٣) سيرة الرسول لابن هشام ج ٢ ص ٢٩، ٣٠ وانظر تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٣٠.
(٤) سورة الأحزاب آية ٢١.

رفضوا أن يجيبوه لجأ إلى ربه يطلب معونته، وهكذا يكون الداعية إلى الله، لا يقعد عن تبليغ الدعوة متكاسلاً، متعللاً بأن الله لو أراد لقوم الهدى لاهتدوا بدون دعوة من أحد، وهذا صحيح بلا ريب، ولكن الله تعالى أمرنا أن ندعو إلى دين الإسلام بلا تواكل ولا كلل ولا ملل وأن ينصح بعضنا بعضاً، فعلى الداعية أن يسعى ويجتهد ويتوكل على الله تعالى.

٣ ـ دعوة قبائل العرب في موسم الحج:

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمَاً ما أتاهم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2]. قال القرطبي: (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) يعني العرب[3]. وقال الطبري: (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) يقول تعالى ذكره: ولكن أرسلناك بهذا الكتاب وهذا الدين لتنذر قوماً لم يأتهم من قبلك نذير، وهم العرب الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، بعثه الله إليهم رحمة لينذرهم بأسه على عبادة الأصنام، وإشراكهم به الأوثان والأنداد[4].

ويقول صاحب الظلال: (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وهم العرب الذين أرسل اليهم محمد ﷺ لم يرسل إليهم أحد قبله ولا يعرف التاريخ رسولاً بين اسماعيل عليه السلام جد العرب الأول وبين محمد صلى الله عليه وسلم[5].

مما سبق يتبين أن معنى (لتنذر قوماً...) الآية، مقصود بهم العرب، وعلى الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى الله تعالى. فكان عليه السلام يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج بمنى ليدعوهم إلى الإسلام، وكان عمه أبو لهب ينفرهم منه.

وفي هذا يقول ابن اسحق: وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، قال: سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبي، فقال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به) قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان[6] عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك

---

(١) سورة القصص آية ٤٦. (٢) سورة السجدة آية ٣.
(٣) مجلد ٦ ص ٥٠٠٨ كتاب الشعب. (٤) تفسير الطبري ج ٢٠ ص ٨٢.
(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٥ ص ٢٨٠٦.
(٦) غديرتان: تثنية غديرة، وهي ذؤابة من الشعر.

الرجل: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وخلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه، قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزي بن عبد المطلب أبو لهب[1].

وتذكر لنا الروايات: أن القبائل التي عرض الرسول ﷺ عليها الدعوة في مواسم الحج كان موقفها منه كالآتي: ـ

١ ـ قبائل شرطت شروطاً لقبولها الإسلام.
٢ ـ قبائل لم توافق الرسول ﷺ على الإسلام.
٣ ـ قبائل انقسمت على نفسها ما بين موافق على الإسلام وغير موافق.
٤ ـ ومن الأشخاص من قال للرسول ﷺ لعل الذي معك مثل الذي معي وادعى النبوة[2].

ولما عرض النبي ﷺ نفسه على نفر من الخزرج فدعاهم للإسلام فأسلموا وعندما رجعوا إلى قومهم بالمدينة دعوهم إلى الإسلام حتى انتشر فيهم قال ابن اسحق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز مَوْعوده له خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً[3].

قال ابن اسحق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: (من أنتم)؟ قالوا نفر من الخزرج، قال: (أمن موالي يهود)؟ قالوا نعم، قال) (أفلا تجلسون أكلمكم)؟ قالوا: بلى فجلسوا معه... وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهودا كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم على شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد عَزُّوهم[4] ببلادهم.

فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم: أن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٢.
(٢) انظر في تفصيل ذلك ابن هشام ج ٢ ص ٣٢ وما بعدها.
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣.
(٤) عزوهم: غلبوهم وقهروهم. انظر ابن هشام هامش ج ٢ ص ٣٨.

لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عَليهم ندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

واستطرد ابن إسحق يقول: فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل وافي الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب[1].

وكانت بيعة النساء لرسول الله ﷺ، لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهنَّ، ولا يأتين ببهتان يفترينه من بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف[2] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ..﴾[3].

٤ ـ دعوة من لم تبلغه الدعوة من عرب الجزيرة:

قال الطبري: هاجر رسول الله ﷺ إلى المدنية في شهر ربيع الأول من سنة أربع عشرة من حين استنبىء وكان خروجه من مكة إليها يوم الاثنين وقدومه المدينة يوم الاثنين لمضي اثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول[4].

واستقبله أهل المدينة بالترحيب الحار[5] ثم بدأ ﷺ يرسم المنهج التفصيلي لكيفية نشر الدعوة بعد الهجرة فأول شيء فعله هو بناء مسجده الشريف توطئة لبناء الدولة الإسلامية بالمدينة ثم بدأ ﷺ إرسال البعوث والسرايا والغزوات لنشر الدعوة داخل جزيرة العرب وكان ﷺ يهدف من وراء تلك البعوث إلى الآتي: ـ

أ ـ نشر الدعوة الإسلامية استجابة لأمر ربه جل وعلا وهو الغرض الأساسي.

ب ـ بعث الرعب والخوف في قلوب المشركين وإشعارهم أن عهود الضعف التي كان المسلمون يعيشونها في مكة قد ولت إلى غير رجعة.

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٨. (٢) انظر فتح الباري ج ٧ ص ٢١٩. (٣) سورة الممتحنة آية ١٢.
(٤) ت: الطبري ج ٢ ص ٢٥ (وكان موافقاً ٢٠ من سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية) تاريخ الاسلام ١ / ١٠٠.
(٥) فتح الباري ج ٧ ص ٢٦٠.

ج ـ تثبيت هيبة المسلمين في نفوس أعدائهم وأيضاً لاستكشاف طبيعة الأرض الجديدة حول المدينة والقبائل التي تجاورهم لمعرفة ميولهم واتجاهاتهم وقوتهم وضعفهم حتى تكون مواجهته لهم بالقدر المناسب.

وبعد أن غطت الدعوة شبه الجزيرة العربية بدأ رسول الله ﷺ يكتب إلى ملوك العالم آنذاك ليدعوهم إلى الله جل وعلا.

٥ ـ إرسال الكتب إلى ملوك وأمراء العالم يدعوهم إلى الإسلام.

وقد اتبع رسول الله ﷺ في تبليغ هذه الدعوة إلى العالمين أسلوب بعث الرسل إلى ملوك ورؤساء الأمم في ذلك الوقت ولم يكن اختيار الرسول ﷺ للملوك ليدعوهم ـ أولا دون شعوبهم ـ إلى الإسلام جاء مصادفة منه ﷺ ولكنه على العكس من ذلك تماماً فقد أدرك رسول الله ﷺ بفطنته وتجاربه أن الملوك ورؤساء القوم إذا ما دعوا أولاً ولبوا دعوة الإسلام فسيتبعهم شعوبهم على الفور وهذا في الأغلب الأعم، لأن الناس على دين ملوكهم، وبالتالي يكون ﷺ قدا اختصر طريق نشر الدعوة الإسلامية وأكسبها مجموعة من الناس بدعوة رجل واحد وهو ملكهم أو أميرهم، وعلى ذلك بعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكَلْبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السَّهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضِّمْري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام[1].

وقد ذكر البخاري هذه الكتب.

قال أنس: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى ملك الروم قيل له: إنهم لا يقرءون كتابا إلاَ ان يكون مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمدٌ رسول الله[2].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، يدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى حرَّقه، فحسبت أن سعيد ابن المسيب قال: فدعا عليهم النبي ﷺ أن يمزقوا كل ممزق[3] وعن ابن عباس ايضا: أن رسول الله ﷺ

---

(١) ابن هشام ٤/٢٧٩، وتاريخ الطبري ج ٣/٨٤ ـ ٨٥.
(٢) فتح الباري ٦/١٠٨، ١/١٥٤.
(٣) فتح الباري ٦/١٠٩.

كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي هاهنا أحداً من قومه لأسألهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتضمنت هذه الكتب دعوة الملوك للإسلام وتوحيد الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وهو الأسلوب الذي ذكره الله تعالى له كيف يدعو الناس إلى دين الله فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

ويحسن بنا أن نأتي بمثال لتلك الكتب لنرى كيف كان يدعو رسول الله ﷺ الناس كي نتأسى بأسلوبه ﷺ. كتابه ﷺ إلى هرقل ملك الروم[2] الذي أرسله مع دحية الكلبي (باسم الله من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام[3] أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين[4] فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[5] و ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[6].

وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى ملك الفرس[7] (بسم الله الرحمن الرحيم من مُحَمد رَسُولِ اللَّه إِلَى كِسْرَى عَظِيم فَارِس سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَشَهِدَ أَنْ لا إله إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عبده ورسوله أَدْعُوكَ بِدعَايَة الله عَزَّ وجَلَّ فإني أنا رسول الله إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِين أَسْلِمْ تَسْلَمْ فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمَ الْمَجُوسُ[8].

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥.

(٢) فتح الباري ٦/١٠٩، وتاريخ الطبري ٣/٨٧، وجمهرة رسائل العرب ص ٣٣.

(٣) أي بالكلمة الداعية إلى الاسلام وهي كلمة التوحيد فالباء بمعنى إلى. انظر جمهرة رسائل العرب هامش ١ ص ٣٣.

(٤) أي لإيمان أتباعك بسبب إيمانك أو لإيمانك بعيسى ثم بمحمد عليهما الصلاة والسلام.

(٥) أي الفلاحين (جمهرة رسائل العرب هامش ٣ ص ٣٣).

(٦) سورة آل عمران آية ٦٤.

(٧) تاريخ الطبري ٣/٩٠، وجمهرة رسائل العرب ص٣٥ - ١/٣٦.

(٨) أي اثم اتباعك ورعاياك.

فلما قرأ كسرى الكتاب غضب ومزقه وقال: يكتب إلى هذا وهو عبدي فقال ﷺ حين بلغه ذلك (مزق ملكه).

وكتب ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة كتاباً قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم[1] ملك الحبشة سلم[2] أنت فإني أحمد إليك الله[3] الذي لا إله إلا هو الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول[4] الطيبة الحصينة فحملت بعيسى حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً[5] ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءك فأقْرِهِمْ[6] ودع التجبر وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى)[7].

وقد رد النجاشي على رسول الله ﷺ واعتنق الإسلام[8] وبعث ﷺ حاطب ابن ابي بلتعة إلى المقوقس[9] عظيم القبط في مصر الكتاب التالي (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك اثم القبط. و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون). وكتب ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق الكتاب وأرسله مَع شُجاع ابن وهب الأسدي (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شَمَر الغسَّاني سلام على من اتّبع الهُدى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَصَدَّقَ وَإِنِّي أَدْعُوكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَبْقَى لَكَ مُلْكُكَ) فقدم به شُجاع بن وهب فقرأه عليه فقال: مَنْ ينزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه فقال النبي ﷺ: (بَادَ مُلْكُه)[9].

---

(١) انظر أسد الغابة ١/٦١ ـ ٩٩.

(٢) السلم بالكسر والفتح: السلام وهو مصدر وصف به أنت ذو سلم.

(٣) أي أحمده معك وقيل معناه: أحمد إليك نعمة الله بتحديثك إياها.

(٤) البتول: المنقطعة عن الرجال التي لا شهوة لها فيهم.

(٥) هو جعفر بن أبي طالب وكان ممن هاجر الى الحبشة حيث اشتد ايذاء الكفار.

(٦) قرى الضيف كرمي وكري بالكسر والقصر وقراء بالفتح والمد: أحسن اليه.

(٧) تاريخ الطبري ٣/٨٩، وجمهرة رسائل العرب ص ٣٦ ـ ٣٧ ج١.

(٨) انظر السابق ٣/٨٩، والمقوس اسمه جريج بن مينا وكان ذلك عام ٦ من الهجرة.

(٩) تاريخ الطبري ج ٣/٨٨، وجمهرة رسائل العرب ج ١ ص. ٤ ـ ٤١.

المبحث الثاني

مسئولية المسلمين عن التبليغ

لم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أتم الله له الدين حيث قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً . .﴾[1] وكان ﷺ يدرب صحابته ويعلمهم كيف يتحملون عبء تبليغ الدعوة إلى العالمين فكان يرسلهم إلى بلاد العالم ليدعوا أهلها إلى الإسلام ويبلغوهم رسالة الله تعالى حتى توفي ﷺ وهو عنهم راض وأودع أمانة الدعوة من بعده الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين. لأنه لا يعقل أن يخاطب النبي ﷺ بدعوة التوحيد من عاصروه من العرب ومن جاورهم بل وتطالب به أجْيال الأرض كلها مشرقها ومغربها إلى أن تقوم الساعة ثم يترك النبي ﷺ ذلك الدِّين هَمَلاً لمن بعده دون أن يعرفهم شيئاً عن العقيدة التي دعا إليها ذلك الدين حاش لله وكلا أن يترك دينه هكذا بل ولا يترك رسول الله ﷺ الامر من بعده من غير تكليف لمن اتبعوه واهتدوا بهديه أن يقوموا بحق الدعوة ونشرها[2] ولأن أمر الدين لو ترك بعد رسول الله ﷺ هملاً ولم يكلف أحد بنشره فكيف يستقيم ذلك مع قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3] وقوله تعالى : ﴿وإِن مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[4] فالنَّذِير المَحذِّر والبَشِير المُبشِّر لاَ بُد من وجودهما في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

إن الله تعالى أرحم بعباده من أن يترك الناس من بعد رسوله خاتم النبيين بُوراً لا هادي يهديهم ولا داعي للحق يدعوهم إليه والعقول وحدها لا تكفي في الهداية وقد ضلت العقول وتاهت الأفهام تحت لجاجة الأهواء والشهوات وعندئذ يتخذ الناس إلههم هواهم[5] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ . . .﴾[6] ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ

---

(١) سورة المائدة آية ٣.
(٢) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة بتصرف ص ٢٣.
(٣) سورة الإسراء آية ١٥.
(٤) سورة فاطر: ٢٤.
(٥) الدعوة إلى الاسلام لأبي زهرة ص ٢٣. (٦) سورة الجاثية آية ٢٣.

إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[1] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ..﴾[2].

لذلك كان تكليف النبي ﷺ تبليغ دعوته تكليفاً لأمته وقد صرَّحت الآيات البينات من كتاب الله تعالى بذلك فقد قال الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

وقد دلت الآية الكريمة على أربعة أمور:[4].

الأول: أن الله تعالى كلف رسوله ﷺ بأمر الدعوة إلى الله.

الثاني: أن الله تعالى كلف من يتبع الرسول ﷺ بأمر الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان وعلى العكس من ذلك تماماً فإنَّ مَنْ لم يُبَلِّغ الدعوة لا يعد تابعاً للنبي صلى الله عليه وسلم.

الثالث: أن يكون الداعي له بصر بالأمور يأتيها من طرقها المسلوكة وأن يكون لينا في دعوته كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام مع فرعون ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[5].

الرابع: لا بد للداعية من أن يسلك سبيل الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى وأن الإيمان وحده لا يكفي في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[6] ومعنى هذا: لأُنذِرَكُمْ بالقرآن أيها المشركون وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم[7].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بَالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْبَيِّنَاتُ وأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[8] يقول الطبري ولتكن منكم أيها المؤمنون جماعة يدعون الناس إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ويأمرون الناس باتباع محمد

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٣.
(٢) سورة القصص آية ٥٠.
(٣) سورة يوسف: ١٠٨.
(٤) الدعوة الى الاسلام لأبي زهرة بتصرف.
(٥) سورة طه: ٤٤.
(٦) سورة الانعام: ١٩.
(٧) تفسير الطبري ج ١٦٣/٧.
(٨) سورة آل عمران ١٠٤ ـ ١٠٥.

ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله يجاهدهم بالأيدي والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة[1] ويقول أبو زهرة إن هذه الآية دلت على أمور ثلاثة:

أولها: وجوب الدعوة إلى الخير وَأَيُّ خَيْرٍ أعظم من الدعوة إلى الإسلام إنه الخير وهو دين الله تعالى وهو الحق الذي فيه إصلاح البشر في معاشهم ومعادهم[2] قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3].

ثانيهما: إنه بعد الدعوة إلى الخير يكون العمل على إيجاد جماعة فاضلة بين المسلمين ترى المعروف فتؤمن به وتدعو إليه وترى المنكر فتنهي عنه حتى لا يسود الجماعة إلا الخير ويختفي من بينها الشر فيموت في مكمنه ولا يرى النور فيذبل ويختفي في الظلام.

ثالثهما: ان السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى زيادة الشر في الجماعة، وإذا ساد الشر، تحكمت الأهواء والشهوات وعندئذ يكون التفرق، ويركب كل امرىء متن هواه فتتفرق الأمة بعد اجتماعها، وبعد أن جاءتها البينات[4].

وقد وصف الله الأمة الإسلامية بالخيرية لأنها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر حيث قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بَالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بَاللَّه وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ....﴾[5].

وكما وردت بالتكليف بالدعوة في حق المسلمين نصوص قرآنية فقد وردت أيضاً أحاديث نبوية داعية إلى التبليغ فمن ذلك: ـ

أولا: إن النبي ﷺ أمر أن يبلغ عنه وحذر من الكذب عليه فقال ﷺ: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آية وَحَدِّثوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا حَرَج وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوأ مَقْعَدهُ من النار)[6].

---

(١) تفسير الطبري ج ٤/٣٨.
(٢) الدعوة الى الإسلام أبو زهرة ص ٢٦.
(٣) سورة فصلت آية ٣٣.
(٤) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٢٦.
(٥) آل عمران آية ١١٠.
(٦) رواه البخاري، انظر رياض الصالحين حديث ١٣٨٧ باب فضل العلم.

ثانياً: حث الرسول ﷺ على حسن الإنصات والاستماع وحث أيضاً أن من يستمع منه شيئاً أن يحفظه ويفقهه جيداً حتى يبلغه لغيره ووصف من كان حاله كذلك بالنضارة وحسن الخلق فقال ﷺ: (نَضَّر الله امْرَأً[1] سَمِع منَّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ[2]) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من شدة حرصه على ألا يفوته شيء عن رسول الله ﷺ كان يتناوب النزول على رسول الله هو وجار له يقول عمر رضي الله عنه في ذلك: كنا أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - فكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بعلم ذلك اليوم وإذا نزل فعل مثل ذلك[3].

ثالثاً: قال ﷺ في حديث طويل (. . . لِيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الْغَائِبَ، فإن الشَّاهدَ عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه)[4].

رابعاً: وقد حذر ﷺ من كتم العلم فقال: (مَنْ سُئل عَنْ علم فَكَتَمه أُلْجِمَ يَوْمَ القيامة بِلجامٍ مِنْ نَارٍ[5].

خامساً: وقال ﷺ: (من دَعَا إلى هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مثل أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً[6]).

سادساً: قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم[7]).

وأن الراشدين من الائمة أبو بكر وعمر وعثمان وَعَليّ كانوا يرسلون العمال إلى الأقاليم دعاة إلى الإسلام هداة مرشدين فوق إقامة العدل ومنع الفساد في الأرض.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الذي اتسعت في عهده رقعة الدولة

---

(١) أي: نعمة من النضارة وهي الحسن.
(٢) رواه الترمذي وحسنه حديث ٢٦٥٩ انظر رياض الصالحين حديث ١٣٨٧ باب فضل العلم.
(٣) حياة الصحابة للكندهلوي ٢٨١/٣. (٤) فتح الباري شرح البخاري ١٥٨/١.
(٥) رواه أبو داود والترمذي وحسنه رياض الصالحين حديث ١٣٩٧.
(٦) رواه مسلم (رياض الصالحين حديث ١٣٨٦ تحقيق الألباني).
(٧) متفق عليه (رياض الصالحين حديث ١٣٨٦ تحقيق الألباني) وحمر النعم: الابل الحمر وهي أشرف أموال العرب.

الإسلامية يقول: إنما بَعَثْتُ عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقيموا بينكم دينكم[1] ومن تعليم أمور الدين أن يُبَيِّنوا لغير المسلمين حقائق الإسلام وهم أحرار بعد ذلك في الدخول فيه قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاء فليكفُر..﴾[2].

وقد أرسل رضي الله عنه إلى أهل الكوفة عماراً أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ورسولا[3] وقال رضي الله عنه: (تعلموا كتاب الله تُعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله)[4].

وبعد أن بَيَّنا مسئولية المسلمين عن التبليغ بعد النبي ﷺ بنص الكتاب والسنة وفعل الصحابة أنفسهم وأن تبليغ الدعوة واجب المسلمين جميعاً في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

والآن نُبين ما نُوْع هذا الوجوب، هل هو فرض عين أم فرض كفاية،[5] يقول ابن تيمية[6]... والدعوة إلى الله واجب على من اتبع الرسول ﷺ وهم أمته، وقد وصفهم الله بذلك؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمنوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[7] فهذه في حقه صلى الله عليه وسلم.

أما في حقهم فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ[8]﴾ وقوله تعالى ﴿والْمؤمِنُونَ والْمؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيقيمون الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاَة..﴾[9].

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢١ والدعوة للاسلام لأبي زهرة ص ٣٢.
(٢) سورة الكهف: ٢٩. (٣) اعلام الموقعين ٢/ ٢١٩.
(٤) حياة الصحابة للكندهلوي ٤/ ٦٩.
(٥) فرض العين هو أن يقوم به الشخص بنفسه ولا يسقط عنه بقيام غيره به كالصلاة مثلا أما فرض الكفاية يسقط عن البعض بالبعض وإن لم يقم به البعض اثم الكُلّ لتركه.
(٦) الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ٢٠/ ٨. (٧) سورة الأعراف: ١٥٧.
(٨) سورة آل عمران ١١٠. (٩) سورة التوبة: ٧١.

وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة وهو فرض كفاية يسقط عن البعض بالبعض كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[1].

فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة؛ فبهذا إجماعهم حُجة، وإذا تنازعوا في شيء ردوه إلى الله ورسوله، فإذا تقرر هذا فالواجب على كل مؤمن أنْ يُحب ما أحب الله ورسوله وأن يبغض ما أَبْغَضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابه فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله ﷺ؛ ولا لقول إلا لكتاب الله عز وجل)[2].

والنصوص تثبت الوجوبين: فرض العَيْن وفرض الكفاية فقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة. . .﴾ يقول ابن كثير: إن المقصود من هذه الآية: أن تكون فرقة من هٰذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمان)[3].

وقال ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعرُوفِ وَلَتَنْهُونَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَه فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ)[4].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾[5] ينهي تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضية في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم[6].

ويقول القرطبي في تفسير الآية الكريمة (ولتكن منكم) أن (من) في قوله تعالى (منكم) للتبعيض ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء وقيل: لبيان الجنس والمعنى لتكونوا كلكم كذلك.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤. (٢) الفتاوى لشيخ الاسلام بن تيمية ٢٠/٨.
(٣) رواه مسلم انظر رياض الصالحين حديث ١٨٩ تحقيق الألباني وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٩١.
(٤) رواه الترمذي وحسنه انظر رياض الصالحين حديث ١٩٨ تحقيق الألباني، ورواه أحمد وابن ماجه انظر (تفسير ابن كثير ١/٣٩١).
(٥) سورة آل عمران: ١٠٥. (٦) تفسير ابن كثير ١/٣٩١.

وقال: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وقد عينهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾[1] وليس كل الناس مكنوا[2].

وقال ابن كثير[3]: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويقول الطبري في تفسير الآية ﴿ولتكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي جماعة يدعون الناس إلى الخير أي إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ويأمرون بالمعروف أي يأمرون الناس باتباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله وينهون عن المنكر يعني ينهون عن الكفر باللّه والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله يجاهدهم بالأيدي والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة[4].

ويقول الشيخ أبو زهرة: في معنى الآية الكريمة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ﴾[5] (فمن) في قوله تعالى (منكم) تدل على أحد معنيين: أحدهما ان تكون بيانية والثانية أن تكون للتبعيض وعلى أنها بيانية يكون المعنى ولتكونوا أيها المسلمون جميعاً أمة داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر فإن ذلك هو أساس الفلاح.

وإن هذا المعنى متلاق مع قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾[6].

واستطرد يقول أيضاً فالآيتان على أن (مِنْ) بيانية تكونان دعوة للأُمة كلها أن تبلغ الرسالة المحمدية ولكن ذلك لا يمنع أن يتخصص بعض المؤمنين لتفقيه الناس في دينهم بعد أن يدخلوا في دين الله تعالى كشأن كل أمر واجب على الجماعة كلها يقوم كل واحد بما يستطيعه الواحد منفرداً ثم تخصص الجماعة له من يقوم به ويهدي الناس إليه[7].

وقد كان في جيل الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ من يَتَعَلَّم ومن يُعلِّم أي من يعرف أصول الإسلام فيقوم بها ومن يستفتي عنده في العلم بما يجهله[8].

---

(١) سورة الحج: ٤١.
(٢) تفسير القرطبي ج ٢/١٤٠٧.
(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٩١.
(٤) تفسير الطبري الجزء ٤/٣٨.
(٥) سورة آل عمران آية ١٠٤.
(٦) سورة آل عمران ١١٠.
(٧) الدعوة الى الإسلام للشيخ ابو زهرة ص ٤١ (٨) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٤٢.

وعلى تفسير (مِنْ) في قوله تعالى (مِنْكم) بأنها تبعيضية بمعنى بعض فالمعنى على هذا ليكن بعضكم متخصصاً في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون هذا متفقاً في مُؤَداه مع قوله تعالى: ﴿وما كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّة فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾[1].

ويرى الشيخ أبو زهرة أن يكون معنى الآية آنفة الذكر على أنَّ (مِنْ) بيانية على معنى الأمر بأن تكون الأمة داعية إلى الخير كقول القائل ليكن منك رجل فاضل يدعو إلى الخير ويهدي إليه والذي سَوَّغَ لأبي زهرة اختيار ذلك: (أولئك هم المفلحون) بضمير القصر أي أن الفلاح مقصور عليهم دون غيرهم وذلك أنسب أن يكون وصفاً للأمة كلها...[2].

وفي كيفية أنْ تكون الدعوة فرض كفاية وفرض عين معاً يقول أبو زهرة: إن التكليف عام بحيث يقوم كل بكفايته وما آتاه الله تعالى من علم ولا يخلى إنسان نفسه من تبعة الدعوة والقيام بحقها بَيْد أن على الأمة واجبين.

أحدهما: ما يقوم به كل واحد بعينه في الدعوة إلى الحق هادياً مرشداً.

ثانيهما: ان يخصص ناس لهذه الدعوة من الأمة يكون لهم فضل علم بكتاب الله تعالى وفضل كفاية بيانية وحكمة وإدراك كما فَعَل النبي ﷺ عندما اختار مصعب بن عمير لأهل المدينة معلماً مقرئاً للقرآن وكما اخْتار بَعْدَ فتح مكة لقريش من يعلمهم أحكام الإسلام ويخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام[3].

ويستطرد قائلاً: وبذلك يتبين أنه التقى التكليف العام وفرض الكفاية وأن الإمام الشافعي وصف الفروض (رحمه الله) بأن الخطاب بها عام ويدخله الخصوص فالأمة تكون كلها مخاطبة وهو على العموم وتركه إثم للجميع ويجب تخصيص جماعة لذلك وعلى الجميع يستوون في الإثم عند الترك العلماء وغيرهم لأنهم جميعاً لم يقوموا بالواجب عليهم.

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٢.

(٢) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٤٢. (٣) الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ٤٢ ـ ٤٣.

وَبِتَطْبيقِ ذَلك على الدعوة إلى الإسلام دعوة الخير الشاملة يكون كل واحد في الأمة مطالباً أولاً بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان، ومطالب ثانياً بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بياناً وأعلم بالأحكام وتعرف أوجه الحق والدعوة إليه، ومخاطبة النفوس عارفين بلغات من يدعونهم ولهم جلد على الضرب في الأرض وتحمل مشاق الأسفار في البر والبحر.

وإنه بمقتضى هذا يتحقق فرض الكفاية وفرض العين معاً ويتحقق تخصيص الذين يقومون بالدعوة في كل مكان ويتحقق الوجوب الذين يقومون بالدعاية الشخصية حيثما وجدوا للدعوة سبيلا[1].

وخلاصة القول أن الدعوة الإسلامية هي فرض عين وفرض كفاية معاً فهي فرض عين على كل شخص في الأمة الإسلامية بأن يدعو إلى الله بما يعلم من أمور الدين مهما كان يسيرا وذلك بدلالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ذلك.

الآيات القرآنية: ـ

١ ـ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تأمرون بَالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[2] فالآية الكريمة شملت الأمة الإسلامية كلها لكونها آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينْ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَامِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3] وقد دلت الآية على أن الكتمان من الكبائر لأنه سبحانه لا يلعن إلا على كبيرة وما يتصل بالدين وما يحتاج إليه المكلف لا ينبغي أن يكتم وقوله تعالى (وبينوا) يعني بينوا وأظهروا ما كتموه من العلم وهذا يدل على فرضية عدم كتمان العلم بل يبلغ للناس.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَه فَنَبَذُوهُ وُرَاءَ ظُهُورِهِمْ واشْتَرَوْا به ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[4].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَم

(١) الدعوة الى الإسلام لأبي زهرة ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) سورة آل عمران آية ١١٠.
(٣) سورة البقرة آية ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٤) سورة آل عمران آية ١٨٧.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُون. كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانوا يفعلونَ﴾[1] وقد لعنوا لأنهم كانوا لا ينهي بعضهم بعضاً ولا يلعن الله قوماً إلا على ترك فريضة.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لَمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُون﴾[2].

وهي أن فرقة قالت للفرقة التي تنهي عن المنكر لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم في حكم الهالكين وأنهم قد استحقوا ـ بما عَتَوْا عما نهوا عنه ـ العقوبة من الله اذ لا فائدة من نهيكم إياهم فأجابَتْهم الفئة المنكرة للمنكر: إننا نفعل ذلك من الوعظ والنهي لهم اعتذاراً إلى ربنا سبحانه وتعالى لما أخذه علينا من ميثاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3] وتدل هذه الآية على عدم السكوت عن إنكار المنكر والاستمرار في مهمة تبليغ الإسلام وعدم الاحتجاج بالحجج الواهية كما تقدم.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمين﴾[4]

وقال تعالى: ﴿والْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[5].

والآيات كثيرة في الباب وما أثبتناه كاف للدلالة على ما نقول.

أما الأحاديث الدالة على وجوب الدعوة فهي.

١ ـ قال عليه السلام: (نَضَّرَ اللَّهُ امرأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَرُبَّ مَبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِع)[6].

٢ ـ وقال عليه السلام: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجُ وَمَنْ كَذَبَ عَلَّي مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[7].

---

(١) سورة المائدة آية ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) سورة الأعراف آية ١٦٤.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص ٣٣.

(٤) سورة فصلت آية ٣٣. (٥) سورة التوبة آية ٧١.

(٦) رواه الترمذي وقال حسن صحيح رياض الصالحين تحقيق رباح حديث ١٣٨٧.

(٧) رواه البخاري رياض الصالحين حديث ١٣٨٧ الألباني.

٣ ـ قال عليه السلام: (إنَّ النَّاسَ إذاَ رَأَوُا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدَه)[1].

٤ ـ وقال عليه السلام: (مَثَلُ الْقَائِمِ في حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُم أَعْلاَهَا وَبَعْضَهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفلها إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبَنا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرْكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكوا جَميعاً وإِنْ اَخَذُوا عَلَي أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوا جَميعاً)[2].

٥ ـ وقال عليه السلام: (مَنْ سُئِلَ عِلْماً فَكَتَمهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامة بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ)[3].
والأحاديث كثيرة اكتفيت منها بما ذكر.

وعلى هذا فالدعوة إلى الله تعالى فرض عين على جميع الأمة المسلمة من المكلفين في كل زمان ومكان وهي فرض كفاية على الأمة الإسلامية بتخصيص فئة متفقهة في الدين للدفاع عنه ضد ما يحاك من مُؤامرات لهدم الإسلام وأهله.

---

(١) رواه الترمذي في رياض الصالحين حديث ١٨٧ تحقيق رباح وغيره.
(٢) رواه البخاري رياض الصالحين حديث ١٨٧ تحقيق رباح وغيره.
(٣) رواه أبو داود والترمذي وحسنه.

الفصل الثاني

الجهاد وعلاقته بالدعوة

تمهيد

بين الجهاد والقتال

الجهاد كلمة أشمل وأعم من كلمة القتال التي هي جزء منها فكلمة الجهاد بكسر الجيم تعني في اللغة: المشقة يقال جهدت جهاداً بلغت المشقة[1].

والجهد بفتح الجيم وضمها الطاقة وقرىء بها قوله تعالىٰ ﴿والَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[2]

والجَهْد بالفتح المشقة يقال جَهَد دابته وأجَهَدهَا اذا حَمَل عليها في السَّيْر فوق طاقتها.

وجهد الرجل في كذا: أي جد فيه وبالغ وبابها قطع وجُهد الرجل على ما لم يُسَمَّ فاعله فهو مجهود من المشقة.

وجاهد في سبيل الله مُجَاهدةً وجِهاداً والاجْتهاد والتَّجَاهُد بَذْل الوسع والمجهود[3] والجهاد شرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

فأما مجاهدة النفس: فعلى تعلم أمور الدين ثم العمل بها ثم تعليمها.
وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من شبهات وما يزينه من الشهوات.
وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد واللسان والمال والقلب.
وأما مجاهدة الفساق: فباليد ثم اللسان ثم القلب[4].

وقد جاهد رسول الله ﷺ الكفار في مكة ثلاث عشرة سنة بالقرآن دون قتال لأنها كانت

---

(١) فتح الباري ج ٣/٦. (٢) سورة التوبة آية ٧٩.
(٣) مختار الصحاح: ١٤٤. (٤) فتح الباري ج ٣/٦.

فترة جدل وبيان وتوحيد الله تعالى حتى تقام الحجة عليهم قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كبيراً﴾[1] أي جاهدهم بالقرآن عسى أن يؤمنوا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

وكانت تنزل على رسول الله ﷺ السور المكية التي فيها الأمر بالجهاد في سبيل الله والصبر على أذى المشركين وعدم اتباع هواهم وبدعوتهم إلى عبادة الواحد القهار وترك ما هم فيه من الشرك به وعبادة الأوثان.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إليك وادْعُ إِلَى رَبِّك. . .﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبع أَهْوَاءَهُمْ﴾[3].

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نقول: أن الجهاد ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الجهاد بالقرآن (أي البيان والحجة) كما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً. . .﴾[4] أي بالقرآن وكان هذا النوع من الجهاد سائداً في الفترة الأولى من التنزيل أي بمكة المكرمة.

القسم الثاني: الجهاد بالقتال:

أي بقتال المشركين عندما لم يفلح معهم الجهاد بالقرآن والبيان وذلك لصدهم بقوة السلاح وإبعادهم عن الوقوف في طريق تبليغ الدعوة وكان ذلك النوع من الجهاد هو السائد في الفترة الثانية من التنزيل بالمدينة المنورة عندما أصبح المسلمون في منعة.

وبناء على ما ذكر فإنه لا يكون هناك قتال إلا بعد التبليغ والبيان وتعريف الناس بالإيمان وبموجباته ودعوتهم إليه وإقامة الحجة عليهم فإن استجابوا لله وللرسول فبها ونعمت وإلا فالقتال لتأمين طريق تبليغ الدعوة الإسلامية.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً. . .﴾[5] وتأكيداً لما تقدم فإن آيات القتال التي ذكرت في القرآن الكريم كلها مدنية وأما آيات الجهاد في القرآن الكريم فهي ما بين مكية ومدنية[6] الأمر الذي يوضح أن كلمة (جهاد) أعم وأشمل من كلمة قتال الذي لم يفرض إلا في المدينة كما أسلفنا.

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٢. (٢) سورة القصص آية ٨٧. (٣) سورة الشورى آية ١٥.

(٤) سورة الفرقان آية ٥٢. (٥) سورة الاسراء آية ١٥.

(٦) المكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة. والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة. انظر مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٦١.

مشروعية الجهاد في الإسلام

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في أصل فرض الجهاد: ولما مضت لرسول الله ﷺ مدة من هجرته أنعم الله تعالى فيها على جماعة باتباعه حدثت لهم بها مع عون الله قوة بالعدد لم تكن قبلها فَفَرَضَ الله تعالى عليهم الجهاد بعد أن كان إباحة لا فرضاً فقال تبارك وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ وهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ. . .﴾[1] وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُمْ. .﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3] وقال عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[4] وقال ﴿فإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾[5] وقال ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُم انْفِرُوا. .﴾[6] ثم ذكر قوماً تخلفوا عن رسول الله ﷺ ممن كان يظهر الإسلام فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً. . .﴾[7] فأبان في هذه الآية أن عليهم الجهاد فيما قرب وَبَعُدَ بَعْدَ إبانته ذلك في غير مكان في قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم لاَ يُصِيبُهُم ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ. .﴾[8] وقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ. . .﴾[9] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهِ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلَونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً. .﴾[10] وقال ﴿وَمَالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. . .﴾[11] مع ما ذكر به فرض الجهاد وأوجب على المتخلف عنه[12].

وفي قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ. . .﴾[1].

يقول القرطبي:[13] فقوله تعالى (كتب) معناه فرض. . .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦.
(٢) سورة التوبة آية ١١١.
(٣) سورة البقرة آية ٢٤٤.
(٤) سورة الحج آية ٧٨.
(٥) سورة محمد آية ٤.
(٦) سورة التوبة آية ٣٨.
(٧) سورة التوبة آية ٤٢.
(٨) سورة التوبة آية ١٢٠.
(٩) سورة التوبة آية ٨١.
(١٠) سورة الصف آية ٤.
(١١) سورة النساء آية ٧٥.
(١٢) الأم للشافعي ج ٤ ص ٨٥.
(١٣) القرطبي ١/٨٤٦.

هذا هو فرض الجهاد بين سبحانه أن هذا مما امتحنوا به وجعل وصله إلى الجنة والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار. . . . . ولم يؤذن للنبي ﷺ في القتال مدة إقامته في مكة فلما هاجر أُذن له في قتال من يقاتله من المشركين. . .

واختلفوا في المراد بهذه الآية فقيل: أصحاب النبي ﷺ خاصة فكان القتال مع النبي فرض عين عليهم فلما استقر الشرع صار على الكفاية قاله عطاء والأوزاعي. . . . وقال الجمهور من الأئمة أول فرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين غير أنّ النبي ﷺ كان اذا استنفرهم تعين عليهم النفير لوجوب طاعته وقال سعيد بن المسيب: إن الجهاد فرض على كل مسلم في عينه أبداً حكاه الماوردي.

قال ابن عطية والذي استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد ﷺ فرض كفاية فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين إلا أن ينزل العدو ساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين[1].

وقال الطبري[2] مؤيداً هذا الإجماع: . . . وعلى هذا عامة علماء المسلمين هو الصواب عندنا لإجماع الحجة على ذلك ويقول الله عز وجل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[3]فأخبر جل ثناؤه أن الفضل للمجاهدين وأن لهم وللقاعدين الحسنى ولو كان القاعدون مضيعين فرضاً لكان لهم السوء لا الحسنى.

وقال صاحب المغنى:

الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين ومعنى فرض الكفاية الذي إن لم يقم به من يكفي أثم الناس كلهم وإن قام به من يكفي سقط عن سائر الناس فالخطاب في ابتدائه يتناول الجميع كفرض الاعيان لا يسقط عن أحد بفعل غيره[4].

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. .﴾[5] الآية.

---

(١) القرطبي ١/٨٤٦. (٢) تفسير الطبري ج ٢/٣٤٥.
(٣) سورة النساء آية ٩٥.
(٤) المغني لابن قدامة ج ٨ ص ٣٤٥ وانظر الأم للشافعي ج ٤ ص ٩٠.
(٥) سورة النساء آية ٩٥.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّين. . .﴾[1].

وقد كان رسول الله ﷺ يبعث السرايا ويقيم هو وسائر أصحابه فالآية التي احتجوا بها فقد قال ابن عباس نسخها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ ويحتمل أنه أراد حين استنفرهم النبي ﷺ إلى غزوة تبوك وكانت إجابتهم إلى ذلك واجبة عليهم هجر النبي ﷺ كعب بن مالك وأصحابه الذين خلفوا حتى إذا تاب الله عليهم بعد ذلك وكذلك يجب على من استنفره الإمام لقول النبي ﷺ (إِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا)[2].

ومعنى الكفاية في الجهاد أن ينهض للجهاد قوم يكفون في قتالهم إما ان يكونوا جنداً لهم دواوين من أجل ذلك أو يكونوا قد أعدوا أنفسهم له تبرعاً بحيث إذا قصدهم العدو حصلت المَنَعة بهم ويكون في الثغور من يدفع العدو عنها ويبعث في كل سنة جيش يغيرون على العدو في بلادهم[3].

ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع:

أحدهما: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُروا اللَّهَ كَثِيراً. . .﴾[4] وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ. . .﴾[6].

الثاني: اذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم[7].

الثالث: اذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا. . .﴾[8].

ويقول ابن حجر[9]: وأما ما يجب من الجهاد والنية أي بيان الواجب من الجهاد

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٢.
(٢) متفق عليه.
(٣) المغني ٣٤٦/٨ وانظر الأم للشافعي ٩٠/٤.
(٤) سورة الأنفال آية ٤٥.
(٥) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٦) سورة الأنفال آية ١٥ - ١٦.
(٧) المغني ٣٤٧/٨.
(٨) سورة التوبة آية ٣٨.
(٩) فتح الباري ٣٧/٦.

ومشروعية النية في ذلك للناس في الجهاد حالان:

أحدهما: في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

والآخر: بعد زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

فأما الأولى: فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية اتفاقاً ثم بعد أن شرع هل كان عينا أو فرض كفاية؟ قولان مشهوران للعلماء وهما في مذهب الشافعي وقال الماوردي: كان عيناً على المهاجرين دون غيرهم، ويؤيده وجوب الهجرة قبل الفتح في حق كل من أسلم إلى المدينة لنصر الإسلام.

وقال السهيلي: كان الجهاد عينا على الأنصار دون غيرهم، ويؤيده مبايعتهم النبي ﷺ ليلة العقبة على أن يؤووا رسول الله ﷺ وينصروه، فيخرج من قولنا إنه كان عينا على الطائفتين كفاية في حق غيرهم، ومع ذلك فليس في حق الطائفتين على التعميم، بل في حق الأنصار اذا طرق المدينة طارق، وفي حق المهاجرين إذا أريد قتال احد من الكفار ابتداء، ويؤيد هذا ما وقع في قصة بدر فيما ذكره ابن إسحق.

وقيل عينا في الغزوة التي يخرج فيها النبي ﷺ دون غيرها[1] على كل مسلم أينما كان.

والتحقيق أن الجهاد كان فرض عين على من عينه النبي ﷺ في حقه ولو لم يخرج.

الحال الثاني بعده صلى الله عليه وسلم:

فهو فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو الحاجة إليه كأن يدهم العدو ويتعين على من عينه الإمام، ويتأتى فرض الكفاية بفعله في السنة مرة عند الجمهور، ومن حجتهم ان الجزية تجب بدلاً عنه ولا تجب في السنة أكثر من مرة اتفاقاً فليكن بدلها كذلك.

وقيل يجب كلما أمكن وهو قوي، والذي يظهر أنه استمر على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ إلى أن تكاملت فتوح معظم البلاد وانتشر الإسلام في أقطار الأرض ثم صار إلى ما تقدم ذكره.

والتحقيق أيضاً أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما

---

(١) فتح الباري ٦/٣٧.

بماله وإما بقلبه والله أعلم[1].

مِمَّا تقدم نقول: إن الجهاد فرض كفاية إذا لم يكن العدو في داخل بلاد الإسلام أمّا إذا كان العدو في داخل بلاد الإسلام فإن الجهاد يصبح فرض عين.

شروط وجوب الجهاد:

ويشترط لوجوب الجهاد سبعة شروط:

١ ـ الإسلام ٢ ـ البلوغ ٣ ـ العقل ٤ ـ الحرية ٥ ـ الذكورة ٦ ـ السلامة من الضرر ٧ ـ وجود النفقة[2].

فأما الإسلام، والبلوغ والعقل فهي شروط لوجوب سائر الفروع ولأن الكافر غير مأمون في الجهاد والمجنون لا يتأتى منه الجهاد والصبي ضعيف البنية.

وأما الحرية فيُشترط لما روى أن النبي ﷺ كان يبايع الحر على الإسلام والجهاد ويبايع العبد على الإسلام دون الجهاد لأن الجهاد عبادة تتعلق بقطع مسافة لم تجب على الْعَبْدِ كالحج.

وأما الذكورية فتشترط لما روت عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ فقال: (جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة) ولأنها ليست من أهل القتال لضعفها وخورها، ولذلك لا يسهم لها ولا يجب على خنثى مُشْكِل لأنه لا يُعْلَم كونُه ذكراً فلا يجب مع الشك في شروطه.

وأما السلامة من الضرر فمعناه السلامة من العمى والعرج والمرض وهي شروط لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾[3].

وأما وجود النفقة فيشترط لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى...﴾[4]. ولأن الجهاد لا يمكن إلا بآلة فيعتبر القدرة عليها، فإن كان الجهاد على مسافة لا تقصر فيها الصلاة اشترط ان يكون واجداً للزاد ونفقة عائلته في فترة غيبته وسلاح يقاتل به ولا يعتبر الراحلة لأنه سفر قريب، وإن كانت المسافة تقصر الصلاة اعتبر

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٨/٦. (٢) المغني لابن قدامة ٣٤٧/٨.
(٣) سورة النور آية ٦١. (٤) سورة التوبة آية ٩١.

مع ذلك الراحلة[1] لقول الله تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا ما أتوك لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ. . .﴾[2].

مبتدأ الإذن بالقتال:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في مبتدأ الإذن بالقتال: فأذن لهم بأحد الجهادين قبل أن يؤذن لهم بأن يبتدؤوا مشركاً بقتال، ثم اذن لهم بأن يبتدئوا المشركين بقتال. قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[3] الآية وأباح لهم القتال بمعنى أبانه في كتابه فقال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ. .﴾[4] قرأ الربيع إلى: ﴿كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾ قال الشافعي رحمه الله. يقال نزل هذا في أهل مكة وهم كانوا أشد العدو على المسلمين وفرض عليهم في قتال ما ذكر الله عز وجل، ثم يقال نسخ هذا كلُّه والنهي عن القتال حتى يقاتلوا والنهي عن القتال في الشهر الحرام لقول الله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[5] الآية ونزول هذ الآية بعد فرض الجهاد وهي موضوعة في موضعها[6].

وقال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهِ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ[7] وَبِيَعٌ[8] وَصَلَوَاتٌ[9] وَمَساجِدُ[10] يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[11].

وقد دلت آية الإذن بالقتال على أن الله عزت قدرته وجلت حكمته أَذِنَ للمؤمنين في القتال، وبينت السبب في الإذن وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير موجب إلا

---

(١) المغني ٣٤٨/٨.
(٢) سورة التوبة آية ٩٢.
(٣) سورة الحج آية ٣٩.
(٤) سورة البقرة آية ١٩٠ ـ ١٩١.
(٥) سورة البقرة آية ١٩٣.
(٦) الام للشافعي ٨٤/٤.
(٧) صوامع: للرهبان.
(٨) بيع: كنائس النصارى انظر ص ٩٥.
(٩) صلوات: كنائس اليهود.
(١٠) مساجد: للمسلمين القرطبي ٤٤٦٤/٥.
(١١) سورة الحج آية ٣٩ ـ ٤٠.

الإيمان بالله وحده.

ثم بينت الآية الكريمة حكمة الإذن بالقتال. أي أنه لولا إن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الاصلاح فيها لَغَلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا لهم حتى يكون لهم السلطان، وتخرب أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكره[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن قوله تعالى: (وقاتلوا) هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3] وقوله: ﴿فاعفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[4] وقوله: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[5] وقوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[6] وما كان مثله مما نزل بمكة.

فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) قاله الربيع بن انس وغيره وروي عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه أن أول آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا..﴾[7] والأول اكثر وآية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين...)[8].

وقال الطبري[9]: اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية فقال بعضهم: هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك وقالوا: أمر بها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت ببراءة.

وقال آخرون: بل ذلك أمرٍ من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار ولم ينسخ، وأما

---

(١) هداية المرشدين على محفوظ ص ٢٩٦ وانظر القرطبي ٤٤٥٩/٥ وما بعدها.
(٢) سورة البقرة آية ١٩٠. (٣) سورة فصلت آية ٣٤.
(٤) سورة المائدة آية ١٣. (٥) سورة المزمل آية ١٠.
(٦) سورة الغاشية آية ٢٢. (٧) سورة الحج آية ٣٩.
(٨) تفسير القرطبي ٧٢٢/١. (٩) تفسير الطبري ١٩٠/١٨٩/٢.

الإعتداء الذي نهاهم عنه، فهو نهيٌه عن قتل النساء والذراري. . . فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية.

وقد رجح الطبري بين هذين القولين واختار القول الثاني حيث قال: فتأويل الآية (وقاتلوا) طريقه الذي أوضحه، ودينه الذي شرعه لعباده، يقول لهم تعالى ذكره: قاتلوا في طاعتي، وعلى ما شرعت لكم من ديني، وادعوا إليه من ولي عنه، واستكبر بالأيدي والألسن حتى ينيبوا إلى طاعتي أو يعطوكم الجزية صغاراً إن كانوا أهل كتاب. . .). وعلى هذا بينت هذه الآيات الكريمة الإذن بالقتال حيث وصفت من أُمِرَ المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم، وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن ولا يؤذي فيه.

وبينت أيضاً أن الفتنة في الدين بالتعذيب والإخراج من الوطن أشد قبحاً من القتل إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه على اعتقاده الذي تمكن من قلبه ونفسه ورآه سعادة له في عاقبة أمره ونهت عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر وبينت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي الزيادة فيه على فعله البادي به[1].

وبعد أن كتب الله القتال على المسلمين وفرضه عليهم كما تقدم بدأ سبحانه وتعالى يحثهم على قتال المشركين فقال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2].

وقد أمر الله المؤمنين أن يعدوا لقتال المشركين ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا به عدو الله وعدوهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3].

يقول ابن كثير[4]. . . ثم أمر الله تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة وقال ﷺ: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا

---

(١) انظر هداية المرشدين ص ٢٩٧.
(٢) سورة البقرة آية ١٩١ - ١٩٣.
(٣) سورة الانفال آية ٦٠.
(٤) تفسير ابن كثير مجلد ٢ ص ٣٢٢.

إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ)[1].

وقد أنزل الله تعالى الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وذلك لحملهم على الإيمان به سبحانه وتعالى حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة[3]:

يقول تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات (وانزلنا معهم الكتاب) وهو النقل الصدق (الميزان) وهو العدل قاله مجاهد وقتادة وغيرهما وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ..﴾[4] وقال تعالى: ﴿..فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[6] ولهذا قال في هذه الآية ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما اخبروا به وطاعتهم فيما امروا به فإن الذي أمروا به هو الحق الذي ليس وراءه حق قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً..﴾[7] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي ولهذا يقول المؤمنون اذا تبوءوا غرف الجنات والمنازل العاليات والسرر المصفوفات ﴿..الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ..﴾[8].

وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحي إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات

---

(١) رواه مسلم انظر رياض الصالحين ح ١٣٣٩ تحقيق الألباني وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٢.
(٢) سورة الحديد آية ٢٥. (٣) تفسير ابن كثير مجلد ٤/ ٣١٥ وما بعدها.
(٤) سورة هود آية ١٧. (٥) سورة الروم آية ٣٠.
(٦) سورة الرحمن آية ٧. (٧) سورة الانعام آية ١١٥.
(٨) سورة الاعراف آية ٤٣.

ودلالات فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان ابن عطية بن أبي المتيب الجرشي الشامي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْت ظَلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ والصَّغَارُ عَلى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)[1]. ولهذا قال تعالى (فيه بأس شديد) يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها (ومنافع للناس) أي في معايشهم كالسكة والفاس والقدوم والمنشار والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك قال علباء بن أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم. السندان والكلبتان والميْقعة يعني المطرقة رواه ابن جرير وابن ابي حاتم.

وقوله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي نيته في حمل السلاح لنصرة الله ورسوله (إن الله قوي عزيز) أي هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض[2].

وقال عليه السلام: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُول اللَّه ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوالهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَام وحِسَابُهُم عَلى اللَّه)[3]. فالمراد بهم المشركون ومن على شاكلتهم كالمجوس وذلك أنهم هم الذين يقاومون دعوة الإسلام وقد كان استقرار الدين من غير دخول مشركي جزيرة العرب في الإسلام ضرباً من المحال ـ وإذا لم تفد العقاقير فآخر الدواء الكي.

لقد فصل ابن قدامة كيفية قتال المسلمين لأهل الشرك فقال: ويقاتل كل قوم من يليهم من العدو. الأصل في هذا قول الله تعالى ﴿يَاأَيهَا الَّذِينَ آمنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يلُونكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾[4] ولأن الأقرب أكثر ضرراً، وفي قتاله دفع ضرره عن المقابل له وعمن وراءه،

---

(١) استشهد به البخاري انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٣٨ وانظر تفسير ابن كثير ٣١٦/٤

(٢) تفسير ابن كثير مجلد ٤ ص ٣١ ـ ٣١٦.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٣١/٢ وفي استتابة المرتدين ١٩/٩ ومسلم في الايمان ج ٢١ والترمذي في الايمان ج ٢٦١٠ وأبو داود ج ٢٦٤١ بمعناه تحقيق الدعاس وعادل السيد وانظر رياض الصالحين ج ١٢١٦ تحقيق الالباني.

(٤) سورة التوبة آية ١٢٣.

والانشغال بالبعيد عنه يمكنه من انتهاز الفرصة في المسلمين لاشتغالهم عنه[1].

وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك وينبغي أن يبتدىء بترتيب قوم في أطراف البلاد يكفون من بإزائهم من المشركين ويأمر بعمل حصونهم، وحفر خنادقهم، وجميع مصالحهم، ويُؤَمِّرُ في كل ناحية أميراً يقلده أمر الحروب وتدبير الجهاد، ويكون ممن له رأي وعقل ونجدة وبصر بالحرب ومكايدة العدو، ويكون فيه أمانة ورفق ونصح للمسلمين، وإنما يبدأ بذلك لأنه لا يأمن عليهم من المشركين، ويغزو كل قوم من يليهم إلا أن يكون في بعض الجهات من لا يفي به من يليه فينقل إليهم قوماً من آخرين ويتقدم إلى من يؤمره أن لا يحمل المسلمين على مهلكة، ولا يأمرهم بدخول مطمورة يخاف أن يقتلوا تحتها فإن فعل ذلك فقد أساء ويستغفر الله تعالى وليس عليه عَقْلٌ[2] ولا كفارة إذا أصيب واحد منهم بطاعته لأنه فعل ذلك باختياره ومعرفته فإن عدم الإمام لم يؤخر الجهاد لأن مصلحته تفوت بتأخيره، وإن حصلت غنيمة قسمها أهلها على موجب الشرع[3].

وإذا كان أبواه مسلمين لم يجاهد تطوعاً إلا بإذنهما[4] وإذا خوطب بالجهاد فلا إذن لهما وكذلك كل الفرائض لا طاعة لهما في تركها يعني إذا وجب عليه الجهاد لم يعتبر إذن والديه لأنه صار فرض عين وتركه معصية ولا طاعة لأحد في معصية الله...[5].

ويقاتل أهل الكتاب والمجوس ولا يُدْعَونْ لأن الدعوة قد بلغتهم ويدعي عبدة الأوثان قبل أن يحاربوا أما قوله في أهل الكتاب والمجوس لا يدعون قبل القتال فهو على عمومه لأن الدعوة قد انتشرت وعمت[6] فلم يبق منهم من لم تبلغه الدعوة إلا نادر بعيد، وأما قوله يدعي عبدة الأوثان قبل أن يحاربوا فليس بعام فإن من بلغته الدعوة مِنْهم لا يُدْعَونْ وإن وجد فيهم من لم تبلغه الدعوة دعي قبل القتال، وكذلك إن وجد من أهل الكتاب من لم تبلغه الدعوة دعوا قبل القتال[7].

---

(١) المغني لابن قدامة ٣٥٢/٨ وانظر الأم للشافعي ٩١/٤.
(٢) الْعَقْلُ والْعَقْلَةَ: الدِّية وجمعها معاقل وعَقَلَ القتيل: أعطى دِيَتَه والْعَقْلُ: الحِجْرُ والنُّهَى (مختار الصحاح ٤٤٦ - ٤٤٧).
(٣) المغني لابن قدامة ٣٥٣/٨.
(٤) المغني لابن قدامة ٣٥٨/٨.
(٥) المغني لابن قدامة ٣٥٩/٨.
(٦) المغني ٣٦١/٨.
(٧) المغني لابن قدامة ٣٦١/٨.

قال أحمد: إن الدعوة قد بلغت وانتشرت ولكن إن جاز أن يكون قوم خلف الروم وخلف الترك على هذه الصفة لم يجز قتالهم قبل الدعوة وذلك لما روى بريدة: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أمره بتقوى الله في خاصته ومن معه من المسلمين وقال: (وإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلام فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فإن هم أبوا فَادْعهم إِلَى إِعْطاء الْجِزْيَة فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ أبوا فَاسْتَعِنْ بِاللَّه وَقَاتِلْهُمْ)[1].

وهذا يحتمل أنه كان في بدء الأمر قبل انتشار الدعوة وظهور الإسلام فأما اليوم فقد انتشرت الدعوة فاستغنى بذلك عن الدعاء عند القتال.

قال أحمد: كان النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام قبل أن يحارب حتى أظهر الله الدين وعلا الإسلام ولا أعرف اليوم أحداً يدعي قد بلغت الدعوة كل أمر فالروم قد بلغتهم الدَّعوة وعلموا ما يراد منهم وإنما كانت الدعوة في أول الإسلام وإن دَعَا فلا بأس[2] وقد روى ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غادون آمنون وإبلهم تسقى على الماء فقتل المقاتلة وسبى الذرية)[3] وقد روى أن النبي ﷺ أمر علياً حين أعطاه الراية يوم خيبر وبعثه إلى قتالهم أن يَدْعُوَهُمْ وهم ممن بلغتهم الدعوة[4] ودعا خالد بن الوليد طليحة الأسدي حين تنبأ فلم يرجع فأظهره الله عليه، ودعا سلمان أهل فارس.

فإذا ثبت هذا فإن كان المدعو من أهل الكتاب أو مجوسياً دعاهم إلى الإسلام فإن أبوا دعاهم إلى إعطاء الجزية فإن أبوا قاتلهم وإن كانوا من غيرهم دعاهم إلى الإسلام فإن أبوا قاتلهم ومن قتل منهم قبل الدعاء لم يضمن لأنه لا إيمان له ولا أمان فلم يضمن كنساء من بلغته الدعوة وصبيانهم[5].

ويقاتل أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ويقاتل من سواهم من الكفار حتى يسلموا.[6].

وجملته أن الكفار ثلاثة أقسام:

---

(١) رواه أبو داود ح ٢٦١٢ ومسلم في كتاب الجهاد حديث ١٧٣١، انظر مسلم بشرح النووي ٣٨/١٢.
(٢) المغني ٣٦١/٨.
(٣) نفسه ٣٦٢/٨ متفق عليه.
(٤) رواه البخاري المغني ٣٦٢/٨.
(٥) المغني ٣٦٢/٨.
(٦) نفسه ٣٦٢/٨.

القسم الأول: أهل كتاب وهم اليهود والنصارى ومن اتخذ التوراة والإنجيل كتاباً كالسامرة والفرنج ونحوهم فهؤلاء تقبل منهم الجزية ويقرون على دينهم اذا بذلوها لقول الله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾[1].

القسم الثاني: لهم شبه كتاب وهم المجوس فحكمهم حكم أهل الكتاب في قبول الجزية منهم وإقرارهم بها لقول النبي ﷺ (سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب) ولا نعلم بين أهل العلم خلافاً في هذين القسمين.

القسم الثالث: لا كتاب لهم ولا شبه كتاب وهم من عدا هذين القسمين من عبدة الأوثان وَمَنْ عَبَدَ ما اسْتَحْسَنَ وسائر الكفار فلا تقبل منهم الجزية ولا يقبل منهم سوى الإسلام هذا ظاهر مذهب أحمد وهو مذهب الشافعي. وروى عن أحمد أن الجزية تقبل من جميع الكفار إلا عبدة الأوثان من العرب، وهو مذهب أبي حنيفة.[2] لأنهم يقرون على دينهم بالاسترقاق فيقرون ببذل الجزية كالمجوس، وحكى عن مالك أنها تقبل من جميع الكفار إلا كفار قريش لحديث بريدة المتقدم (اذا لقيت عدوك من المشركين...)[3] الحديث. وهو عام ولأنهم كفار فأشبهوا المجوس.

القول الراجح عندي: والقول القائل بقتال الكفار حتى يسلموا دون أخذ الجزية منهم هو القول الراجح وهذا ظاهر مذهب الإمام أحمد وذلك لعموم قوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين﴾[4] الآية.

وقول النبي ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)[5] خص منهما أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿.. مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[6] والمجوس بقوله ﷺ (سُنُّوا بِهِم سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ) فمن عداهمايبقى على مقتضى العموم ولأن الصحابة رضي الله عنهم توقفوا في أخذ الجزية من المجوس وَلَمْ يأخذ عمر رضي الله عنه منهم الجزية حتى روى له عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَر وهذا يدل على أنهم لم يقبلوا الجزية ممن سواهم فإنهم اذا

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩. (٢) المغني ٣٦٣/٨.
(٣) أخرجه مسلم حديث ١٧٣١ وأبو داود ٢٦١٢، وانظر المغني لابن قدامة ٣٦١/٨.
(٤) سورة التوبة آية ٥.
(٥) متفق عليه وانظر رياض الصالحين حديث ١٢١٧ وانظر المغني ٣٦٣/٨.
(٦) سورة التوبة آية ٢٩.

توقفوا فيمن له شبهة كتاب ففيمن لا شبهة له أولى ثم أخذ الجزية منهم للخَبَر المختص بهم فيدل على أنهم لم يأخذوها من غيرهم ولأن قول النبي ﷺ (سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب) يدل على اختصاص أهل الكتاب ببذل الجزية إذا لو كان عاماً في جميع الكفار لم يختص أهل الكتاب بإضافتها إليهم ولأنهم تَغَلَّظ كفرهم لكفرهم بالله وجميع كتبه ورسله ولم تكن لهم شبهة فلم يقروا ببذل الجزية كقريش وعبدة الأوثان من العرب، ولأن تغليظ الكفر له أثر في تحتم القتل وكونه لا يقر بالجزية بدليل المرتد.

وأما المجوس فإن لهم شبهة كتاب والشبهة تقوم مقام الحقيقة فيما يبنى على الاحتياط وحرمت دماؤهم ولم يثبت حِل نسائهم وذبائحهم لأن الْحلَّ لا يثبت بالشبهة ولأن الشبهة لما اقتضى التحريم دماءهم اقتضى التحريم ذبائحهم ونساءهم ليثبت التحريم في المواضع كلها تغليباً له على الإباحة ولا نسلم أنهم يقرون على دينهم بالاسترقاق[1].

ولا يدخل مع المسلمين من النساء إلى أرض العدو إلا الطاعن في السن لسقي الماء ومعالجة الجرحى كما فعل النبي ﷺ[2]. وجملته أنه يكره دخول النساء الشواب أرض العدو لأنهن لسن من أهل القتال وقلما ينتفع بهن فيه لاستيلاء الخور والجبن عليهن ولا يؤمن ظفر العدو بهن... وإذا سبى الإمام فهو مخير إن رأى قتلهم وإن رأى مَنَّ عليهم وأطلقهم بلا عوض، وإن رأى أطلقهم على مال يأخذه منهم، وإن رأى فادى بهم، وإن رأى استرقهم. أي ذلك رأى فيه نكاية للعدو وحظاً للمسلمين فعل.

وجملته: أن من أسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب:

أحدهما: النساء والصبيان فلا يجوز قتلهم ويصيرون رقيقا للمسلمين بنفس السبي[3] لأن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والولدان ـ متفق عليه ـ وكان عليه السلام يسترقهم إذا سباهم.

الثاني: الرجال من أهل الكتاب والمجوس الذين يقرون بالجزية فيخير الإمام فيهم بين أربعة أشياء:

(١) ـ القتل
(٢) ـ المن بغير عوض.
(٣) ـ المفاداة بهم
(٤) ـ استرقاقهم.

---

(١) المغني لابن قدامة ٨/٣٦٤.
(٢) نفسه ٨/٣٦٥.
(٣) السبي والسِّباء: الأسر، وقد سبيت العدو أسرته، وبابه رمي. مختار ص ٢٨٥

الثالث: الرجال من عبدة الأوثان وغيرهم ممن لا يقر بالجزية فيخير الإمام فيهم بين ثلاثة أشياء:

١ ـ القتل.

٢ ـ المن.

٣ ـ المفاداة.

ولا يجوز استرقاقهم[١].

وإن أسلم الأسير صار رقيقاً في الحال وصار حكمه حكم النساء يحرم قتله. ومن أسر أسيراً لم يكن له قتله حتى يأتي به الإمام فيرى فيه رأيه لأنه اذا صار أسيراً فالخيرة فيه للإمام[٢].

ومن أعطاهم الأمان منا من رجل أو امرأة أو عبد جاز أمانه. وجملته أن الأمان اذا أعطي لأهل الحرب حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم ويصح من كل مسلم بالغ عاقل مختار ذكراً أو أنثى حراً كان أم عبداً وبهذا قال الثوري والأوزاعي والشافعي وإسحق وابن القاسم وأكثرُ أهل العلم، وروي ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣].

ودليل ذلك: ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (ذِمَّة الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ فَمَنْ أَخْفَر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صَرْفٌ ولا عدل)[٤].

وروي فضيل بن زيد الرقاشي قال: (جهز عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً فكنت فيه فحصرنا موضعاً فرأينا أنا سنفتحها اليوم وجعلنا نقبل ونروح فبقي عَبْدٌ منا فَرَاطَنَهُمْ وَرَاطَنُوه. فكتب لهم الأمان في صحيفة وشَدها على سهم ورمى بها إليهم فأخذوها وخرجوا فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: العبد المسلم رجل من المسلمين ذمته ذمتهم)[٥].

وأجارت زينب بنت رسول الله ﷺ أبا العاص بن الربيع فأمضاه رسول الله ﷺ[٦]. وكذلك يصح أمان الصبي المميز وهو قول مالك ولأنه مسلم مميز لعموم الحديث (ذمة المسلمين واحدة...).

---

(١) المغني ٨: ٣٧٢.
(٢) ٣٧٧/٨ نفسه.
(٣) المغني ٣٩٦/٨.
(٤) رواه البخاري المغني ٣٩٧/٨، ومعنى أخفر مسلما: أي نقض عهده وغدر به (المختار ١٨٢).
(٥) رواه أبو سعيد في المغني ٣٩٧/٨.
(٦) المغني ٣٩٧/٨.

ولا يصح أمان الكافر وإن كان ذمياً لقول النبي ﷺ (ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم) الحديث[1] فجعل الذمة للمسلمين فلا تحصل لغيرهم ولأنه متهم على الإسلام وأهله فأشبه الحربي.[2] ولا يصح أمان مجنون ولا طفل لأن كلامه غير معتبر ولا يثبت به حكم، ولا يصح أمان زائل العقل بنوم أو سكر أو إغماء لذلك ولأنه لا يعرف المصلحة من غيرها فأشبه المجنون.

ولا يصح أمَان مُكْره لأنه قول أُكره عليه بغير حق فلا يصح كالإقرار.[3]

ويصح أمان الإمام للأسير بعد الاستيلاء عليه لأن عمر رضي الله عنه لما قدم عليه الهرمزان أسيراً قال: لا بأس عليك ثم أراد قتله فقال لهُ أنس: قد أمنته فلا سبيل لك عليه وشهد الزبير بذلك فعدوه أماناً)[4].

ومن طلب الأمان ليسمع كلام الله ويعرف شرائع الإسلام وجب أن يعطاه ثم يرد إلى مأمنه ولا نعلم في هذا خلافاً لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ...﴾[5] قال الأوزاعي هي إلى يوم القيامة، ويجوز عقد الأمان للرسل والمستأمن لأن النبي ﷺ (كان يؤمن رسل المشركين)[6].

وَيُرْضخ للمرأة والعبد ومعناه أنهم يعطون شيئاً من الغنيمة دون السهم ولا يسهم لهم سهم كامل ولا تقدير لما يعطونه بل ذلك إلى اجتهاد الإمام[7].

وَيُسْهم للكافر إذا غزا مع المسلمين لأن رسول الله ﷺ استعان بناس من اليهود في حربه فأسهم لهم[8]. وروي أن صفوان بن أمية خرج مع النبي ﷺ يوم خيبر وهو على شركه فأسهم له وأعطاه من سهم المؤلفة قلوبهم، ولأن الكفر نقص في الدين فلم يمنع استحقاق السهم كالفسق.[9].

وإذا حورب العدو فلا يحرقون بالنار[10].

ولا يغرقوا النحل لأن تغريق النحل وتحريقه لا يجوز في قول عامة أهل العلم.[11] ولا

---

(١) رواه البخاري المغني ٣٩٨/٨.
(٢) المغني ٣٩٨/٨.
(٣) المغني ٣٩٨/٨.
(٤) المغني ٣٩٨/٨.
(٥) سورة التوبة آية ٦، انظر المغني ٣٩٩/٨.
(٦) المغني ٤٠٠/٨.
(٧) المغني ٤١٠/٨.
(٨) رواه سعيد في سننه المغني ٤١٤/٨.
(٩) المغني ٤٤٨/٨.
(١٠) المغني ٤٥١/٨.
(١١) المغني ٤٥٢/٨.

يعقر شاة ولا دابة إلا لأكل لا بد لهم منه. لأن أبا بكر رضي الله عنه قال في وصيّته ليزيد حين بعثه أميراً يا يزيد: (لا تقتل صبياً ولا امرأة ولا هَرِماً ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شجراً مثمراً ولا دابة عجماء[1] ولا شاة إلا لمأكلة ولا تحرقن نحلاً ولا تغرقنه ولا تَغْلُلْ ولا تجبن[2].

ومن دخل من المسلمين إلى أرض العدو بأمان لم يخنهم في مالهم ولم يعاملهم بالربا[3].

وإذا فتح المسلمون حصناً لم يقتلوا من لم يحتلم أو ينبت أو يبلغ خمس عشرة سنة[4].

ومن لقي علجاً[5] فقال له قف أو ألق سلاحك فقد أمنه، وصفة الأمان هو القول:

أجرتك وأمنتك لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ. . .﴾[6] وقال عليه السلام: (قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ). وقال: (مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِن وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوآمِنٌ)وفي معنى ذلك اذا قال: لا تخف، لا تذهل، لا تخش، لا خوف عليك، لا بأس عليك[7].

وبعد أن عرضنا لموضوع الجهاد في الإسلام ومشروعيته وأنه جهاد من أجل نشر الدعوة الإسلامية، وتخليص الإنسانية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام.

فإننا نوضح نقطة طالما هُوجم الإسلام منها وهي الادعاء الخبيث بأن الإسلام انتشر بالسيف. ولست بهذه السطور القليلة أردت الدفاع عن الإسلام، أبداً لأن الإسلام ليس متهماً حتى يُدافع عنه، بل إن الإسلام بذاته يدافع عن نفسه من خلال وضوح شرائعه وضوح الشمس في السماء ونوره الذي انتشر في كل الآفاق وأنار الطريق للبشرية جمعاء، فلا يضيره بعد ذلك قول من في قلبه عمى لا يبصر ولا يعقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

---

(١) عجماء: أي لا تتكلم وكل من لا يقدر على الكلام أصلاً فهو أعجم (المختار ٤١٥).
(٢) المغني ٤٥٢/٨. (٣) المغني ٤٥٨/٨.
(٤) المغني ٤٧٥/٨. ومعنى الاحتلام خروج المني من ذكر أو قبل الأنثى في يقظة أو منام.
(٥) العلج: فلاح الروم. (٦) سورة التوبة آية ٦.
(٧) المغني ٤٨٩/٤.

أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1] ولكنها كلمة لا بد أن تقال احقاقاً للحق.

فالجهاد كما مر بنا هو جهاد بالكلمة ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾[2] ﴿ادْعُ إِلَىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[3] وقول الرسول ﷺ (ادْعُهُمْ إِلَىَ إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ. . .)الحديث[4] وذكر منها الدعوة إلى الإسلام أو الجزية، وجهاد باليد ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[5] وقوله عليه السلام: (. . . فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ)[6].

والإسلام الذي ارتضاه الله ديناً للأمة الخاتمة أمة محمد ﷺ، هو اعتقاد بالقلب وتصديق بالجوارح، أي أنه شعور داخلي ليس للقوة الخارجية أي سلطان عليه مهما كانت سطوتها أو تجبرها.

وعلى هذا فإن دور السيف ليس لحمل الناس قسراً على اعتناق الإسلام ديناً لهم، ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ. . .﴾[7] وإلا لما استقام الأمر ولا استطاعت قوة لسيف غرس الإسلام في القلوب ـ وقد قلنا إن الإسلام اعتقاد قلبي داخلي لا تستطيع أن تسيطر عليه أية قوة خارجية ـ ولكن يأتي دور السيف هنا لتأمين الإنسان ضد الطغاة من البشر المتسلطين عليه لحجب نور الإسلام من الوصول إلى قلبه إذا فوظيفة السيف هنا ـ والحال على ما ذكر ـ: هي الوقوف بالقوة في وجه شرذمة من الناس يؤلهون أنفسهم، ويحملون غيرهم من الضعفاء على أن يكونوا مستعبدين لهم ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. .﴾[7].

لقد كانت الحروب الإسلامية كلها ضد تلك الشرذمة القليلة، التي استكبرت في الأرض، وطغت ولم تعترف إلا بمنطق القوة، وحقدت على الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، لا لشيء إلا لأنها كانت تطمع أن يكون هذا الرسول منهم هم وليس من العرب و ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالتـه﴾[8] وهذه الشرذمة هم اليهود والنصارى ـ لعنة الله عليهم ـ وكذا مشركـو العرب وهم عبدة الأوثان، وقد كانوا لا يقلون حقداً ولا كراهية على نبي الإسلام والمسلمين من اليهود لأنهم أيضاً كانوا يريدون الرسول منهم ومن بين عظمائهم ﴿وَقالوا

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٤. (٢) سورة الفرقان آية ٥٢.
(٣) سورة النحل آية ١٢٥. (٤) رواه أبو داود حديث ٢٦١٢.
(٥) سورة التوبة آية ٣٦. (٦) سورة البقرة آية ٢٥٦.
(٧) سورة غافر آية ٤٧. (٨) سورة الانعام آية ١٢٤.

لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيَشَتهم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. . .﴾[1] فكان استعمال السيف فيهم هو الدواء الناجع لاستئصال داء الحقد اللعين أو لاستئصال شأفتهم وإراحة المسلمين منهم حتى تأخذ الدعوة الإسلامية طريقها الصحيح إلى قلوب المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

إذا فخلاصة القول: إن السيف في الإسلام لا بد من وجوده فهو لم يكن مسلطاً إلى القلوب لقسرها وحملها على اعتناقه، ولكن كان السيف ولا بد له أن يكون مسلطاً على طبقة العتاة المستكبرين في الأرض، الذين وقفوا حجر عثرة في وجه الإسلام، لا يريدون أن تُحكم العباد بشريعة الله تعالى، ولكن يريدون أن يَحكموا العباد بشريعتهم، وجبروتهم وجورهم.

لقد كان الدعاة المسلمون يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، وبذلك يخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

دعوى خبيثة ورد غير واع:

لقد أثار اليهود والنصارى ومن سار في ركبهم دعوى خبيثة وركزوا عليها إعلامهم ليبرزوها ألا وهي قولَهم: إن الإسلام انتشر بالسيف، وهم إنما يهدفون من وراء ذلك إلى تحقيق شيء آخر أكثر خبثاً وأبعد مرمى وأدوم لهم على استمرار ضرب المسلمين في كل زمان ومكان. وللأسف فإن من المسلمين من يساعدهم دون قصد وبحسن نية على تحقيق هذا الهدف الدنيء.

انهم حينما يثيرون هذه الضجة حول الإسلام على أنه انتشر بالسيف، يعلمون جيداً أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولكنهم أخبث خلق الله على الأرض، ينكرون دائماً ما يعرفون أنه الحق، طالما أن ذلك سيوصلهم إلى تحقيق أغراضهم الليئمة، ولطالما فضحهم القرآن الكريم في مواضع شتى فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدَ اللَّه مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]. وقال الله تعالى في موضع آخر عنهم أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ

(١) سورة الزخرف آية ٣٢/٣١. (٢) سورة البقرة آية ٨٩.

اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ. . .﴾[1] اذاً فتلك عادة القوم وهذا دأبهم قديماً وحديثاً وحتى تقوم الساعة، يُنكرون ما يعلمون لِيُحققوا ما يَهدفون.

إنهم حينما يطلقون هذه الفرية ـ انتشار الإسلام بالسيف ـ يعلمون مسَبَّقاً أن أناساً من المسلمين سيدفعهم الحماس والذب عن الإسلام وينبرون للدفاع عن ذلك ورد هذه الفرية ويقولون: لا، إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وهذا ما يريدونه بالضبط.

إنهم يريدون هذه العبارة ليتخذوا منها ستاراً من الدخَان الكثيف حتى يفعلوا من ورائها الأفاعيل ضد المسلمين، ويضربوهم في كل مكان يريدون ضربهم فيه، وما على المسلمين فقط إلا أن يستمروا في ترديد عبارتهم ـ إن الإسلام لم ينتشر بالسيف ـ ويستدلون على ذلك بأنهم قاعدون لا يتحركون، ولا يردون الاعتداء حتى بالمثل، ويفضلون أن يكونوا جثة هامدة لا حراك فيها، من أن يُقال عنهم إن الإسلام انتشر بالسيف إن هم ردوا العدوان، وانتصروا لأنفسهم. وهكذا دواليك يستمر أعداء الإسلام في الاعتداء على المسلمين، ويكتفي المسلمون بإشهاد العالم على ذلك، وأنهم أمةً مسالمة لا تعتدي على أحد ولا حتى ترد العدوان عملاً بالمبدأ والقاعدة التي تقول: (إن الإسلام لم ينتشر بالسيف).

إننا نقول لأعداء الإسلام في كل مكان بصفة عامة، ولإخواننا وأبْناء جلدتنا من المسلمين بصفة خاصة الذين يرددون هذا الشعار والذي أصبح عصاً مسلطة علينا دائماً واستغله الأعداء أسوأ استغلال ضد المسلمين نقول للجميع: إن الإسلام دين القوة وهو لا يرضى للمسلم أن يكون ذليلاً، ولا يعترف بالسلام الذي يقوم على الذل والهوان والعجز.

أسباب القتال في الإسلام.

الجهاد ومفهوم الحرية والكرامة في الإسلام.

إن الذين لا يفهمون حكمة الجهاد في الإسلام قد خلطوا بين مفهوم الحرية والكرامة في الإسلام ومفهومها عند الوضعيين، إن مفهوم الحرية والكرامة قد نيط في الإسلام بعقيدة التوحيد، ذلك أن حياة الإنسان وكرامته ترتبط بعبوديته لله وبتحرره من عبودية غير الله ولذا فإن الإسلام لا يسوي بين المؤمن والكافر لا في القيمة ولا في الخيرية.

---

(١) سورة البقرة آية ١٠١ ـ ١٠٢.

فالإنسان الحر الكريم هذا المؤمن الذي لا يشرك بالله شيئاً لذا فقد أكرمه الله وأعزه كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

أما الإنسان الملحد والمشرك فإنه إنسان فقد حريته وكرامته بالإلحاد والشرك، والعياذ بالله لأنه أذل كرامته وحقرها بعبوديته لغير الله تعالى سواء كان ذلك المعبود هو هواه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[2] أو شيطاناً رجيما ﴿. . أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[3]. أو إنسانا ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ بْنُ اللَّهِ﴾[4] أو صنماً ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[5] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[6] أو عجلاً ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾[7] أو أي معبود آخر من دون الله.

ولذا أمر الله تعالى بقتال هؤلاء الاصناف فقال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[8] وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[9] وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[10] وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ . . .﴾[11] وقال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[12] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[13]

وقال تعالى في شأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى والذين لم يؤمنوا بالله ورسوله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ

---

(١) سورة المنافقون آية ٨.
(٢) سورة الجاثية آية ٢٣.
(٣) سورة الكهف آية ٥٠.
(٤) سورة التوبة آية ٣٠.
(٥) سورة الصافات آية ٩٥ ـ ٩٦.
(٦) سورة الأنعام ٧٤.
(٧) سورة طه آية ٨٨.
(٨) سورة التوبة آية ٣٦.
(٩) سورة التوبة آية ١٢.
(١٠) سورة الأنفال آية ٣٩.
(١١) سورة التوبة آية ١٤.
(١٢) سورة البقرة آية ١٩١.
(١٣) سورة النساء آية ٨٩.

دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ[1] عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2] فقوله تعالى ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي إن لم يسلموا ﴿عن يد﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿وهم صاغرون﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء.[3] ولهذا قال ﷺ (لَا تَبْدَأوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلام، فَإِذَا لَقَيْتُم أَحَدَهم فِي طَرِيقٍ فَاضطَرُّوهُ إِلَى أَضيَقِه)[4].

وقد أمر الله رسوله ﷺ بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (أُمِرْتَ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمداً رَسُولُ اللَّه، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإِنْ فَعَلُوا ذَلكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه) [5] أي حتى يتحرروا من رق العبودية وَيَسْتَردوا حريتهم وكرامتهم التي افتقدوها بالعبودية لغير الله.

وعبادة غير الله حرب لله ولرسوله لا بد من مواجهتها بالسيف، على أنه من الأصول التي أضاعها المسلمون بقعودهم وتخاذلهم هو هذا الأصل الإسلامي الذي يقول: بأن الله خلق الإنس والجن ليعبدوه قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّه هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[6].

فإذا عبدوا غير الله فقد حاربوه سبحانه في ملكه، وآذنوا بحرب من الله تعالى قال سبحانه: ﴿.. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾[7].

---

(١) الجزية: هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغارا. أحكام أهل الذمة ص ٢٢ لابن القيم.
(٢) سورة التوبة آية ٢٩.
(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣٤٨/١٠ وانظر تفسير الطبري أيضاً ١٠٩/١٠ بنحوه.
(٤) أي ألجئوه بالتضييق عليه إلى أضيقه. رواه مسلم في السلام حديث ٢١٦٧، والترمذي في الاستئذان حديث ٢٧٠١، (أبو داود حديث ٥٢٠٥، رياض الصالحين حديث ٨٧٠ واللفظ لمسلم).
(٥) انظر رياض الصالحين حديث ١٠٨٢ وانظر أبو داود حديث ١٥٥٦، ٢٦٤٠، ٢٦٤١ ورواه البخاري في باب الزكاة وفي الجهاد، ومسلم في الإيمان حديث ٢١.
(٦) سورة الذاريات آية ٥٦ ـ ٥٨. (٧) اسورة البقرة آية ٢٧٩.

وإلا فأي ملك من ملوك الأرض يرضى بأن يطاع غيره في ملكه؟ وهل سمعنا أحداً من ملوك الأرض قَبِل بأن تصرف رعيته الطاعة إلى غيره؟ فلماذا يستهين الناس بملك الملوك جل وعلا، فيعبدوا في ملكه لا نِدَا له ومساويا ـ تعالى الله عن ذلك ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحد﴾[1] ـ ولكن خلقا من خلقه وعبدا من عبيده، ثم يقال إن الناس أحرار فيما يفعلونه، هذا هو المفهوم المحَّرف والمشبوه للحرية والذي جاء به عصر الإلحاد.

الإكراه في الدين:

ومع ذلك فإن القاعدة الأساسية في الإسلام هي أنه لا إكراه في الدين، فالجهاد لم يكن هدفه إكراه الناس على الإسلام، وإنما تبدأ الدعوة إلى الإسلام بعرضه على الناس وبيانه لهم فإن قبلوه دخلوا فيه وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وإن أبوا عرض عليهم الجزية يؤدونها وهم صاغرون فإن أَبْوا قوتلوا، حتى يقروا بالجزية أو يدخلوا في الإسلام. ولكنه لا يكرههم على الدخول في الإسلام إذا أبوا ودفعوا الجزية.

القتال لإعلاء كلمة الله:

ولكن عدم الإكراه في الدخول في الإسلام لا يعني ترك الناس أحراراً يرفعون ألوية الباطل، وذلك أن إعلاء كلمة الله تعالى هدف أساسي للإسلام، وهو هدف غاب اليوم عن أذهان الكثيرين فالسيف ليس وسيلة للإكراه إنما هو وسيلة لإعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]

وخلاصة القول فإن الحرب في الإسلام قد شرعت لتصحيح مسار الإنسانية الذي انحرف عن فطرته السليمة التي فطر الله الناس عليها «وهي الإسلام»[3] ومن ثم وجب على المسلمين إعادتها إليه طوعاً أو كرهاً. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4].

---

(١) الاخلاص آية ٤. (٢) البقرة آية ٢٥٦.
(٣) القرطبي ٦/٥١٠٧. (٤) سورة الروم آية ٣٠.

وقال ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تَنَاتَجُ الأَبِل من بَهيمةٍ جَمْعاء[1] هَلُ تُحِسُّ مِنْ جَدَعَاء)؟ قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: (الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلين)[2].

وعلى ذلك فلو حفظت الإنسانية فطرتها، فقد حفظت بالتالي دينها، وعرضها، ومالها، وعقلها، فهذه ضرورات خمس لا بد منها لحياة الإنسان السويّ السليم الفطرة.

---

(١) جمعاء: أي السليمة، سميت بذلك لاجتماع السلامة لها في أعضائها (أبو داود ٥/٨٨).

(٢) أبو داود حديث رقم ٤٧١٤ وأخرجه البخاري بمعناه في الجنائز وفي القدر ومسلم: في القدر حديث ٢٦٥٨، والترمذي مختصراً في القدر حديث ٢١٣٩.

البَابُ الثانِي

عـمَرالداعيَة المجتهِدُ

تمهيد

بين الداعية والمجتهد:

مما لا شك فيه أن هناك صلة وثيقة بين الداعية والمجتهد فكلاهما يعمل لخدمة الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً.

فالداعية يدعو الناس إلى الله تعالى موضحاً لهم الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..﴾ الآية[1] وسبيل الله تعالى هو التزام الطريق الواضح المحدد من الله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

والمجتهد يعمل فكره لخدمة الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً أيضاً، فهو على ذلك يبذل جهده في استخراج الأحكام التي تخدم الإسلام والمسلمين من شواهدها الدالة عليها بالنظر المؤدي إليها[3].

وزيادة في قوة هذه الصلة بين الداعية والمجتهد، فأحياناً كان رسول الله ﷺ ـ وهو الداعية الأول ـ يحيل بعض القضايا إلى أصحابه للبت فيها ولو في حضرته[4]، فقد جاء

---

(١) النحل آية ١٢٥. (٢) يوسف آية ١٠٨.

(٣) المدخل إلى علم أصول الفقه للدواليبي ص ٥٢.

(٤) نفسه ص ١٢ عن الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٦/٢٥ ـ ٢٦.

في الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لعمرو ابن العاص: (اقض بين هذين)، قال أقضي وأنت حاضر؟ قال: (نعم)، قال: على ماذا أقضي؟ قال: (على أنك إن اجتهدت فأصبت فلك عشر حسنات، وإن إخطأت فلك حسنة)[1].

وأرسل ﷺ معاذاً إلى اليمن وأمره أن يقضي أولاً: بأحكام الكتاب إن وجدت، ثانياً: بأحكام السنة النبوية إن لم يكن هناك نص من القرآن، ثالثاً: الاجتهاد إن لم يكن هناك نص من السنة[2].

وعمر بن الخطاب الداعية المجتهد، والذي سنرى من خلال بحثنا هذا كيف أن لاجتهاداته صلة وثيقة بنشر الدعوة الإسلامية كداعية ومجتهد وأمير للمؤمنين. وكيف كان لها أيضاً أثر كبير على الدعوة الإسلامية في عهده الميمون. لذا فإن الاجتهاد كان مدخلاً ضرورياً لمواجهة كثير من المشاكل العملية التي واجهت الدعوة، وقد أعمل عمر رضي الله عنه ذهنه في استنباط الأحكام وقياسها على نظائرها وأشباهها لخدمة وصالح المسلمين. فقد قال رضي الله عنه في كتابه إلى أبي موسى الأشعري: .. ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق...)[3].

وسنتكلم في هذا الباب عن حجية قول الصحابي ثم بعدها نتكلم عن بعض اجتهادات عمر وأثرها في نشر الدعوة الإسلامية.

---

(١) المدخل في علم أصول الفقه ص ١٢ - ١٣ عن شرح البزدوي ٤/٢٢.
(٢) الدواليبي ص ١٣ عن أعلام الموقعين ١/٢٤٢.
(٣) أعلام الموقعين لابن القيّم ١/٨٦.

الفصل الأول

حجية قول الصحابي

تعريف الصحابي:

في اللغة: صحب - (وصحبه) من باب سلم (صحابة) و (صحبة) أيضاً بالضم وجمع (الصاحب صحب) كراكب وركب و (صحبه) كفاره وفرهه، و (صحاب) كجائع وجياع و (صحبان) كشاب وشبان.

و (الأصحاب) جمع صحب كفرخ وأفراخ. و (الصحابة) بالفتح (الأصحاب) وهي في الأصل مصدر ولم يجمع فاعل على فعالة إلا هذا الحرف. وجمع الأصحاب (أصاحيب) وقولهم في النداء: يا (صاح) أي يا صاحبي ولا يجوز ترخيم المضاف إلا في هذا وحده لأنه سمع من العرب مرخماً.

و (أصحبه) الشيء جَعَله له صاحباً. و (استصحبه) الكتاب وغيره وكل شيء لازم شيئاً فقد استصحبه[1].

ويقول صاحب الكفاية:

لا خلاف بين أهل اللغة في أن القول (صحابي) مشتق من الصحبة، وأنه ليس بمشتق من قدر منها مخصوص، بل هو جار على كل من صحب غيره قليلاً كان أو كثيراً كما أن القول مكلم ومخاطب وضارب مشتق من المكالمة والمخاطبة والضرب وجار على كل من وقع منه ذلك قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك جميع الأسماء المشتقة من الأفعال وكذلك يقال صحبت فلاناً حولاً ودهراً وسنةً وشهراً ويوماً وساعةً فيوقع اسم المصاحبة لقليل ما يقع منها وكثيره، وكذلك يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو

---

(١) مختار الصحاح صفحة ٣٥٦.

ساعة من نهار، هذا هو الأصل في اشتقاق الإسم ومع ذلك فقد تقرر للأمة عُرف في أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته، واتصل لقاؤه ولا يجرون ذلك على من لقى المرء ساعة ومشى معه خُطاً ، وسمع منه حديثاً فوجب لذلك أن لا يجري هذا الاسم في عرف الاستعمال إلا على من هذه حاله، ومع هذا فإن خبر الثقة الأمين عنه مقبول ومعمول به، وإن لم تطل صحبته ولا سمع منه إلا حديثاً واحداً[1].

في الإصطلاح:

قال سعيد بن المسيب: الصحابة لانعدهم إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين قال ابن عمرو رأيت أهل العلم يقولون: كل من رأى الرسول ﷺ وقد أدرك الحلم وعقل أمر الدين ورضيه ممن صحب النبي ﷺ ولو ساعة من نهار، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام[2].

وذكر أحمد بن حنبل من أصحاب رسول الله ﷺ أهل بدر فقال: ثم أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ القرن الذي بعث فيهم، كل من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعةً أو رآه فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ما صحبه وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر إليه[3].

وقال البخاري: ومن صحب النبي ﷺ ورآه من المسلمين فهو من أصحابه[4].

ويقول ابن حجر: وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قَصُرت ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى.

ويخرج بقيد الإيمان من لقيه كافراً ولو أسلم بعد ذلك إذا لم يجتمع به مرة أخرى. وقولنا: «به» يخرج من لقيه مؤمناً بغيره، كمن لقيه من مؤمني أهل الكتاب قبل البعثة. وهل يدخل من لقيه منهم وآمن بأنه سيبعث أو لا يدخل؟ محلّ احتمال ومن هؤلاء بحيرا الراهب ونظراؤه[5].

---

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي صفحة ٥١.
(٢) الكفاية في علم الرواية ص ٥٠ ـ ٥١ (٣) نفسه صفحة ٥١.
(٤) نفسه صفحة ٥١. (٥) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٦/١.

ويدخل في قولنا: (مؤمناً به كل مكلف من الجن والإنس، فحينئذ يتعين ذكر من حفظ ذكره من الجن الذين آمنوا به بالشرط المذكور. وأما إنكار ابن الأثير على أبي موسى تخريجه لبعض الجن الذين عرفوا في كتاب الصحابة فليس بمنكر لما ذكرته.

وقد قال ابن حزم في كتاب الأقضية من المحلي: من ادعى الاجماع فقد كذب على الأمة، فإن الله تعالى قد علمنا أن نفراً من الجن آمنوا وسمعوا القرآن من النبي ﷺ، فهم صحابة فضلاء فمن أين للمدَّعى إجماع أولئك؟

وهذا الذي ذكره في مسألة الإجماع لا نوافقه عليه، وإنما أردت نقل كلامه في كونهم صحابة.

وهل تدخل الملائكة؟ محل نظر، قد قال بعضهم: إنّ ذلك ينبني على أنه هل كان مبعوثاً إليهم أولاً؟ وقد نقل الإمام فخر الدين في أسرار التنزيل الإجماع على أنه ﷺ لم يكن مرسلاً إلى الملائكة. واحتج بأشياء يطول شرحها وفي صحة بناء هذه المسألة على هذا الأصل نظر لا يخفي.

وخرج بقولنا: «ومات على الإسلام» من لقيه مؤمناً به ثم ارتد، ومات على ردته والعياذ بالله. وقد وجد من ذلك عدد يسير، كعبيد الله بن جحش الذي كان زوج أم حبيبة، فإنه أسلم معها، وهاجر إلى الحبشة، فتنصر هو ومات على نصرانيته. وكعبد الله بن خطل الذي قتل وهو متعلق بأستار الكعبة، وكربيعة بن أمية بن خلف.

ويدخل فيه من ارتد وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت، سواء اجتمع به ﷺ مرة أخرى أم لا، وهذا هو الصحيح المعتمد.

والشق الأول لا خلاف عليه في دخوله وأبدى بعضهم في الشق الثاني احتمالاً، وهو مردود لإطباق أهل الحديث على عد الأشعثِ بن قيس في الصحابة، وعلى تخريج أحاديثه في الصِّحاح والمسانيد، وهو ممن ارتد ثم عاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

وهذا التعريف مبني على الأصح المختار عن المحققين، كالبخاري، وشيخه أحمد ابن حنبل ومن تبعهما، ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة، كقول من قال: لا يعد صحابياً إلا من وصف بأحد أوصاف أربعة: من طالت مجالسته، أو حفظت روايته أو ضبط أنه غزا معه، أو استشهد بين يديه، وكذلك من اشترط في صحة الصحبة بلوغ الحلم، أو

المجالسة ولو قصرت[1].

وأطلق جماعة أنَّ مَنْ رأى النبي ﷺ فهو صحابي. وهو محمول على من بلغ سنَّ التمييز، إذ منْ لم يميز لا تصحُّ نسبة الرؤية إليه. نعم يصدق أن النبي ﷺ رآه فيكون صحابياً من هذه الحيثية، ومن حيث الرواية يكون تابعياً، وهل يدخل من رآه ميتاً قبل أن يدفن كما وقع ذلك لأبي ذُؤَيب الهُذَلي الشاعر؟ إن صح فهو محل نظر. والراجح عدمُ الدخول. ومما جاء عن الأئمة من الأقوال المجملة في الصفة التي يعرف بها كون الرجل صحابياً وإن لم يرد التنصيص على ذلك ـ ما أورده ابن أبي شيبة في مصنفه من طريق لا بأس به، أنهم كانوا في الفتوح لا يؤمرون إلا الصحابة. وقول ابن عبد البر: لم يبق بمكة ولا الطائف أحد في سنة عشر إلا أسلم، وشهد مع النبي ﷺ حجة الوداع. ومثل ذلك قوْلُ بعضهم في الأوس والخزرج: إنه لم يبق منهم في آخر عهد النبي ﷺ إلا من دخل في الإسلام، وما مات النبي ﷺ وَأحدٌ مِنْهم يُظْهِرَ الكفر. والله أعلم.

الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابياً.

وذلك بأشياء: أولها أن يثبتَ بطريق التواتُر أنه صحابي، ثم الاستفاضة والشهرة، ثم بأن يُرْوَى عن آحاد من الصحابة أن فلاناً له صحبة مثلاً، وكذا عن آحاد التابعين، بناء على قبول التزكية من واحد، وهو الراجح ثم بأن يقول هو اذا كان ثابت العدالة والمعاصرة: أنا صحابي.

أما الشرط الأول ـ وهو العدالة ـ فجزم به الآمدي وغيره، لأن قوله قبل أن تثبت عدالته: أنا صحابي أو ما يقوم مقام ذلك ـ يلزم مِنْ قبول قوله إثباتُ عدالته، لأن الصحابة كلهم عدول، فيصير بمنزلة قول القائل: أنا عدل، وذلك لا يقبل.

وأما الشرط الثاني ـ وهو المعاصر ـ فيعتبر بمضي مائة سنة وعشر سنين من هجرة النبي ﷺ، لقوله ﷺ في آخر عمره لأصحابه: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يَبْقَى على وجه الأرض ممن هو اليوم عليها أحد». رواه البخاري، ومسلم من حديث ابن عمر. زاد مسلم من حديث جابر أن ذلك كان قبل موته ﷺ بشهر. ولفظه سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «أقسم بالله، ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ»[2].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر ١ ـ ٧.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١ ـ ٩.

ولهذه النكتة لم يُصدق الأئمة أحداً ادعى الصحبةَ بعد الغاية المذكورة، وقد ادعاها جماعةٌ فَكُذِّبُوا، وكان آخرهم رتن الهندي. وهو كذاب ظهر بالهند بعد الستمائة فادعى الصحبة.

ثم من لم يُعرف حاله إلا من جهة نفسه فمقتضى كلامِ الآمدي الذي سبق وَمَنْ تبعه ألا تَثْبُت صُحبته. ونقل أبو الحسن بن القطان فيه الخلاف ورجح عدم الثبوت. وأما ابن عبد البر فجزم بالقبول بناءً على أن الظاهر سلامتُه من الجرح، وقوى ذلك بتصرف أئمة الحديث في تخريجهم أحاديث هذا الضرب في مسانيدهم. ولا ريب في انحطاط رتبة من هذا سبيله عمن مضى. ومن صور هذا الضرب أن يقول التابعي: أخبرني فلان (مثلاً) أنه سمع النبي ﷺ يقول، سواء أسماه أم لا. أما إذا قال أخبرني رجل، مثلاً، عن النبي ﷺ بكذا فثبوتُ الصحبة بذلك بَعِيد: لاحتمال الإرسال. ويحتمل التفرقة بين أن يكون القائل مِنْ كبار التابعين فيرجح القبول، أو صغارهم فيرجح الرد، ومع ذلك فلم يتوقف من صنَّفَ في الصحابة في إخراج من هذا سبيله في كتبهم. والله أعلم.

يستفاد من معرفته صحبة جَمْعٍ كثير يكتفي فيهم بوصف يتضمن أنهم صحابة، وهو مأخوذ من ثلاثة آثار: الأول: أخرج ابن أبي شيبة من طريق قال: كانوا لا يؤمرون في المغازي إلا الصحابة، فمن تتبع الأخبار الواردة في الردَّة والفتوح وجد من ذلك كثيراً، وهم من القسم الأول.

الثاني: أخرج الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي ﷺ فدعا له، وهذا يؤخذ منه شيء كثير أيضاً، وهم من القسم الثاني.

الثالث: وأخرج ابن عبد البر من طريق قال: لم يبق بمكة والطائف أحدٌ في سنة عشر إلا أسلم، وشهد حجة الوداع. هذا وَهُمْ في نفس الأمر عدد لا يحصون، ولكن يعرف الواحد منهم بوجود ما يقتضي أنه كان في ذلك الوقت موجوداً، فيلحق بالقسم الأول أو الثاني لحصول رؤيتهم للنبي ﷺ وإن لم يرهم هو.

والله أعلم.[1]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١ ـ ١٠.

المبحث الأول

ما ورد في حجية قول الصحابة

لا شك أن الصحابة رضي الله عنهم عدول كلهم لأنهم خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس.

يقول صاحب الكفاية: كل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبي ﷺ لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله، ويجب النظر في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ، لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن[1].

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[3] وهذا اللفظ وإن كان عاماً فالمراد به الخاص، وقيل هو وارد في الصحابة دون غيرهم[4] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجَرةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنصارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَٱلَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمَ يُحِبُّونَ مَنْ

---

(١) الكفاية في علم الرواية لابن العربي صفحة ٤٦، وأعلام الموقعين لابن القيم ٤/ ١٢٤ وما بعدها.
(٢) سورة آل عمران آية ١١٠. (٣) سورة البقرة آية ١٤٣.
(٤) الكفاية لابن العربي صفحة ٤٦. (٥) سورة الفتح آية ١٨.
(٦) سورة التوبة آية ١٠٠. (٧) سورة الأنفال آية ٦٤.

هَاجَرْ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] في آيات يكثر إيرادها ويطول تعدادها[2].

وجاء عن رسول الله ﷺ من الأخبار المستفيضة عن تعديل الصحابة رضي الله عنهم حيث يقول ﷺ: (خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يلُونَهُمْ)[3]. ويقول ﷺ: (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، ثم إن بعدكم قوماً يَشْهدون ولا يُسْتَشْهَدُون، ويَخُونون ولا يُؤْتَمنون وَيَنْذرُونَ ولا يُوفُون، ويظهر فيهم السِّمَنُ[4]. عن أبي بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء. قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: (ما زلتم هنا؟) قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء. قال: (أحسنتم) أو (أصبتم). قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء. فقال: (النجوم أمنةٌ للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أنا[5] أتى أصحابي ما يوعدون، أصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون[6]. ويقول ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يجيءُ قومٌ تَسْبِقُ شهادةُ أَحَدهِم يمينَه ويمينُه شهادَتَه)[7]. ويراد بقرن النبي الصحابة[8].

وجاء في الرسالة[9] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية فقال: إن رسول

---

(١) سورة الحشر آيتا ٨ ـ ٩. (٢) الكفاية لابن العربي صفحة ٤٦.
(٣) الحديث ٥١٣ من رياض الصالحين تحقيق الالباني.
(٤) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر ٣/٧.
(٥) ليس في مسلم (أنا). و(أمنة) جمع أمين وهو الحافظ. فمعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية فإذا تكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت وذلك ما توعد، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون من الفتن والحروب وارتد من ارتد من الأعراب،واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحا، وقد وقع كل ذلك.
(٦) رواه مسلم انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري تحقيق المحدث الألباني حديث رقم (٧٤١) صفحة ٤٦٤.
(٧) فتح الباري ٧ ـ ٣. (٨) نفسه ٧ ـ ٦.
(٩) الرسالة للشافعي صفحة ٤٧٤.

الله ﷺ قام فينا كمقامي فيكم، فقال: (أكْرِمُوا أصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونهَم، ثُمَّ الَّذِينَ يلُونَهُم، ثُمَّ يَظْهر الْكَذِبُ، حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلِفُ وَلَا يُسْتَحْلفُ، وَيَشْهد ولا يُستَشْهَدُ، أَلَا فَمَنْ سَرَّهُ بَحْبَحَة[1] الجَنَّةِ فَلْيَلْزَم الْجَمَاعَةَ فَإنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَذِّ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبعدُ، ولا يَخلُونَ رجُل بامْرَأَةٍ، فإنَّ الشَّيْطانَ ثَالِثُهما، وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمنُ).

وقال ابن القيم: إذا قال الصحابي قولاً فإما أن يخالفه صحابي آخر أو لا يخالفه فإن خالفه مثله لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر. وإن لم يخالف الصحابي صحابياً آخر فإما أن يشتهر قوله في الصحابة أو لا يشتهر، فإن اشتهر فالذي عليه جماهير الطوائف من الفقهاء أنه إجماع وحجة، وقالت طائفة منهم: هو حجة وليس بإجماع، وقالت شرذمة من المتكلمين وبعض الفقهاء المتأخرين: لا يكون إجماعاً ولا حجة. وإن لم يشتهر قوله أو لم يعلم هل اشتهر أم لا فاختلف الناس هل يكون حجة أم لا؟

فالذي عليه جمهور الأمة أنه حجة وهذا قول الحنفية، صرح به محمد بن الحسن وذكر عن أبي حنيفة نصاً. وهو مذهب الإمام مالك وأصحابه، وتصرفه في موطئه دليل عليه، وهو قول إسحاق بن راهويه أبي عبيد، وهو منصوص الإمام أحمد في غير موضع عنه واختيار جمهور أصحابه، وهو منصوص الإمام الشافعي في القديم والجديد...[2].

أما ما نقل عن الشافعي من أنه قد ذهب في مذهبه الجديد إلى عدم الإحتجاج بقول الصحابي، فقد رد ابن القيم هذا النقل وأثبت عدم رجوع الشافعي في ذلك عن مذهبه القديم حيث قال: .. وأما الجديد فكثير منهم يحكي عنه فيه أنه ليس بحجة وفي هذه الحكاية نظر ظاهر جداً، فإنه لا يحفظ له في الجديد حرف واحد أن قول الصحابي ليس بحجة، وغاية ما يتعلق به من نقل ذلك أنه يحكي أقوالاً للصحابة في الجديد ثم يخالفها، ولو كانت عنده حجة لم يخالفها، وهذا تعلق ضعيف جداً، فإن مخالفة المجتهد الدليل المعين لما هو أقوى في نظره منه يدل على أنه لا يراه دليلاً من حيث الجملة، بل خالف

---

(١) البحبحة: بمفتوحتين وحاء مهملتين الأولى ساكنة والثانية مفتوحة: وهي التمكن من المقام والحلول، ويقال (تبحبح الرجل (وبحبح) إذا تمكن من المقام والحلول وتوسط المنزل (هامش ٣) من الرسالة والحديث رواه أحمد في المسند، والترمذي وحسنه، والحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي (ج١ ص ١١٣ - ١١٥).

(٢) أعلام الموقعين ١١٩/٤.

دليلاً لدليل أرجح عنده منه، وقد تعلق بعضهم بأنه يراه في الجديد إذا ذكر أقوال الصحابة موافقاً لها لا يعتمد عليها وحدها كما يفعل بالنصوص، بل يعضدها بضروب من الأقيسة، فهو تارة يذكرها ويصرح بخلاف منها، وتارة يوافقها ولا يعتمد عليها بل يعضدها بدليل آخر، وهذا أيضاً تعلق أضعف من الذي قبله، فإن تضافر الأدلة وتعاضدها وتناصرها من عادة أهل العلم قديماً وحديثاً، ولا يدل ذكرهم دليلاً ثانياً وثالثاً على أن ما ذكروه قبله ليس بدليل، وقد صرح الشافعي في الجديد من رواية الربيع عنه بأن قول الصحابة حجة يجب المصير إليه، فقال: المحدثات من الأمور ضربان أحدهما: ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهذه البدعة الضلالة. والربيع إنما أخذ عنه بمصر، وقد جعل مخالفة الأثر الذي ليس بكتاب ولا سنة ولا إجماع ضلالة، وهذا فوق كونه حجة، وقال البيهقي في كتاب مدخل السنن له: باب ذكر أقاويل الصحابة إذا تفرقوا، قال الشافعي: أقاويل الصحابة إذا تفرقوا تصير إلى ما وافق الكتاب والسنة أو الإجماع[1]. إذا كان أصح في القياس، وإذا قال الواحد منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم فيه موافقة ولا خلافا صرت إلى اتباع قوله، وإذا لم أجد كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ولا شيئاً في معناه يحكم له بحكمه أو وجد معه قياس،[2] قال البيهقي: وقال في كتاب اختلافه مع مالك: ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر على من سمعه مقطوع إلا بإتيانه، فإن لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل الصحابة أو واحد منهم، ثم كان قول الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان إذا صرنا إلى التقليد أحب إلينا، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة فنتبع القول الذي معه الدلالة، لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزم الناس ومن لزم قوله الناس كان أشهر ممن يفتى الرجل أو النفر وقد يأخذ بفتياه ويدعها، وأكثر المفتين يفتون الخاصة في بيوتهم ومجالسهم ولا يعتني العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام[3].

وفي الرسالة القديمة للشافعي ـ بعد ذكر الصحابة وتعظيمهم ـ قال: وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم،[4] وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا، ومن أدركنا ممن نرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا أو قول بعضهم إن تفرقوا، وكذا نقول، ولم نخرج من أقوالهم كلهم. قال: وإذا قال الرجلان منهم في شيء قولين نظرت، فإن كان قول أحدهما بالكتاب والسنة أخذت

---

(١) أعلام الموقعين ٤/١٢٠، الرسالة للشافعي فقرة ١٨٠٦.
(٢) الرسالة للشافعي فقرة ١٨١٠.
(٣) أعلام الموقعين ٤/١٢١. (٤) نفسه ٤/١٢٢.

به، لأن معه شيئاً قوياً، فإن لم يكن على واحد من القولين دلالة بما وصفت كان قول الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان أرجح عندنا من واحد لو خالفهم غير إمام.

قال البيهقي: وقال في موضع آخر: فإن لم يكن على القول دلالة من كتاب ولا سنة كان قول أبي بكر وعمر وعثمان أحب إليّ من قول غيرهم فإن اختلفوا صرنا إلى القول الذي عليه دلالة، وقلما يخلو اختلافهم من ذلك.

وإن اختلفوا بلا دلالة نظرنا إلى الأكثر، فإن تكافئوا نظرنا أحسن أقاويلهم مخرجاً عندنا.

وإن وجدوا للمفتين في زماننا أو قبله إجماعاً في شيء تبعناه، فإذا نزلت نازلة لم نجد فيها واحدة من هذه الأمور فليس إلا اجتهاد الرأي، فهذا كلام الشافعي رحمه الله ورضي عنه بنصه، نشهد بالله أنه لم يرجع عنه، بل كلامه في الجديد مطابق لهذا موافق له كما تقدم ذكر لفظه.

وذهب بعض من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة وأكثر المتكلمين إلى أن قول الصحابي ليس بحجة، وذهب بعض الفقهاء إلى أنه إن خالف القياس فهو حجة، وإلا فلا، قالوا: لأنه إذا خالف القياس لم يكن إلا عن توقيف وعلى هذا فهو حجة، وإن خالفه صحابي آخر.

والذين قالوا: ليس بحجة قالوا: لأن الصحابي مجتهد من المجتهدين يجوز عليه الخطأ فلا يجب تقليده، ولا يكون قوله حجة كسائر المجتهدين، ولأن الأدلة الدالة على بطلان التقليد تعمّ تقليد الصحابة ومن دونهم، ولأن التابعي إذا أدرك عصر الصحابة اعتد بخلافه عند أكثر الناس، فكيف يكون قول الواحد حجة عليه؟ ولأن الأدلة قد انحصرت في الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستصحاب، وقول الصحابي ليس واحداً منها، ولأن امتيازه بكونه أفضل وأعلم وأتقى لا يوجب وجوب اتباعه على مجتهد آخر من علماء التابعين بالنسبة إلى من بعدهم[1].

وقد تصدى بن قيم للرد على من قال بعدم حجية قول الصحابي وأجاد رحمه الله تعالى في الدفاع عنهم وأتى بالأدلة الدّامغة من الكتاب والسنة الدالة على حجية أقوالهم ووجوب اتباعهم حيث ذكر رحمه الله ستةً وأربعين وجهاً في وجوب اتباع الصحابة رضي

---

(١) أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ١٢٣/٤

الله عنهم. اخترت منها خمسة عشر وجهاً فقط ولم أتبع في ترتيبهم نفس ترتيب بن قيم.

الوجه الأول:

ما احتج به مالك وهو قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، رَضِيَ اللَّهُ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] فوجه الدلالة أن الله تعالى أثنى على من اتبعهم[2].

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[3]... وكل واحد من الصحابة لا يسألنا أجراً، وهم مهتدون، بدليل قوله تعالى خطاباً لهم ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4]. فيكون الله قد هداهم، وكل من هداه فهو مهتد فيجب اتباعه بالآية.

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿واتَّبِع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[5] وكل من الصحابة منيب إلى الله فيجب اتباع سبيله... والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم وقد قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[6].

الوجه الرابع:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيَرةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي..﴾[7]... والصحابة رضي الله عنهم قد اتبعوا الرسول ﷺ فيجب اتباعهم إذا دعوا إلى الله.

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٠.
(٢) أعلام الموقعين ٤/١٢٣. (٣) سورة يس آية ٢١.
(٤) سورة آل عمران آية ١٠٣. (٥) سورة لقمان آية ١٥.
(٦) سورة الشورى آية ١٣. (٧) سورة يوسف آية ١٠٨.

الوجه الخامس:

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[1]... وحقيقة الاصطفاء: افتعال من التصفية، فيكون قد صفاهم من الأكدار، والخطأ من الاكدار...

الوجه السادس:

أن الله تعالى شهد لهم بأنهم أوتوا العلم بقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾[2]... وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً.

الوجه السابع:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوااتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[3] قال غير واحد من السلف إنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثامن:

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[4]. والاجتباء كالاصطفاء.

الوجه التاسع:

قوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[5] والصحابة رضي الله عنهم معتصمون بالله فهم مهتدون، فاتباعهم واجب.

الوجه العاشر:

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[6]

---

(١) سورة النحل آية ٥٩.
(٢) سورة سبأ آية ٦.
(٣) سورة التوبة آية ١١٩.
(٤) سورة الحج آية ٧٨.
(٥) سورة آل عمران آية ١٠٢.
(٦) سورة السجدة آية ٢٤.

الوجه الحادي عشر:

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[1] والإمام بمعنى القدوة.

الوجه الثاني عشر:

قال عليه الصلاة والسلام: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أحدكم أَنْفَقَ مثل أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)[2].

الوجه الثالث عشر:

ما رواه الإمام أحمد وغيره عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، ومن المحال أن يحرم الله أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً الصواب في أحكامه ويوفق له مَن بعدهم[3].

الوجه الرابع عشر:

إن الصحابي إذا قال قولاً أو حكم بحكم أو أفتى بفتيا فله مدارك ينفرد بها عنا، ومدارك نشاركه فيها فأما ما يختص به فيجوز أن يكون سمعه من النبي ﷺ شفاها أو من صحابي آخر عن رسول الله ﷺ، فإن ما انفردوا به من العلم عنا أكثر من أن يحاط به. وأما المدارك التي شاركناهم فيها من دلالات الألفاظ والأقيسة فلا ريب أنهم كانوا أبر قُلُوباً، وأقل تكلفاً، وأقرب إلى[4] أن يوفقوا فيها لما لم نوفق له نحن، لما خصهم الله تعالى به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم[5].

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٤. (٢) البخاري.

(٣) أعلام الموقعين ١٣٩/٤. (٤) نفسه ١٤٨/٤. (٥) نفسه ١٤٩/٤.

الوجه الخامس عشر:

عن النبي ﷺ قال: (لَاتَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ) وقال عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه: لن تخلُوَ الأرض من قائم لله بحجة لكيلا تبطل حجج الله وبيناته، فلو جاز أن يخطىء الصحابي في حكم ولا يكون في ذلك العصر ناطق بالصواب في ذلك الحكم لم يكن في الأمة قائم بالحق في ذلك الحكم، لأنهم بين ساكت ومخطىء، ولم يكن في الأرض قائم لله بحجة في ذلك الأمر، ولا من يأمر فيه بمعروف أو ينهي فيه عن منكر، حتى نبغت نابغة فقامت بالحجة فأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع[1].

وجاء في الفتاوى[2]: وأما أقوال الصحابة، فإن انتشرت ولم تنكر في زمانهم فهي حجة عند جماهير العلماء، وإن تنازعوا ردّ ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله. ولم يكن قول بعضهم حجة مع مخالفة بعضهم له باتفاق العلماء، وإن قال بعضهم قولاً ولم يقل بعضهم بخلافه ولم ينتشر، فهذا فيه نزاع، وجمهور العلماء يحتجون به، كأبي حنيفة، ومالك، وأحمد في المشهور عنه، والشافعي في أحد قوليه، وفي كتبه الجديدة الاحتجاج بمثل ذلك في غير موضع، ولكن من الناس من يقول: هذا هو القول القديم.

ويقول ابن قيم[3] في جواز الفتوى بالآثار السلفية، والفتاوي الصحابية، وأنها أولى بالأخذ بها من آراء المتأخرين وفتاواهم، وأن قربها من الصواب بحسب قرب أهلها من عصر الرسول ﷺ، وأن فتاوى الصحابة أولى أن يؤخذ بها من فتاوى التابعين، وفتاوى التابعين أولى بها من فتاوى تابعي التابعين وهلم جرا. وكلما كان العهد بالرسول ﷺ أقرب.كان الصواب أغلب، وهذا حكم بحسب الجنس لا بحسب كل فرد فرد من المسائل، كما أن عصر التابعين وإن كان أفضل من عصر تابعيهم فإنما هو بحسب الجنس لا بحسب كل شخص شخص.[4]

وهكذا أجمع أئمة المذاهب الأربعة على الأخذ بأقوال الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) نفسه ٤/ ١٥٠ والحديث «لا تزال طائفة...» رواه أبو داود رقم ٢٤٨٤.

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٢٠/ ١٤، وقد روى ابن قيم هذه الأقوال، وأثبت للشافعي الاحتجاج بأقوال الصحابة في القديم والجديد.

(٣) أعلام الموقعين ٤/ ١١٨

(٤) أعلام الموقعين ٤/ ١١٨

والاحتجاج بفتاواهم [1].

حكم قول الصحابي: أمر رسول الله ﷺ بكذا ونهى عن كذا. هل يجب حمله على أنه سمع ذلك منه، أو يجوز كونه رواية عن غيره عنه؟

يقول صاحب الكفاية:[2] اختلف الناس فيما ذكرناه وما هو مثله، فقال أكثر العلماء: الواجب في ذلك حمله على أن الصحابي سمعه من رسول الله ﷺ، وقال قوم: يجوز أن يكون سمعه منه ويجوز كونه راوياً له عن غيره، والأظهر هو القول الأول، وكذلك قول الصحابي: حدّث أو أخبر، أو قال رسول الله ﷺ فهو بمثابة قوله سمعت رسول الله ﷺ يأمر بكذا وينهي عن كذا، والدليل عليه أنه إذا قال هذه الأقاويل من عرفت معاصرته لرسول الله ﷺ وسماعه منه وتلقيه عنه وجب أن يكون ظاهر قوله مقتضياً لسماع ذلك منه وإن جاز أن يكون قد حدّث عنه، ومن حمل ذلك على أنه مروى له عنه يحتاج إلى دليل لأنه خلاف ظاهر الحال، ويدل عليه أيضاً أن الذي يقتضيه ظاهر العدالة أن لا يقول الراوي من الصحابة: أمر رسول الله ﷺ بكذا أو قال كذا إلا وهو عالم متحقق لقول من أضاف إليه، وإذا روى له الواحد والاثنان ذلك لم يكن عالماً ولا متحققاً لأمره وقوله بل يجوز التوهم والظن فيه فلا يجوز إضافة أمر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكذا علمه بأنه أمر، وذلك لا يحصل له بخبر الواحد، إلا أنه يلزم على هذا تجويز تواتر الأخبار عليه فيحصل عالماً بأنه أمر له من جهة التواتر وإن لم يكن سمع الأمر منه ولا شك في أن بين قوله سمعت رسول الله ﷺ «يأمر بكذا وبين قوله أمر رسول الله ﷺ بكذا» فرقاً وإن ذكره للسماع لا يحتمل سواه،

وقوله: أمر بكذا يحتمل إخباره بالأمر كما يحتمل سماعه وإن كان الظاهر ما قلناه من السماع.

حكم قول الصحابي أُمرنا بكذا ونهينا عن كذا
ومن السنة كذا

هل يجب حمله على أمر الرسول ﷺ ونهيه أو يجوز كونه أمراً ونهياً له ولغيره.

قال أكثر أهل العلم يجب أن يحمل قول الصحابي: أمرنا بكذا على أنه أمر الله ورسوله، وقال فريق منهم: يجب الوقف في ذلك لأنه لا يؤمن أن يعني بذلك أمر الأئمة والعلماء كما أنه يعني بذلك أمر رسول الله ﷺ، والقول الأول أولى بالصواب[3].

---

(١) المدخل إلى أصول علم الفقه للدواليبي ص ٢٧٦ نقلا عن كتاب ابن حنبل لأبي زهرة ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٤١٩ وما بعدها.

والدليل عليه: أن الصحابي إذا قال: أُمرنا بكذا فإنما يقصد الاحتجاج لإثبات شرع وتحليل وتحريم وحكم يجب كونه مشروعاً.

وقد ثبت أنه لا يجب بأمر الأئمة والعلماء تحليل ولا تحريم إذا لم يكن ذلك أمراً عن الله ورسوله، وثبت أن التقليد لهم غير صحيح وإذا كان كذلك لم يجز أن يقول الصحابي: أمرنا بكذا أو نهينا عن كذا ليخبر بإثبات شرع ولزوم حكم في الدين، وهو يريد أمر غير الرسول ومن لا يجب طاعته ولا يثبت شرع بقوله، وأنه متى أراد أمر من هذه حاله وجب تقييده له بما يدل على أنه لم يرد أمر من يثبت بأمره شرع، وهذه الدلالة بعينها توجب حمل قوله: من السنة كذا على أنها سنة الرسول ﷺ.

فإن قيل: هل تفصلون بين قول الصحابي ذلك في زمن النبي ﷺ وبين قوله بعد وفاته؟ قيل: لا، لأنا لا نعرف أحداً فصل بين ذلك، فأما إذا قال ذلك من بعد الصحابة فلا يمتنع أن يعني بذلك أمر الأئمة بذلك الشيء، وأمرهم حجة يجب اتباعها، ويحرم محالفتها، وإن كان قد قالوه رأياً واجتهاداً ولم يسمع من النبي ﷺ فيه شيء فإجماع الأئمة على التحليل والتحريم يثبت به الحكم كأمر النبي ﷺ، وقد يفصل بين القائل لذلك من الصحابة وبين القائل له ممن بعدهم بأن القائل له من الصحابة وقد جعل له بحق معاصرة رسول الله ﷺ تلقيه عنه والسماع منه، ومن بعده فليس كذلك، فيحتمل أن يريد به أمر رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يريد به أمر غيره من أئمة الدين، وأيضاً فإنه إذا حمل قول القائل: أمرنا بكذا على أنه أمر من الأئمة بذلك الشيء فإنه قد تضمن ذلك كون النبي ﷺ آمراً به لأنه قد ثبت أنه قد أمر بفعل ما اجتمعت الأمة على الأمر به ونهى عما نهت عنه، وإنما يمنع من حمل ظاهر الرواية على أنه أمر من لا يثبت بأمره ونهيه حكم من شرع ولا يجب به العمل وليس هذه حال أمر الأئمة بالشيء.

حكم قول الصحابي كنا نقول كذا ونفعل كذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل يكون شرعاً؟

قول الصحابي كنا نقول كذا ونفعل كذا من ألفاظ التكثير ومما يفيد تكرار الفعل والقول واستمرارهم عليه، فمتى أضاف ذلك إلى زمن النبي ﷺ على وجه كان يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا ينكره وجب القضاء بكونه شرعاً وقام إقراره له مقام نطقه

بالأمر به، ويبعد فيما كان يتكرر قول الصحابه له وفعلهم إياه أن يخفي على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقوعه ولا يعلم به، ولا يجوز في صفة الصحابي أن يعلم إنكار أكان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك فلا يرويه،[1]. لأن الشرع والحجة في إنكاره لا في فعلهم لما ينكره، وراوي ذلك إنما يحتج بمثل هذه الرواية في جعل الفعل شرعاً، ولا يمكن في صفته رواية الفعل الذي ليس بشرع وتركه رواية إنكاره له الذي هو الشرع، فوجب أن يكون المُنكر في زمن الرسول ﷺ مع إقراره شرعاً ثابتاً لما قلناه.

ومما يدل على ذلك ما نقله صاحب الكفاية بسنده عن ابن عمر قال: كنا لا نرى بكراء الأرض بأساً حتى حدثنا رافع ابن خديج أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن كراء الأرض فكان ابن عمر يقول: لقد نهى ابن خديج عن أمر نافع لنا.

أفلا ترى ابن عمر لم يستجز أن يذكر ما كانوا يفعلونه من استكراء الأرض إلا بالجمع بينه وبين حديث رافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النهي عنه.

ومتى جاءت رواية عن الصحابة فإنهم كانوا يقولون أو يفعلون شيئاً ولم يكن في الرواية ما يقضي إضافة وقوع ذلك إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن حجة، فلا دلالة على أنه حق إلا أن يعلم جواز ذلك من جهة الاجتهاد فيحكم به، وإن علم أنه مذهب لجميع الأئمة وجب القطع على أنه شرع ثابت يحرم مخالفته ويجب المصير إليه[1].

---

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي من ص ٤٢٣ وما بعدها.

المبحث الثاني

ترجيح قول الخلفاء الراشدين

وأما قول الخلفاء الراشدين فهو أولى بالإلزام لدخولهم في عموم الصحابة من جهة، ولما نص عليه ﷺ بشأنهم بصفة خاصة من جهة أخرى.

فقد روى أبو داود بسنده عن العرباض بن سارية، وهو ممن نزل فيه (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه)[1] قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإن من يعش منكم بعدي فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[2].

وهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلافات في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روى عنه ﷺ من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقه وأنها كلها في النار إلا فرقة واحدة وهي ما كان عليه هو وأصحابه[3].

وفي أمره ﷺ في اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموماً دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين عموماً متبعة كاتباع السنة. بخلاف

---

(١) التوبة آية ٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٥/١٣ وما بعدها حديث ٤٦٠٧ وأخرجه الترمذي في العلم حديث ٢٦٧٨ وابن ماجة في المقدمة حديث ٤٢ وأخرجه الامام أحمد انظر أعلام الموقعين ٤/١٤٠.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢٣٠.

غيرهم من ولاة الأمور[1].

والخلفاء الراشدون الذين أمرنا باتباعهم هم أبو بكر، وعمر وعثمان، وعلي رضي الله عنهم أجمعين، والدليل على ذلك حديث سفينة عن النبي ﷺ قال: (. . . والخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً) وقد صححه الإمام أحمد واحتج به على خلافة الأئمة الأربعة.

وقد اختلف العلماء في اجتماع الخلفاء الاربعة على أن هو إجماع أو حجة مع مخالفة غيرهم من الصحابة أم لا؟ وفيه روايتان عن الإمام أحمد وحكم أبو حازم الحنفي في زمن المعتضد بتوريث ذوي الأرحام، ولم يعتد بمن خالف الخلفاء وأنفذ حكمه في ذلك في الآفاق، ولو قال بعض الخلفاء الأربعة قولاً ولم يخالفه أحد بل خالفه غيره من الصحابة فهل يقدم قوله على قول غيره؟ فيه قولان أيضاً للعلماء والْمَنْصُوص عن أحمد أنه يقدم قوله على قول غيره من الصحابة، وكذا ذكره الخطابي وغيره وكلام أكثر أهل السلف يدل على ذلك[1].

وقال ابن قيم[2] في معرض حديثه عن ترتيب أقوال الصحابة من حيث الحجية قال عن الخلفاء الراشدين.

فإن خالفه[3] أعلم منه كما إذا خالف الخلفاء الراشدون أو بعضهم غيرهم من الصحابة في حكم، فهل يكون الشق الذي فيه الخلفاء الراشدون أو بعضهم حجة على الآخرين؟

فيه قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد، والصحيح أن الشق الذي فيه الخلفاء أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به من الشق الآخر.

فإن كان الأربعة في شق فلا شك أنه الصواب، وإن كان أكثرهم في شق فالصواب فيه أغلب وإن كانوا اثنين واثنين فشق أبي بكر وعمر أقرب إلى الصواب، فإن اختلف أبو بكر وعمر فالصواب مع أبي بكر وهذه جملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة واطلاع على ما اختلف فيه الصحابة وعلى الراجح من أقوالهم.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٣١. (٢) أعلام الموقعين ١١٩/٤.
(٣) أي إن خالف صحابي الخلفاء الراشدين أو بعضهم.

المبحث الثالث

ترجيح قول أبي بكر وعمر على غيرهما من الصحابة

لقد نص رسول الله ﷺ على أفضلية أبي بكر وعمر بصفة خاصة على سائر الصحابة حيث قال ﷺ في حقهما: (إِنْ يُطِعِ الْقَوْمُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَر يُرْشدا)[1] فجعل ﷺ الرشد بطاعتهما، وقال ﷺ لأبي بكر وعمر: (لَوْ اتَّفَقْتُمَا عَلَى شَيْءٍ لَمْ أُخالِفْكُمَا)[2] فهذا رسول الله ﷺ يخبر أنه لا يخالفهما لو اتفقا ومن يقول: قولهما ليس بحجة يُجَوِّز مخالفتهما.

ونظر النبي ﷺ إلى أبي بكر وعمر فقال: (هَذَانِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ)[3] أي هما مني بمنزلة السمع والبصر، أو هما من الدين بمنزلة السمع والبصر، ومن المحال أن يُحرم سمع الدين وبصره.

وروى الإمام أحمد والترمذي عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ جلوساً فقال: (إِنِّي لَا أَدْرِي مَا قدر بَقَائِي فِيكُمْ فاقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما)[4].

وفي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: (كَيْفَ تَرونَ الْقَوْم صَنَعُوا حِينَ فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ وَأَرْهَقَتْهُمْ صَلاتَهم)؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (أَلَيْسَ فِيهِم أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر، إِنْ يُطِيعُوهُمَا فَقَدْ رَشَدُوا وَرَشَدَتْ أُمَّتُهم وإِنْ يُعْصُوهُمَا فقد غَووا وَغَوتْ أُمَّتُهمْ) قالها ثلاثاً[5].

وقال ابن قيم في معرض كلامه على ترتيب الأخذ بأقوال الصحابة وعندما ذكر الأربعة الخلفاء في حالة ما إذا اختلفوا اثنين اثنين قال: (. . . فشق أبي بكر وعمر أقربُ إلى الصواب. . .)[6].

---

(١) أعلام الموقعين ٤/١٤٠ وانظر منهاج السنة لابن تيمية ٣/١٦٠ والحديث رواه مسلم.
(٢) نفسه ٤/١٤١ وانظر منهاج السنة ٣/١٦٠.
(٣) أعلام الموقعين ٤/١٤١.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٣١ وما بعدها وانظر منهاج السنة لابن تيمية ٣/١٦٢ والفتاوى ٢٠/٣١٣.
(٥) منهاج السنة ٣/١٦٠. (٦) أعلام الموقعين ٤/١١٩.

المبحث الرابع

ما ورد في حجية قول عمر بصفة خاصة*

قوله ﷺ: (إِنَّ اللَّه جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَر وَقَلْبِه) وكان عمر بن عبد العزيز يتبع أحكامه ويستدل بقول النبي ﷺ: (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) وروى أبو نُعيْم في حديث عزوب الكندي أن رسول الله ﷺ قال: (إنه سيحدث بعدي أشياء فاجتهدوا إلى أن تلزموا ما أحدث عمر) وكان عليّ يتبع قضاياه وأحكامه ويقول: إن عمر كان رشيد الأمر[1].

وأخرج البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قال[2]: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ ـ يعني اللبن ـ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الرِّيِّ يَجْرِي فِي ظُفري ـ أو في أظفاري ـ ثم ناولت عمر) قالوا: فمَا أولته يا رسول الله؟ قال: (العلم).

وأخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (أُرِيتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلو بَكرةٍ على قليب، فجاءَ أبو بكرٍ فَنَزع ذَنُوبا أو ذَنُوبين نزعا ضعيفا والله يغفر له. ثم جاء عمر بن الخطاب فَاسْتَحَالَتْ غَرْباً، فلم أَرَ عَبْقَرِيّاً[3] يَفْرِى فَرِيّه[4]، حتى رَوِيَ النَّاسُ وضَرَبوا بِعطَن)[5]

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢٣٢.

(٢) فتح الباري ٤٠/٧ ـ ٤١، وانظر مسلم ١٦٠/١٥ وانظر أعلام الموقعين ١٤٦/٤.

(٣) لعبقري النافذ الماضي الذي لا شيء يفوقه وعبقري القوم سيدهم.. (فتح الباري ٤٦/٧.

(٤) يفري فريه: أي يعمل عمله البالغ.

(٥) العطن: هو مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت (فتح الباري ٣٩/٧) فتح الباري ٤١/٧ مسلم ١٦٣/١٥.

(*) لا يعني هذا أن أقوال عمر أولى من أقوال أبي بكر رضي الله عنهما. فمن المعلوم أن فضل أبي بكر مقدم على فضل عمر بالأحاديث الواردة في ذلك (انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة).

وأخرج البخاري بسنده[1] أن عمر بن الخطاب استأذن على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه[2] عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. قال عمر: فأنت أحق أن يَهَبْنَ يا رسول الله. ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهَبْنَني ولا تَهَبْنَ رسول الله ﷺ؟فقلن: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لِقِيكَ الشَّيْطانُ سَالِكاً فَجاً قَطُّ إلَّا سَلكَ غَيْر فَجِّك[3].

وقال عبد الله بن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[4].

وقال عليه الصلاة والسلام: (لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون[5] فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر)[6]. وقال عليه الصلاة والسلام: (بينا أنا نائم رأيت الناسَ عرضوا عليّ وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض عليّ عمر وعليه قميص اجترّه. قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: الدّين)[7].

وإضافة لما تقدم من فضائل لعمر رضي الله عنه فإن له أيضاً موافقات في قضايا هامة وافقه فيها التنزيل: فقد أخرج مسلم عن عمر رضي الله عنه قال: وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أُسارى بدر[7].

عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: (ما ترون في هؤلاء الأساري فقال أبو بكر: يا رسول الله بنو العم وبنو العشيرة والإخوان غير أنا نأخذ منهم الفداء فيكون لنا قوة على المشركين، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، ويكونوا لنا عضداً، قال: فما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدهم فنقربهم فنضرب أعناقهم قال: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. وأخذ منهم الفداء، فلما أصبحت غدوت على

---

(١) فتح الباري ٤١/٧. (٢) يستكثرنه: يطلبنه زيادة النفقة.
(٣) فتح الباري ٤١/٧ وانظر مسلم للنووي ١٥، ١٦٤، ١٦٥.
(٤) محدَّث: ملهم. الذي ألقى في روعه من قبل الملأ الأعلى.
(٥) فتح الباري ٤٢/٧، وانظر مسلم للنووي ١٦٦/١٥.
(٦) فتح الباري ٤٣/٧ وانظر مسلم ١٥٩/١٥ وانظر أعلام الموقعين ١٤٦/٤.
(٧) مسلم بشرح النووي ١٦٧/١٥.

رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان. قلت يا نبي الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت وإلا تباكيت لبكائكما. فقال: لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من الشجرة وشجرة قريبة حينئذ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[1] أخرجه مسلم[2].

وجاء أيضاً في فضل عمر رضي الله عنه ما رواه الأشعث عن الشعبي قال:[3] إذا اختلف الناس في شيء فانظروا فيه كيف قضى عمر، فإنه لم يكن يقضي عمر في أمر لم يقض فيه قلبه حتى يشاور[4].

وقال مجاهد: إن اختلف الناس في شيء فانظروا ما صنع عمر فخذوا به. وقال أيوب عن الشعبي: انظروا ما اجتمعت عليه أمة محمد ﷺ فإن الله لم يكن يجمعها على ضلالة، فإذا اختلفت فانظروا ما صنع عمر بن الخطاب فخذوا به[4]. وسئل عكرمة عن أم الولد فقال: تعتق بموت سيدها، قيل له بأي شيء تقول؟ قال بالقرآن، قال: بأي القرآن؟ قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[5]وعمر رضي الله غنه من أولي الأمور. وقال وكيع: إذا اجتمع عمر وعليّ على شيء فهو الأمر[4].

وهكذا فقد بسطنا القول عن حجية قول صحابة رسول الله ﷺ بصفة عامة، وعن حجية قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصفة خاصة، وهذا فيه الكفاية لقطع الطريق أمام المرجفين من الحاقدين المتطاولين على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد نظر الله في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يقاتلون على دينه[6]. وبصفة خاصة الخلفاء الراشدون منهم الذين خصهم الرسول ﷺ ووصفهم بالراشدين لأنهم عرفوا الحق وقضوا به، ولأن الراشد ضد الغاوي، والغاوي هو الذي عرف الحق ولم يعمل به بل عمل بخلافه.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ثاني الخلفاء الراشدين، وأمير المؤمنين، وقوله أولى

---

(١) الأنفال آية ٦٧.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢٠٠/١ للطبري وانظر منهاج السنة لابن تيمية ١٦١/٣.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢٣٢.

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢٣٢. (٥) سورة النساء آية ٥٩.

(٦) قاله ابن مسعود رضي الله عنه. انظر منهاج السنة لابن تيمية ١٦٦/١ والمنتقى من منهاج الاعتدال.

بالحجية عن غيره من الصحابة[1]، ويضاف إلى ذلك أن عمر رضي الله عنه لم يكن يقطع أمراً دون مشورة الصحابة رضي الله عنهم فما اجتمعوا عليه في عصره فلا شك أنه الحق، ولو خالف بعد ذلك مخالف.

ومما لا شك فيه أنْ عمر رضي الله عنه لم يمت حتى وضع الأمور في مواضعها تماماً وذلك لطول خلافته وتفرغه للحوادث واهتمامه بها.

وخلاصة القول أن حجية أقوال الصحابة ثابتة بصفة عامة بالكتاب والسنة والإجماع، وبصفة خاصة قول عمر رضي الله عنه. وسنفصل الحديث فيما يلي عن (اجتهادات عمر وأثرها على تبليغ الدعوة الإسلامية).

---

(١) إن لم يكن فيهم أبو بكر رضي الله عنه فقوله أولى من قول عمر والاحتجاج به عملا بالنصوص المقدمة.

الفصل الثاني

بعض اجتهادات عمر وآثارها في نشر الدعوة

تمهيد

تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً:

لغة: الاجتهاد في اللغة مأخوذ من الجَهد ـ بفتح الجيم وضمها ـ وهو الطاقة. وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[1]. والجَهد بالفتح المشقّة يقال جَهَدَ دابته وأجهدها إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها. وجَهَد الرجل في كذا أي جد فيه وبالغ وبابهما قَطَعَ. وجهد الرجل على ما لم يسمّ فاعله فهو مجهود من المشقة. وجاهد في سبيل الله مجاهدة وجهاداً، والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود[2].

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في ستة مواضع[3] كلها تدل على الاجتهاد وهو بذل الوسع والطاقة، والمبالغة في اليمين وقد عرفه الدواليبي[4] بأنه استفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور.

اصطلاحاً: وقد اختلف الفقهاء في التعريف بالاجتهاد ومفهومه العام، فمنهم من عرفه: أنه بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بالنظر المؤدي إليها،[5] ومنهم من قال: هو طلب الصواب بالأمارات الدالة عليه، قال ابن السمعاني: هي أليق

---

(١) سورة التوبة آية ٧٩.

(٢) مختار الصحاح ص ١١٤ وانظر القاموس المحيط باب الدال فصل الجيم ١/٢٩٦ وانظر لسان العرب ١/٥٢١ ط بيروت.

(٣) في سورة التوبة الآية ٧٩، وفي المائدة آية ٥٣، وفي الأنعام آية ١٠٩ وفي النحل آية ٣٨، وفي النور آية ٥٣، وفي فاطر آية ٤٢.

(٤) المدخل إلى علم أصول الفقه معروف الدواليبي ص ٥٢.

(٥) نفسه.

بكلام الفقهاء. ومنهم من أخذ الظن في تعريفه لأنه لا اجتهاد في القطعيات، فعرفه بأنه استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي، ومن هؤلاء كل من الآمدي، والمحلي، وابن الحاجب[1].

وقد عرفه الخضري[2] بقوله: الاجتهاد بذل الجهد في استنباط الحكم الشرعي مما اعتبره الشارع دليلاً وهو كتاب الله وسنة نبيه وهو نوعان:

النوع الأول: أخذ الحكم من ظواهر النصوص إذا كان محل الحكم مما تتناوله تلك النصوص.

النوع الثاني: أخذ الحكم من معقول النص بأن كان للنص علة مصرح بها أو مستنبطة ومحل الحادثة مما يوجد فيه تلك العلة والنص لا يشمله وهذا هو المعروف بالقياس[3].

شروط المجتهد: وللمجتهد شروط لا بد من توفرها حتى يكون مجتهداً هي: ـ

١ ـ أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسنة فإن قصر في أحدهما لم يكن مجتهداً، ولا يشترط معرفته بجميع الكتاب والسنة بل يكفي ما يتعلق منها بالأحكام.

٢ ـ أن يكون عارفاً بالمسائل المجمع على حكمها حتى لا يفتي بخلاف ما وقع الإجماع عليه.

٣ ـ أن يكون عالماً بلسان العرب وأن تثبت له الملكة اللغوية في علوم العربية بحيث يمكنه تفسير ما ورد بالكتاب والسنة من الغريب ونحوه ويتمكن من معرفة معانيها وخواص تركيبها.

٤ ـ أن يعرف علل الأحكام ومسالكها وطرق استفادتها من الأدلة، وأن يكون عارفاً بالناسخ والمنسوخ وبعلم أصول الفقه فإن هذا العلم هو عماد الاجتهاد وأساسه، ويقول الغزالي: إن أعظم علوم الاجتهاد تشتمل على ثلاثة فنون... الحديث، واللغة، وأصول الفقه...

٥ ـ أن يكون بالغاً عاقلاً عدلاً...

---

(١) مناهج الاجتهاد في الإسلام د. محمد سلام مدكور ص ٣٣٣، ٣٣٨.
(٢) تاريخ التشريع للشيخ محمد الخضري بك ص ٨٧. (٣) نفسه.

٦ ـ أن يكون مسلماً[1]...

حكم الاجتهاد التكليفي:

الاجتهاد واجب بالنسبة لمن توافرت فيهم شروط الاجتهاد ـ السابق ذكرها ـ وقالوا: إنه يندب افتراض المسائل قبل حدوثها، واستنباط حكمها حتى يمكن مواجهة الأحداث والاحتياط للنوازل. ويكون الاجتهاد حراماً إذا كان في مقابلة نص قَطْعي أو إجماع ثابت بطريق التواتر، كما يكون حراماً إذا كان صادراً ممن هم ليسوا من أهل الاجتهاد، أو كان نتيجة التشهي والغرض[2].

أدلة وجوب الاجتهاد من الكتاب والسنة: ـ

من الكتاب: قول الله تعالى: ﴿فاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبصار﴾[3] وعنى بالأبصار هنا أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون.[4].

وقوله تعالى: ﴿فإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ﴾[5] يقول القرطبي[6]: أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى الرسول بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ﷺ، ... وقيل: المعنى قولوا الله ورسوله أعلم، فهذا هو الرد... والقول الأول أصح، لقول عليّ رضي الله عنه: ما عندنا إلا ما في كتاب الله وما في هذه الصحيفة، أو فهْمٌ أُعْطِيَهُ رجل مسلم. ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذي خص به هذه الأمة والاستنباط الذي أعطيها وقوله ﴿... وَلَوْ رَدُّوهُ إلَى الرَّسُولِ وَإلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم﴾[7] وقد استنبط عليٌّ رضي الله عنه مدة أقل الحمل ـ ستة أشهر ـ من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾[8] وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[9] فإذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهراً بقيت ستة أشهر... ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾[10] وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتَ

---

(١) انظر منهاج الاجتهاد في الاسلام د. محمد سلام مدكور من ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥ باختصار عن الموافقات للشاطبي.

(٢) منهاج الاجتهاد ص ٣٣٩.
(٣) سورة الحشر آية ٢.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/٣١.
(٥) سورة النساء آية ٥٩.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٨٣١ ـ ١٨٣٢
(٧) سورة النساء آية ٨٣.
(٨) سورة الأحقاف آية ١٥.
(٩) سورة البقرة آية ٢٣٣.
(١٠) سورة الروم آية ٢٨.

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] . وكل هذه الآيات كما تقدم تفيد وجوب الاجتهاد والاستنباط من الكتاب والسّنة.

من السنة:

قول رسول الله ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)[2].

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذ بن جبل رضي الله عنه قاضياً إلى اليمن قال له: (كيف تقضي إذا عَرَضَ لك قضاء)؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: (فإن لم تجد في كتاب الله)؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: (فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله)؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو[3] فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: (الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله)[4]، وينقل الشوكاني[5] عن بعض العلماء أن الاجتهاد في حق العلماء على ثلاثة أضرب: فرض عين، فرض كفاية، وندب.

---

(١) سورة يونس آية ٢٤.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري حديث ٧٣٥٢، أبو داود حديث ٣٥٧٤، ومسلم في الأقضية حديث ١٧١٧ وابن ماجة في الأحكام حديث ٢٣١٤.

(٣) لا آلو: أي لا أقصر في الاجتهاد ولا أترك بلوغ الوسع فيه (أبو داود ١٩/٤ بالهامش).

(٤) سنن أبي داود حديث ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام حديث ١٣٢٧ وقال: (ليس إسناده عندي بمتصل).

(٥) منهاج الاجتهاد د. محمد سلام مدكور عن إرشاد الفحول ص ٢٥١.

المبحث الأول

عدم تقسيم أرض السواد بين المحاربين وأثره على نشر الدعوة

ما هي أرض السواد؟

١ ـ السواد في اصطلاح التاريخ الإسلامي يقصد به الأرض الواقعة ما بين دجلة والفرات في جنوب الموصل، جاء أول ذكر له بعد فتح العراق في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد عرفه الماوردي[1] بقوله: وهذا السواد يشار به إلى سواد كسرى الذي فتحه المسلمون في عهد عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه من أرض العراق سمي سواداً لسواده بالزرع والأشجار، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، كانوا إذا خرجوا من أرضهم إليه ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار، وهم (أي العرب) يجمعون بين الخضرة والسواد بالأسامي كما قال الفضل بن العباس وكان أسود اللون: وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من نسل العرب.

وأرض السواد مما فرض عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخراج ولم يجعلها قسمة بين المحاربين، عَيَّنَ أبو عبيد في كتابه (الأموال) حدود السواد كما يلي (ويقال إن حدود السواد الذي وقعت عليه المساحة: من لدن تخوم الموصل مَارّاً على الماء إلى ساحل البحر عند عبادان شرق دجلة، هذا طوله، وأما عرضه فحده منقطع الجبل من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب، فهذه حدود السواد وعليه وقع الخراج[2].

٢ ـ بلغ دخل خراج السواد في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عام ٢٠ هـ) ١٢٠

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت: ٤٥٠هـ).
(٢) القاموس الإسلامي ٥٤٦/٣.

مليون درهم[1] وفي ولاية الحجاج (حول عام ٨٥ هـ) ١٨٨ مليون درهم، وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (حول عام ١٠٠ هـ) ١٢٠ مليون درهم[2].

أولاً: عدم تقسيم عمر لأرض السواد:

١ ـ قول عمر والصحابة رضي الله عنهم:

لعل من أبرز المسائل الاجتهادية والوقائع التي حدثت في عهد الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي ﷺ، هي قضية قسمة الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة في العراق وفي الشام وفي مصر[3] والتي تسمى أرض السواد[4] فقد كان الحكم في الأرض التي تفتح عنوة على عهد رسول الله ﷺ أن تقسم بين المقاتلين على اعتبارها غنيمة[5] بعد أخذ خمسها للدولة لتكون ملكية عامة للمسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في خيبر، فعن ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال. وكانت مما أفاء الله على رسوله، فخمّسها رسول الله ﷺ، وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها، ويكن ثمرها بيننا وبينكم، وأقركم كما أقركم الله. قال: فقبلوا الأموال على ذلك[6].

فلما كان عهد عمر رضي الله عنه لم يقسم الأرض التي فتحوها عنوة بين المقاتلين بل وزعها على مزارعي هذه البلاد ليزرعوها ويدفعوا خراجها[7] وذلك لمصلحة رآها رضي الله عنه للإسلام والمسلمين.

فقد ذكر أبو يوسف[8] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار الناس في السواد حين

---

(١) جاء في كتاب الخراج ص ٢٦ وما بعدها: . . فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مائة ألف ألف درهم عام ٢٢هـ.

(٢) القاموس الإسلامي ٣/ ٥٤٦. (٣) المدخل إلى علم أصول الفقه ص ٩٢.

(٤) أرض السواد: أي أرض القرى (مختار ص ٣٢٠) وسميت سواد لشدة سواد أرضها بالخضرة.

(٥) الغنيمة: ما أخذه المسلمون من مال الحربي الكافر قهراً بالقتال (موسوعة فقه عمر ص٥٢٢).

(٦) الأموال لأبي عبيد ص ٥٥ فقرة ١٤١، زاد المعاد ٦٨/٢ شرح السير الكبير للشيباني ١٠٣٩/٢، موسوعة فقه عمر ص ٦٢.

(٧) الخراج: الأتاوة (مختار ص ١٧٢) وهو ما يفرضه الإمام من ضريبة على أراضي أهل الذمة (موسوعة فقه عمر ص ٢٩٥).

(٨) الخراج ص ٢٨ وما بعدها، موسوعة فقه عمر ص٦٣.

افتتح، فرأى عامتهم أن يقسمه، وكان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك، وكان رأي عمر رضي الله عنه أن يتركه ولا يقسمه. فقال: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه، ومكثوا في ذلك يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ثم قال عمر رضي الله عنه: إني قد وجدت حجة، قال الله تعالى في كتابه: ﴿ومَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ، فَمَا أَوْجَفْتُمْ[1] عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ حتى فرغ من شأن بني النضير، فهذه عامة في القرى كلها ثم قال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّه عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً[2] بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم، وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّه شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ثم قال ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم، فقال: ﴿والذين تبوّءوا[3] الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون[4] على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[5]، ومن يوق شح[6] نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

فهذا فيما بلغنا والله أعلم للأنصار خاصة ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾[7] فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم، فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه.

يقول ابن تيمية[8]: فذكر سبحانه وتعالى المهاجرين والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم على ما وصف، فدخل في الصنف الثالث كل من جاء على هذا الوجه إلى يوم القيامة، كما دخلوا في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك

---

(١) أوجفتم: سيرتم نحوه خيلا (السياسة الشرعية ٤٣).

(٢) دولة: أي مالا متداولاً (السياسة الشرعية ٤٣).

(٣) تبوّءوا الدار: حلوا فيها وأقاموا.

(٤) يؤثرون على أنفسهم: أي يفضلون غيرهم على أنفسهم.

(٥) خصاصة: فقر.

(٦) شح نفسه: يراد به سلامة نفسه من البخل والشح (انظر السياسة الشرعية ابن تيمية ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٧) سورة الحشر آية ٦ ـ ١٠. (٨) السياسة الشرعية ص ٤٤.

منكم﴾[1] وفي قوله: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾[3]. وما حدث في سواد العراق حدث أيضاً في مصر بعد فتحها.

يقول أبو عبيد[4] لما افتتحت مصر بغير عهد قام الزبير، فقال: يا عمرو بن العاص، اقسمنّها. فقال عمرو: لا أقسمها. فقال الزبير: لتقسمنّها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر. فقال عمرو: لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إلى عمر. فكتب إليه عمر: أن دعها حتى يغزوا مثلها حَبَلُ الحَبَلة. قال أبو عبيد: أراه أراد: أن تكون فيئاً موقوفاً للمسلمين ما تناسلوا، يرثه قرن عن قرن، فتكون قوة لهم على عدوهم.

ويقول أيضاً: ما أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال[5].

وذكر أبو عبيد أيضاً: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لولا آخر الناس ما افتتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر[6].

مشاورة عمر للصحابة رضي الله عنهم.

رأي المهاجرين:

ذكر أبو يوسف[7]: أن عمر رضي الله عنه شاورهم في قسمة الأرضين التي أفاء الله من المسلمين من أرض العراق والشام، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا. فقال عمر رضي الله عنه: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأي. فقال له عبد الرحمن بن

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٥. (٢) سورة التوبة آية ١٠٠.
(٣) سورة الجمعة آية ٣.
(٤) الأموال ص ٥٨ فقرة ١٤٩ وانظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٨٨، وانظر حسن المحاضرة للسيوطي ١/١٢٢.
(٥) الأموال فقرة ٥٢٤.
(٦) الأموال فقرة ١٤٣، يحيى بن آدم فقرة ١٠٦، ١٠٧، موسوعة فقه عمر ص ٦٣.
(٧) الخراج ص ٢٦ وما بعدها، والمجددون في الاسلام ص ٣٢ ـ ٣٣، المدخل إلى علم أصول الفقه للدواليبي ص ٩٣ ـ ٩٥.

عوف رضي الله عنه: فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج[1] إلا مما أفاء الله عليهم فقال عمر: ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك، والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلاًّ[2] على المسلمين. فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق؟ فأكثروا على عمر رضي الله عنه وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر رضي الله عنه لا يزيد على أن يقول: هذا رأي قالوا: فاستشر. فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا أما عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم، ورأى عثمان وعليّ وطلحة وابن عمر رضي الله عنهم رأي عمر[3] حيث قال عليّ رضي الله عنه: دعهم يكونون مادة للمسلمين، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: والله إذاً ليكونن ما نكره، إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدّون في الإسلام مسدًّا[4] وهم لا يجدون شيئاً، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم[5].

هكذا كانت آراء المهاجرين بين موافق لرأي عمر رضي الله عنه ومختلف معه، وانظر إلى الصحابيين الجليلين عليّ بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حيث يقول عليّ رضي الله عنه دعهم يكونون مادة للمسلمين، لأنه رضي الله عنه رأى أن الأرض لو قسمت بعلوجها فمن يمد المسلمين وجيوش المسلمين؟ وكان رأي معاذ رضي الله عنه أكثر تفصيلاً عندما قال: إنك لو قسمتها صار الريع العظيم في أيدي هؤلاء القوم ثم يبيدون فيصير ذلك - أي الريع العظيم - إلى الرجل أو المرأة ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون في الإسلام مسدا، وهم لا يجدون شيئا!! فما أبدع ما يقول فهو ينكر على الناس أن تصبح أراضي الله الواسعة في يد شخص واحد فقط من رجل أو امرأة الأمر الذي يعطل تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله.

---

(١) العلوج: جمع علج: وهو الواحد من الكفار (مختار ص ٤٤٩).

(٢) الكل: الثقل (مختار ص ٥٧٦).

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦ وما بعدها، المجددون في الإسلام ص ٣٢ - ٣٣.

(٤) أي يكون لهم في الاسلام بلاء حسن.

(٥) الأموال فقرة ١٥١ - ١٥٢ وانظر فتح الباري ٦/١٣٨ وانظر المدخل إلى علم أصول الفقه ص ٢٢٣ وما بعدها.

رأي الأنصار:

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم. فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق، قالوا: قل نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد سمعتم كلام هؤلاء الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم. وإني أعوذ بالله أن أركب ظلماً. لئن ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت. ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال[2] بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين، المقاتلة والذرية، ولمن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور؟ لا بد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟[3] فقالوا جميعاً: الرأي رأيك. فنعم ما قلت وما رأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكوفة إلى مدنهم.[4]

فقال: قد بان لي الأمر، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا على عثمان بن حنيف، وقالوا: تبعثه إلى أهل ذلك، فإن له بصراً وعقلاً وتجربة، فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد، فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر رضي الله عنه بعام مائة ألف درهم[5].

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٢٧ وما بعدها.

(٢) أي الأموال المنقولة أما الأموال غير المنقولة وهي الأرضون فقد رأى حبسها عنهم.

(٣) جمع علج وهو الفلاح.

(٤) أي الفرس الذين هزموا وفروا أمام ضربات المسلمين.

(٥) الخراج لأبي يوسف ٢٧ وما بعدها، والمجددون في الاسلام عبد المتعال الصعيدي ص ٢٣ وما بعدها، والأموال ص ٦٠ ـ ٦١، تاريخ التشريع للخضري ص ٩٣ وما بعدها، والمدخل الى علم أصول الفقه ص ٩٣ وما بعدها.

قول الأئمة:

يقول ابن تيمية: الأقوال في هذا الباب ثلاثة:
إما وجوب قسم العقار كقول الشافعي.
وإما تحريم قسمه ووجوب تحبيسه كقول مالك.

وإما التحيز بينهما. كقول الأكثرين: الثوري، وأبي حنيفة، وأبي عبيد. وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد، وعنه كالقولين الأولين[1].

وليس فعل النبي ﷺ في تقسيم أراضي خيبر برادٍّ لفعل عمر رضي الله عنه، ولكن النبي ﷺ اتبع آية من كتاب الله تبارك وتعالى فعمل بها، واتبع عمر آية أخرى فعمل بها، وهما آيتان محكمتان فيما ينال المسلمون من أموال المشركين[2].

وكان اجتهاد عمر في ذلك بيان وتفسير للنصوص على ضوء المصلحة العامة للمسلمين. وقد عمل مخالفوه على أن يفهموا النصوص على ضوء المصلحة العامة التي هي غاية الشريعة، وبها صلاح الناس[3] وكان رأيه رضي الله عنه سديداً وسكت المخالفون اتباعاً للرأي الغالب[4].

قول أبي يوسف:

قال أبو يوسف[5]: والذي رأى عمر رضي الله عنه من الامتناع عن قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرّفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك، وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد، ولما أمن رجوع أهل الكفر[6] إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة والله أعلم بالخبر حيث كان[7].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠.
(٢) موسوعة فقه عمر ص٦٣.
(٣) المدخل إلى علم أصول الفقه للدواليبي ص ٩٦.
(٤) تاريخ التشريع للخضري ص ٩٥.
(٥) الخراج ص ٢٩.
(٦) أي الفرس والروم.
(٧) الخراج لأبي يوسف ص ٢٩.

الترجيح بين الأقوال:

والذي أرى: أن الرأي الذي يقول بعدم تقسيم الأرض بين الغانمين هو الرأي الأرجح للأسباب الآتية:

أولاً: أن عمر رضي الله عنه استنبط الحكم الشرعي لعدم تقسيم الأرض من فقهه للآية ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم. . .﴾ الآية[1].

ثانياً: أن عمر رضي الله عنه خليفة راشد.
ثالثاً: أنه إجماع لرأي الأنصار العشرة الذين استشارهم عمر رضي الله عنه.
رابعاً: رجوع المخالفين له إلى رأيه وانعقاد الإجماع على ذلك.
خامساً: أنه رأى جمهور الفقهاء أبو حنيفة، مالك، أحمد، الثوري، وأبو عبيد، وأبو يوسف.

وقد كان لاجتهاد عمر رضي الله عنه في عدم تقسيم أرض السواد بين الفاتحين آثار جمة على نشر الدعوة الإسلامية سوف نبحثها في الصفحات التالية.

ثانياً: أثر عدم تقسيم أرض السواد بين الغانمين على نشر الدعوة الإسلامية:

مما لا شك فيه أنه توجد آثار بالغة الأهمية لصالح الدعوة الإسلامية نتجت من عدم تقسيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأرض السواد بين الغانمين نذكر منها: ـ

القضاء نهائياً على نظام الإقطاع:

لقد بلغ التمييز الطبقي مداه في دولة الفرس والروم، حتى فَرخ فيها وباض إلى أن عافاهما الله منه بالفتح الإسلامي.

ففي دولة الرومان:[2]

---

(١) سورة الحشر آية ٦.

(٢) الروم: هو الاسم الذي أطلق في المراجع العربية والاسلامية على الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية التي كانت القسطنطينية أو بيزنطة عاصمة لها، وكانت في الوقت ذاته عاصمة للحضارة الأوروبية المسيحية التي امتد رواقها الى آسيا الصغرى والشام ومصر وشمال افريقيا واستمدت جذورها من الحضارة اليونانية القديمة التي امتزجت بالتقاليد المسيحية فكان من مراكز هذه الحضارة بالإضافة إلى القسطنطينية دمشق وإنطاكية والإسكندرية (القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله ٢/ ٦٠٣.

بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية الشرقية، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الأتاوات[1] وتضاعفت الضرائب. حتى أصبح أهل البلاد بتذمرون من الحكومات. ويمقتونها مقتاً شديداً. ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية.[2]

ففي بلاد الشام:

كان يقضي على الشعب الشامي أن يؤدي الجزية وعشر غلاته وأتاوة من المال ورسماً على كل أرض...[3]

وكان نظام الطبقات هو السائد. فطبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط...

وطبقة الفلاحين والصناع... الخ كانوا في جهد العيش يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والأتاوات. لاحظ لهم في الحياة إلا العمل لغيرهم فهم يعيشون عيش البهائم[4].

وقد أضاعت الحكومة الرومانية فلاحيها ولم تستطع أن تسترجعهم لرزوحهم تحت عبء الضرائب الباهظة الذي وضعته على عاتقهم الحكومة فساءت الحال جداً وصار كل إنسان يحسب ذاته سناً صغيراً في الدولة فكأنه وجد ليعمل للحكومة التي تسلبه ثمرة جده وسعيه، ولا تترك له شيئاً إلا ما يسد به الرمق فصارت حالته كحالة فلاح وادي النيل الذي عاش فيه آلاف السنين.[5].

وفي مصر:

فقد اتخذها الروم شاة حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها، ويمتصوا دمها[6].

ويقول أَلْفِرد: إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة التعدد.. ومما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل[7].

---

(١) الأتاوة: هي الخراج. والجمع: الأتاوى (مختار ص ٥).
(٢) ماذا خسر العالم للندوي ص ٣٩ عن الموسوعة البريطانية.
(٣) المصدر السابق ص ٨٤ عن خطط الشام للأستاذ كردي على ٤٧/٥.
(٤) السابق بتصرف.
(٥) كتاب العصور القديمة د. جايمس هنري براستد نقله للعربية داود قربان ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ طبعة عام ١٩٢٦م.
(٦) ماذا خسر العالم ص ٤٢. (٧) السابق ص ٤٢ عن فتح العرب لمصر ص ٤٧.

إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعاً كبيراً من حاصلاتها ومنتجاتها، وكانت طبقات الفلاحة المصرية ـ مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ ـ مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومانية ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط[1].

إن حكومة مصر(الرومانية) لم يكن لها إلا غرض واحد، هو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلّو بهم في الحياة...[2].

فكانت ضرائب قياصرة الروم باهظة على المصريين الذين ذاقوا الأمّرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى[3] الأمر الذي جعلهم يرحبون بالمسلمين حتى يتخلصوا من ظلم الحكم البيزنطي[4].

وقد وصف عمرو بن العاص رضي الله عنه فداحة الضرائب التي كانت تفرضها الدولة الرومانية على المصريين في رسالة كتبها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء فيها: ... فإذا تكامل في زيادته[5] نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته، وطما في درَّته[6] فعند ذلك تخرج أهل ملّة محقورة، وذمّة مخفورة[7]، يحرثون الأرض، ويبذرون الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم[8].

ومعنى قول عمرو بن العاص رضي الله عنه: أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، أن الرومان كانوا يحقرونهم ـ أي المصريين ـ ويمتهنونهم ويستذلونهم، ولا يرعون لهم عهداً ولا ذمة، وكذا قوله: لغيرهم ما سعوا من كدهم: أي أنهم كانوا يكدون ـ أي المصريون ـ

---

(١) السابق ص ٤٢ عن مؤلفي تاريخ العالم ص ١٧٣.

(٢) ماذا خسر العالم ص ٧٦ ـ ٧٧ عن كتاب فتح العرب لمصر، «ألفرد ج. تيلر» تعريب محمد فريد أبو حديد.

(٣) حضارة العرب، «جوستاف لوبون» نقله للعربية عادل زعيتر ص ١٣٥ بتصرف.

(٤) الدعوة إلى الإسلام «للسير توماس و. أرنولد» ص ١٢٣ ترجمة د. حسن ابراهيم.

(٥) أي نيل مصر.

(٦) نكص: رجع، وطمى الماء يطمو ويطمي: علا، والدرة بالكسر: اسم من الدرر بالفتح، والمعنى في زيادته وفيضه (رسائل العرب ص ٢١١ هامش ٧).

(٧) خفر به كضرب: نقض عهده وعذره كأخفر.

(٨) رسائل العرب ١/٢١١/٢١٢.

في حرث الأرض وزرعها ثم يستحوذ الرومان على محصولها، وقد ذكر المؤرخون أن أهل مصر في آخر الحكم الروماني كانوا بمثابة آلات لإنبات القمح وأن مصر كانت مزرعة تصدره إلى رومة[1].

وفي العراق:

يقول مؤلف (إيران في عهد الساسانيين): كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخراجها مقدرين مضبوطين. . .[2].

فقد أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له، وفشت في الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب[3].

فكان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم، وكانوا يستخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل، يقول المؤرخ «اميان مارسيلينوس» إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنهم قد كتب عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة[4].

وكانت طبقات الفلاحين والصناع والتجار تفرض عليهم الضرائب الباهظة وسن القوانين الجديدة لابتزاز أموالهم[5] فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والحصاد[6].

فلما فتح الله على المسلمين هذه البلاد ألغى عمر رضي الله عنه كل هذه الأوضاع الإقطاعية الظالمة التي احتكرت كل الأرض لصالحها واستعبدت الفلاحين لزراعتها مجاناً. بأن ترك أرض السواد في أيدي فلاحيها يزرعونها مقابل خراج عادل يطيقونه يدفعونه كل عام، الأمر الذي جعل هؤلاء الفلاحين من العرب وغير العرب بل والفرس

---

(١) نفسه ٢١٢/١ هامش ١.
(٢) ماذا خسر العالم ص ٧٨ عن ايران في عهد الساسانيين ص ١٦٠.
(٣) نفسه ص ٧٩.
(٤) نفسه ص ٨٠.
(٥) نفسه ص ٨٣ بتصرف.
(٦) نفسه ص ٨٦.

أنفسهم، ممن لم يقاوموا الفاتحين ولم يقوموا في وجوههم يثقون بأن حكم المسلمين لم ينل مصالحهم المادية بأذى، وبإقامة العدل بين الأهلين يطمئن المحكومين ويستريحون إلى سلطان المسلمين الذي جعلهم ملاكاً للأرض بعد أن كانوا عبيداً يزرعونها بالمجان. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما هو معروف عنه دائماً لا يتخذ قراراته إلا بعد التأكد والتمحيص والمشاورة فقد بعث خبراء مسح الأرض إلى هذه الأمصار كي يقفوا على حقيقتها توطئة لوضع الحراج الذي يتناسب ونوعها، وكان من بين هؤلاء عثمان بن حنيف، وحذيفة بن اليمان حيث كانا خبيرين في مسح الأرضين، فلما مسحاها، وأتيا إلى عمر رضي الله عنه سألهما: كيف وضعتما على الأرض، لعلكما كلفتما أهل عملكما ما لا يطيقونه؟ فقال حذيفة: لقد تركت فضلاً. وقال عثمان: لقد تركت الضعف، وكان عثمان بن حنيف عاملاً على شط الفرات، وحذيفة على ما وراء دجلة.

وكان عمر رضي الله عنه يوصي بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم[1] عملاً بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه[2]) وكان عمر رضي الله عنه دائم النصح لعماله بمراعاة أهل الذمة وعدم تكليفهم ما لا يطيقونه. وفي هذا يقول المستشرق «ليون»: فلما دخل ـ أي عمر ـ القدس أبدى التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة عليهم[3].

وقد اغتبط الفلاحون بقرار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتمليكهم الأرض الزراعية يزرعونها مقابل دفع الخراج العادل الذي يستطيعونه مما جعلهم يشعرون لأول مرة في حياتهم أنهم أصحاب الأرض التي يزرعونها. وقد كانوا في ظل حكم فارس والروم لا يملكون شيئاً بل كانت كل الأرض الزراعية ملكاً للإقطاعيين من الطبقة الحاكمة، وكان الفلاحون مجرد أجراء يزرعونها بدون مقابل. وكان تعبهم وكدهم يذهب إلى جيوب الطبقة الإقطاعية طبقة ملاك الأرض ولا يتركون لهم إلا الفتات.

تلك كانت حالة الفلاح البئيس في ظل الحكم البيزنطي والفارسي، وحالته السارة في ظل الحكم الإسلامي، الأمر الذي جعل هؤلاء الفلاحين ينتظرون بشوق ساعة الخلاص من حكامهم الظالمين حتى جاء الفتح الإسلامي فتح خير وبركة عليهم إذ

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٤٠ بتصرف. (٢) السابق ص ١٣٥.
(٣) حضارة العرب «غوستاف لوبون» ترجمة عادل زعيتر ص ١٥١.

خلصهم مما هم فيه وأصبحوا يساعدون المسلمين ضد الفرس والروم الأمر الذي جعل لتلك المساعدة أثراً كبيراً في قطع الطريق أمام عودة جيوش الفرس والروم المنهزمين إلى هذه البلاد مرة أخرى.

٢ ـ قطع الطريق على عودة جيوش الروم والفرس بعد طردهم:

لقد أدت سياسة عمر بن الخطاب الرشيدة في تمليك الأرض لفلاحي الأمصار المفتوحة عنوة إلى شعورهم بالرضا التام كما تقدم وهذا مما جعلهم يبغضون حكامهم من الفرس والروم ولا يقدمون لهم أية مساعدات بل كانوا على العكس من ذلك يقدمون المساعدات للمسلمين ضدهم. وفي هذا الصدد يقول المستشرق «برنا رولويس»:
لقد فضل سكان سورية ومصر المسيحيون الحكم الإسلامي على حكم البيزنطيين أصحاب العقيدة الرشيدة...)[1].

وجاء في الطبري[2] أن رستم دعا أهل الحيرة فقال: يا أعداء الله فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا وكنتم عيوناً لهم علينا وقويتموهم بالأموال...).

وقال ابن كثير[3]: وكان المقوقس صاحب الإسكندرية قبل ذلك يؤدي خراج بلده وبلد مصر إلى ملك الروم، فلما حاصره عمرو بن العاص جمع أساقفته وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن ملكهم ولا طاقة لنا بهم، والرأي عندي أن نؤدي الجزية لهم.

ثم بعث إلى عمرو بن العاص يقول له: إني كنت أؤدي الخراج إلى من هو أبغض إليّ منكم ـ يعني فارس والروم ـ ثم صالحه على أداء الجزية...

وكتب ملك الروم إلى مقوقس مصر يحرضه على قتال المسلمين بمصر وجاء في كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية، ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت

---

(١) العرب في التاريخ ص ٧٨ تعريب محمود يوسف زايد، نبيه أمين فارس.
(٢) تاريخ الطبري ١٠٠/٤ عن شعيب بن سيف.
(٣) البداية والنهاية ١٠٩/٧.

ومن معك من الروم في حال القبط وأولاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت؟..[1]

ولكن المقوقس لم يعط بالا لأوامر ملك الروم إليه بقتال المسلمين وراح يطلب من عمرو الأمان له ولأهل مصر من القبط ويقول له: ...وإنما سلطاني على نفسي ومن أعطاني، وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبلهم نقض، وأنا متم لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بريء...[2].

وطلب من عمرو أن يعطيه ثلاث خصال:

الأولى: لا تنقضنّ بالقبط، وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك، فهم متمون لك على ما تحب.

الثانية: فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيدا، فإنهم أهل لذلك...

وأما الثالثة: أطلب إليك إن أنا مت، أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنّس بالإسكندرية.

فأنعم إليه عمرو بن العاص وأجابه إلى ما طلب[3]. مما تقدم نرى إلى أيّ مدى كان سكان تلك البلاد يكرهون الروم والفرس لما لاقوه منهم، ومن جهة أخرى يساعدون المسلمين عليهم الأمر الذي أفقدهم الأعوان وأدى إلى قطع الطريق على عودتهم ثانياً إلى حكم البلاد. وهذا يرجع إلى فضل الله أولاً ثم إلى السياسة العمرية البعيدة المدى التي تضع الأمور في نصابها لخدمة الدعوة الإسلامية.

٣ ـ مسارعة أهل الأمصار المفتوحة إلى الدخول في الإسلام:

ترتب على ما تقدم من تمليك الأرض للفلاحين الأمر الذي جعلهم يحسون لأول مرة في تاريخهم بأنهم أصحابها، نظير دفع خراج في استطاعتهم دفعه دون إكراه، أن سارعوا إلى الدخول في الإسلام الذي انتشر بينهم في سرعة مدهشة لم يسبق لها مثيل.

---

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي ١/١١٧.
(٢) السابق ص ١١٨. (٣) نفسه.

فقد رحب الفرس بالعرب (المسلمين)[1] حباً في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانياً، ثم أملاً في التمتع بالحرية الدينية آخر الأمر وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين وغيرهم أن يتدينوا بما يرضونه لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين[2].

يقول صاحب كتاب حضارة العرب: ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، لم يرد عمر أن يدخل في مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارة لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم[3].

واستطرد يقول: ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقل رفقاً من ذلك فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال وجزية سنوية ثابتة لا تزيد عن خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال.

وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمة العرب الذين أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة...[4].

ويستشهد أحد المستشرقين بأن المسيحيين قلما كانوا في عهد الفتوح الإسلامية الأولى

---

(١) ما بين القوسين غير مثبت بالأصل وأثبتناه لأهميته لأن الفتح إسلامي وليس عربياً.
(٢) تاريخ الاسلام السياسي د. حسن ابراهيم ١/٢٢٤.
(٣) البيعة هي: كنائس النصارى.
(٤) حضارة العرب ص ١٣٥.

يشكون مما يضعف من قوة دينهم[1].

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن أهل هذه البلاد كانوا يدخلون في الإسلام دون إكراه من أحد بل اختيارهم هم لما لمسوه في الإسلام من تسامح وخلق طيب من المسلمين، ومن المعاملة الحسنة التي عاملهم بها المسلمون.

وإن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من الجزية إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي[2]، وأن التسامح الإسلامي في البلاد المفتوحة يبطل فكرة انتشاره بالسيف..[3]

ويعزو الكاتب دخول عدد كبير من المسيحيين في الإسلام إلى عدة أسباب ذكر منها: عدم الضغط والتسامح بين المسلمين، ومعاملتهم بالقدوة الحسنة التي قال عنها القبط: الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية. ويرجع أيضاً إلى عجز الديانة المسيحية وفساد رجال الدين المسيحي[4].

ويقول المستشرق لوبون[5]: وأبدى العرب تسامحاً مثل هذا تجاه المدن السورية الأخرى كلها، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظلت سوريا بلداً عربياً إسلامياً كما كانت في أوائل الفتح العربي مع تداول كثير من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك.

وجاء في كتاب «تاريخ الإسلام»[6]: . . . ولم تكن القوة هي السبب في تحويل الناس إلى الإسلام بدليل المعاملة الحسنة التي عامل بها العرب ـ المسلمون ـ من بقي من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم، ولا تزال هناك بعض جماعات صغيرة من الفرس يعبدون النار، وكان أجدادهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية بعد الفتح الإسلامي، كما كانت الدولة الإسلامية تحول من دون التعرض لمعابدهم.

وبعد: فلا بد لنا من وقفة قصيرة أمام كلمة (العرب) التي تكررت كثيراً على لسان بعض المستشرقين ولا سيما المستشرق لوبون. فنحن لا نوافقه إطلاقاً على ترديد كلمة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام «توماس ارنولد» ترجمة حسن ابراهيم ص ٧٧.
(٢) السابق ص ٨٠. (٣) السابق.
(٤) السابق بتصرف من ١٢٤ ـ ١٢٨.
(٥) حضارة العرب د. غوستاف لوبون ص ١٥١.
(٦) تاريخ الإسلام السياسي ١/٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(العرب) ويجب أن ترد الكلمة إلى أصلها الصحيح وهي كلمة (المسلمون) بدلا من كلمة (العرب) لأن الفتح ما كان أبداً فتحاً عربياً ولكنه فتح إسلامي محض. وبذلك نوهنا هنا حتى لا تتكرر الكلمة من بعض الكتاب المسلمين.

٤ ـ تدبير الأموال لحماية الثغور:

الثغور في اللغة جمع ثغر: والثَّغْر: ما تقدم من الأسنان وهو أيضاً موضع المخافة من فروخ البلدان. والثُّغر: الثُّلمة[١].

وفي الاصطلاح: الثغور كذلك أطراف البلدان التي يخشى عليها خطر الغزو براً أو بحراً، ويطلق العرب كلمة الثغور على المدن الحصينة لا سيما التي كانت تقع بالقرب من حدود الدولة الإسلامية المجاورة لبلاد الفرس والروم خاصة[٢].

وعندما امتدت الدولة الإسلامية صوب جهاتها الأربع انتقلت أسماء الثغور إلى ما وراء حدود الدولة في عصورها الأولى، ومن أهم الثغور الإسلامية ما كان يعرف بالثغور الفراتية والتي كانت تمتد على طول خط استراتيجي يفصل ما بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ومنها ثغور مرعش وملطية وطرسوس والهارونية وغيرها، وكانت الإسكندرية ودمياط من ثغور مصر الشمالية البحرية وأسوان من ثغورها الجنوبية[٣].

. . . وقد كان عمر اتخذ في كل مصرٍ على قدره خيولاً، من فضول أموال المسلمين، عدة لكون إن كان فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس[٤].

وكان في كل مصر من الأمصار الثمانية على قدرها[٥] أي أربعة آلاف فرس مثل الكوفة. فمن خلال هذا النص التاريخي نستطيع أن نقدر قوة الفرسان المرابطين في الأمصار الثمانية باثنين وثلاثين ألف فارس وهذا بخلاف قوات المشاة وأي قوات أخرى كالجمالة وخلافه وهذه خصصها عمر كجيش منظم لحماية ثغور المسلمين وأنه كفل أرزاقهم وصرفهم عن الاشتغال بأي شيء إلا الجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

فمن أين لعمر رضي الله عنه بالأموال لتجهيز هذه القوات وكفالة أرزاق أجنادها إن لم يدبرها من خراج الأرضين؟ وهذا السؤال وجهه رضي الله عنه لمعارضيه عندما قال[٥].

---

(١) مختار الصحاح ص ٨٤.
(٢) القاموس الإسلامي ١/٥٣٨.
(٣) القاموس الإسلامي ١/٥٣٨.
(٤) تاريخ الطبري ٤/١٩٥.
(٥) نفسه ٤/١٩٦.

. . . أرأيتم هذه الثغور؟ لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟[1].

فمن يدافع عن الدعوة الإسلامية إذا لم يشحن عمر الجنود إلى الثغور للمرابطة فيها لحماية الإسلام والمسلمين والدعوة الإسلامية؟

إن عمر الذي وقف صامداً في وجه أعدي أعداء الإسلام من الفرس والروم وأبى إلا نشر الدعوة الإسلامية في ربوع هذه البلاد، أبى تقسيم هذه الأرض على المقاتلين، وتركها ليأخذ خراجها ليستعين به على تجهيز الجيوش، وحماية الثغور في الأمصار المفتوحة خوفاً على الدعوة الإسلامية من أن يصيبها كيد الكائدين، ومكر الماكرين.

ويحسن بنا أن نبين هنا ما لحجم المبالغ الضخمة من الأموال التي جمعت من خراج الأرضين من فوائد جمة في تجهيز وتسليح وتعبئة الجيوش الإسلامية الجرارة التي استطاعت بفضل الله تعالى ثم بمهارتها القتالية الفائقة أن تغطي حاجة الدفاع عن جميع الثغور في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ومن جهة أخرى، تغطي أعمال الهجوم والزحف المقدس لجيوش الإسلام لفتح المزيد من الأمصار لنشر الدعوة الإسلامية فيها وتحرير شعوبها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام فقد جاء في كتاب الخراج أن جباية سواد الكوفة بلغ ألف ألف درهم[2] أي يساوي مليون درهم وهو مبلغ كبير في ذلك العصر، وقد جمع من الكوفة فقط.

وذكر ابن عبد الحكم أن خراج أرض مصر بلغ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة[3]. لقد كان لحجم هذه الأموال الدلالة على عظم حجم هذه الجيوش المرابطة في الثغور وهي على أقل تقدير اثنان وثلاثون ألف فارس. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجهز هذه الجيوش في كل مصر من الأمصار المفتوحة، ويعتبرها بمثابة قوة احتياطية للتدخل السريع طبقاً لما يصدر إليها من أوامر وتعليمات لصد أي هجوم مفاجىء للعدو، أو تكون كقوة نجدة لأي جيش إسلامي في حاجة إلى إمداد سريع.

يقول الطبري في هذا الصدد عن ذكر فتح حمص: . . . وقد كان عمر اتخذ في كل

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦.

(٢) نفسه ص ٢٨.

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠.

مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين[1] عدة لكون إن كان. فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك[2] أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به[3] وزاد ابن الأثير: . . وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي، وفي كل مصرٍ من الأمصار الثمانية على قدره، فإن تأتهم آتية ركبها الناس وساروا إلى أن يتجهز الناس[4].

وجاء في كتاب فتوح البلدان أن أنطاكيا كانت عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكيا جماعة من المسلمين أهل ثبات وحسبة، واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء[5]

وذكر ابن الأثير أن سعداً لما فرغ من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين، وكاتب عمرَ فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون من المسلمين في عيالاتهم[6].

وذكر المقريزي عن فتح الإسكندرية: . . . قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس، وربعاً في السواحل، والنصف مقيمين معه[7].

وفي الختام: فإن عمر رضي الله عنه بقضائه على الإقطاع وبتوزيع الأرض على الفلاحين، وبقطعه الطريق أمام عودة جيوش الفرس والروم بعد طردهم وبتدبيره للأموال لحماية ثغور المسلمين الأمر الذي جعل رعايا البلاد المفتوحة يسارعون إلى الدخول في الإسلام.

يتبين أن اجتهاد عمر في الأرض المفتوحة بعد هذا البيان كان له أكبر الأثر في نشر الدعوة الإسلامية.

---

(١) أي من أموال الخراج للأرض التي فتحها عنوة وجعل خراجها فيئاً للمسلمين.
(٢) هو سعد بن أبي وقاص. (٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤/١٩٥
(٤) الكامل في التاريخ ٢/٥٣٠ - ٥٣١ والخراج لأبي يوسف ص ٥١.
(٥) البلاذري القسم الأول ص ١٧٥
(٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٥٠١.
(٧) الخطط للمقريزي ١/١٦٧.

المبحث الثاني

المؤلفة قلوبهم

تمهيد:

ذكر الله تعالى المؤلفة قلوبهم في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[1].

فمن هم المؤلفة قلوبهم؟ ذكر الطبري: أن المؤلفة قلوبهم، هم من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً[2]، وقال بعض المتأخرين: اختلف في صفتهم، فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان.

وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم تستيقن قلوبهم، فيعطون ليتمكن الإسلام في صدورهم. وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء، فكأنه ضرب من الجهاد[3].

ويقول ابن كثير[4]: والمؤلفة قلوبهم أقسام: منهم من يعطي ليسلم كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عديّ حدثنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠.
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٦٢، القرطبي ٤/٣٠١٧.
(٣) تفسير القرطبي ٤/٣٠١٧ - ٣٠١٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٦.

أنه لأحب الناس إليّ، ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به.

وقال أيضاً: ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل وقال: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم.

وجاء في كتاب الأموال: أن المؤلفة قلوبهم: الذين يدخلون في الإسلام. وقيل: هم ناس كان يتألفهم الرسول ﷺ بالعطية: عيينة بن حصن، ومن كان معه والأقرع بن حابس[1].

قال أبو عبيد: والمعروف عند العامة في تأويل هذه الآية ـ المؤلفة قلوبهم ـ ما قال الحسن وابن جريج: إنهم الذين كانوا يتألفون بالعطية، ولا حسبة لهم في الإسلام...[2].

ويقول صاحب المغني[3]: والمؤلفة قلوبهم ضربان:

الضرب الأول: كفار ومسلمون، وهم جميعاً السادة المطاعون في قومهم وعشائرهم. فالكفار ضربان أحدهما من يرجي إسلامه فيعطي لتقوى نيته في الإسلام وتميل نفسه إليه فيسلم.

فإن النبي ﷺ يوم فتح مكة أعطى صفوان بن أمية الأمان، واستنظره صفوان أربعة أشهر لينظر في أمره، وخرج معه إلى حنين فلما أعطى النبي ﷺ العطايا قال صفوان: مالي؟ فأومأ النبي ﷺ إلى واد فيه إبل محملة فقال: هذا لك فقال صفوان: إن هذا عطاء من لا يخشى الفقر.

الضرب الثاني: من يخشى شره ويرجى بعطيته كف شره وكف غيره معه، وروى ابن عباس أن قوماً كانوا يأتون النبي ﷺ فإن أعطاهم مدحوا الإسلام وقالوا: هذا دين حسن، وإن منعهم ذموا وعابوا، وأما المسلمون فأربعة أضرب:

الضرب الأول: قوم من سادات المسلمين لهم نظراء من الكفار ومن المسلمين الذين لهم نية حسنة في الإسلام، فإذا أعطوا رجى إسلام نظرائهم وحسن نياتهم، فيجوز إعطاؤهم فإنّ أبا بكر أعطى عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر مع حسن نياتهما وإسلامهما.

---

(١) الأموال لأبي عبيد فقرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠. (٢) الأموال ص ٦٠٦

(٣) المغني لابن قدامة ٤٢٨/٦.

الضرب الثاني: سادات مطاعون في قومهم يرجى بعطيتهم قوة إيمانهم ومناصحتهم في الجهاد فإنهم يعطون. لأن النبي ﷺ أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وعلقمة بن علاثة والطلقاء من أهل مكة، وقال للأنصار: يا معشر الأنصار علام تأسون؟ على لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً لا إيمان لهم ووكلتكم إلى إيمانكم؟.

وروى البخاري بإسناده عن عمرو بن تغلب: أن رسول الله ﷺ أعطى ناساً وترك ناساً فبلغه عن الذين ترك أنهم عتبوا فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني أعطي ناساً وأدع ناساً والذي أدع أحب إليّ من الذي أعطي، وأعطي ناساً لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل ناساً إلى ما في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن تغلب وعن أنس قال: حين أفاء الله على رسوله أموال هوازن طفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش مائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويمنعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله ﷺ إني أعطي رجالاً حدثاء عهد بكفر أتألفهم[2].

الضرب الثالث: قوم في طرف بلاد الإسلام إذا أعطوا دفعوا عمن يليهم من المسلمين.

الضرب الرابع: قوم إذا أعطوا أجبوا[3] الزكاة ممن لا يعطيها إلا أن يخاف وكل هؤلاء يجوز الدفع إليهم من الزكاة لأنهم من المؤلفة قلوبهم فيدخلون في عموم الآية[4].

وجاء في فتح القدير[5] أن المؤلفة قلوبهم كانوا ثلاثة أقسام:

الأول: قسم كفار كان عليه الصلاة والسلام يعطيهم ليتألفهم على الإسلام.

الثاني: قسم كان يعطيهم ليدفع شرهم.

الثالث: قسم أسلموا وفيهم ضعف في الإسلام فكان ﷺ يتألفهم ليثبتوا ولا حاجة إلى إيراد السؤال القائل: كيف يجوز صرف الصدقة إلى الكفار؟ وجوابه: أنه كان من جهاد الفقراء في ذلك الوقت أو من الجهاد لأنه تارة بالسنان، ومرة بالإحسان.

وخلاصة القول: أن المؤلفة قلوبهم كانوا أصنافاً ثلاثة:

١ ـ مشركون بعيدون بقلوبهم عن الإسلام، يعطون ليكفوا أذاهم عن المسلمين،

---

(١) لعاعة: جباية (المختار).
(٢) متفق عليه، انظر المغني ٦/٤٢٩.
(٣) أجبوا: جبا يجبو جباية، جبا يجبوا جباوة المختار ص ٩٢.
(٤) المغني ٦/٤٢٩.
(٥) فتح القدير كمال الدين بن الهمام ٢/١٤.

وللاستعانة بهم على غيرهم من المشركين عند الحاجة لذلك، لئلا يتكتل المشركون كلهم في معركة واحدة ضد القوى الإسلامية الناشئة.

٢ ـ مشركون من رؤساء القوم، عندهم استعداد نفسي لإعادة النظر في الدعوة، فيعطيهم الرسول ﷺ من الصدقات ويقربهم ليتصلوا بمبادىء الدعوة ورجالها اتصالاً مباشراً فإما آمنوا بها، وإما ضعف عداؤهم لها، فلم يمنعوا من أسلم من قومهم من الثبات على الإسلام.

٣ ـ مسلمون حديثوا عهد بكفر، وإيمانهم ما زال ضعيفاً، وما زالت تسيطر عليهم المفاهيم المادية التي سادت حياتهم من قبل، فيعطون لئلا يرجعوا إلى الكفر بسبب الحاجة[1].

أولاً: قول عمر رضي الله عنه والفقهاء في المؤلفة:

عندما آلت خلافة المسلمين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه منع سهم المؤلفة قلوبهم، وكانت حجته في ذلك: أن الإسلام قد أعزه الله تعالى ولا يحتاج إلى من يؤلفهم لينصروه.

فعن حبان بن أبي جبلة قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأتاه عيينة بن حصن ﴿الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[2] أي ليس اليوم مؤلفة[3] وقيل: جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاإلى أبي بكر فكتب له الخطّ فمزقه عمر وقال: هذا شيء كان رسول الله ﷺ يعطيكموه ليتألفكم على الإسلام، فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن ثبتّم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف...[4].

وعلى هذا يرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سهم المؤلفة قلوبهم كان يصرف عندما كان المسلمون في ضعف، فيعطي هؤلاء المؤلفة قلوبهم اتقاء لشرهم، أو تألفاً لقلوبهم، أما وإن الإسلام قد أعز، والمسلمون قد كثروا، وأصبحوا في قوة ومنعة، فإنه لا

---

(١) منهج عمر في التشريع د. البلتاجي ص ١٧٦ ـ ١٧٧ عن أحكام القرآن للجصاص ١٥٢/٣.
(٢) سورة الكهف آية ٢٩.
(٣) تفسير الطبري ١٦٣/١٠، وانظر فتح القدير ٢ / ١٤.
(٤) فتح القدير لابن الهمام ١٥/٢.

يجوز أن يعطي أحد من هؤلاء شيئاً من الزكاة، سواء كان كافراً اتقاء لشره، أو مسلماً تألفاً لقلبه[1].

أقوال الفقهاء في حكم المؤلفة:

ثم اختلف الناس بعد فيمن كان بمثل حالهم اليوم[2].

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروى عن عمرو وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون بل يعطون لأنه ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا الأمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم[3].

وقال أبو جعفر:[4] والصواب من القول في ذلك عندي: أن الله جعل الصدقة في معنيين: أحدهما سد خَلة[5] المسلمين، والآخر معونة الإسلام وتقويته، فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه فإنه يعطاه الغني والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونة للدين، وذلك كما يعطى الذي يعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنياً كان أو فقيراً للغزو لا لسد خلته.

وكذلك المؤلفة قلوبهم يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحاً بإعطائهم إياه أمر الإسلام، وطلب تقويته وتأييده، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا[6] الإسلام، وعزّ أهله، فلا حجة لمحتج بأن يقول: لا يتألف اليوم على الإسلام أحد لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وصفت.

أما قول الأئمة الأربعة فقد اختلفوا أيضاً.

---

(١) موسوعة فقه عمر ص ٣٦٧، والمغني ٦٦٦/٢، تفسير القرطبي ١٨١/٨.
(٢) الأموال فقرة ١٩٦١. (٣) تفسير بن كثير ٣٦٦/٢.
(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ١٦٣/١٠.
(٥) الخَلّة: بالفتح هي الخصلة وهي أيضاً الحاجة والفقر (مختار ص ١٨٧).
(٦) فشا الاسلام: ذاع وبابه سما (مختار ص ٥٠٤).

فقال مالك[1]: لا مؤلفة اليوم. وقال الشافعي وأبو حنيفة: بل حق المؤلفة باق إلى اليوم إذا رأى الإمام ذلك، وهم الذين يتألفهم الإمام إلى الإسلام. وسبب اختلافهم هل ذلك خاص بالنبي ﷺ، أم عام ولسائر الأمة؟

والأظهر أنه عام، وهل يجوز ذلك للإمام في كل أحواله أو في حال دون حال؟

أعني في حال الضعف لا في حال القوة، ولذلك قال مالك: لا حاجة إلى المؤلفة الآن لقوة الإسلام وهذا كما قلنا التفات منه إلى المصالح[2].

أما مذهب الإمام أحمد: فهو ما حكاه حنبل عن أحمد أنه قال: المؤلفة قلوبهم قد انقطع حكمهم اليوم والمذهب على خلاف ما حكاه حنبل. ولعل معنى قول أحمد انقطع حكمهم أي لا يحتاج إليهم في الغالب أو أراد أن الأئمة لا يعطونهم اليوم شيئاً، فأما إن احتاج إليهم جاز الدفع إليهم فلا يجوز الدفع إليهم إلا مع الحاجة[3]. إذا فمذهب الإمام أحمد: على جواز الدفع إليهم. . . . ومخالفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واطراحها بلا حجة لا يجوز ولا يثبت النسخ بترك عمر وعثمان رضي الله عنهما إعطاء المؤلفة ولعلهم لم يحتاجوا إلى إعطائهم فتركوا ذلك لعدم الحاجة إليه لا لسقوطه[4] وبناء على ما تقدم فإن الرأي الراجح عندي هو الرأي القائل: بأن حق المؤلفة باق إلى اليوم إذا رأى الإمام ذلك. من وجوه:

الوجه الأول: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه منع إعطاء المؤلفة في عهد أبي بكر رضيْ الله عنه ولم ينكر عليه أبو بكر رضي الله عنه ذلك، ولا الصحابة رضي الله عنهم وذلك في قصة عيينة والأقرع عندما جاءا يطلبان أرضا إلى أبي بكر، فكتب له الخط فمزقه عمر وقال: هذا شيء كان رسول الله ﷺ يعطيكموه ليتألفكم على الإسلام والآن أعز الله الإسلام وأغنى عنكم. حتى رجعوا إلى أبي بكر فقالوا: الخليفة أنت أم عمر؟ فقال أبو بكر: هو إن شاء.

ووافقه أبو بكر رضي الله عنه ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك على عمر مع ما يتبادر منه من كونه سبباً لإثارة الثائرة، أو ارتداد بعض المسلمين. فلولا اتفاق عقائدهم على حقيقته، وأن مفسدة مخالفته أكثر من المفسدة المتوقعة لبادروا لإنكاره[5].

---

(١) بداية المجتهد لابن رشد ١/٢٧٥.
(٢) نفسه.
(٣) المغني لابن قدامة ٦/٤٢٧.
(٤) المغني لابن قدامة ٦/٤٢٧.
(٥) انظر فتح القدير ٢/١٥ بتصرف.

الوجه الثالث: أن عمر لم يلْغ حق المؤلفة ولم ينسخه، وبالتالي لم يخرج على الكتاب والسنة، بل على العكس تماماً، فإن ما فعله عمر رضي الله عنه من عدم الدفع للمؤلفة تقرير لما كان في زمنه ﷺ... لأن الواجب كان الإعزاز وكان بالدفع، والآن هو في عدم الدفع... ولأن إباحة الدفع إليهم حكم شرعي كان ثابتاً وقد ارتفع، وغاية الأمر أنه حكم شرعي هو علة لحكم شرعي آخر فنسخ الأول ـ وهو الدفع ـ لزوال علته ـ[1] وهو الإعزاز.

وهذا قال به الأئمة أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد على الأظهر، بل وما يفهم من كلام الإمام مالك[2].

ثانياً: أثر المنع على نشر الدعوة الإسلامية:

وبعد أن استعرضنا أقوال عمر رضي الله عنه والفقهاء عن المؤلفة فلنا أن نتساءل: هل كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حق في منعهم؟ وهل منعهم كان في صالح الدعوة الإسلامية والمسلمين هذا ما سنجيب عنه في الفقرة التالية إن شاء الله.

أما الشطر الأول من السؤال: فهو هل كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه محقاً في منعهم؟ فنقول: نعم، فقد كان الصواب في جانب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في منع المؤلفة، فالمتتبع لسيرة الدعوة الإسلامية في عهدها الأول، وما كان فيه المسلمون من القلة وعدم المنعة، وما كانوا فيه من اضطهاد وتعنت من الفئة الكافرة الطاغية من رؤساء قريش وأشرافهم، حيث كانوا يلاحقون الفئة المسلمة في كل مكان، ولم يكفوا عن إيذائهم بأشد الألوان من الإيذاء، في أبدانهم وفي عقيدتهم.

ولما كان سبحانه وتعالى معزاً لرسوله وللمؤمنين وناصرهم ومؤيدهم ولما كان هذا الإعزاز يستلزم تأليف هذه الفئة من قريش. ليكفوا أذاهم عن المسلمين. فكان التشريع من الله سبحانه وتعالى بأن يعطوا هؤلاء الفئة سهماً من الزكاة لهذا الغرض، فكان الدفع لهم بهدف الإعزاز للمسلمين وشراء أنفسهم بالمال.

ولكن المسلمين عندما أعزهم الله تعالى وأصبحوا في منعة وفي قوة انقلب الميزان، وأصبح الهدف وهو الإعزاز لا يأتي إلا بمنع اعطاء هذه الفئة، فأصبح وجود المؤلفة منعدماً تماماً، وكان هذا في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. إذاً فقد كان عمر على

---

(١) نفسه ٢/١٥ لابن الهمام. (٢) بداية المجتهد لابن رشد ١/٢٧٥.

صواب حين منعهم لتحقيق الغرض الأساسي من المنع وهو إعزاز المسلمين.

أما الشطر الثاني من السؤال فهو: هل كان منعهم في صالح الدعوة الإسلامية؟

ونجيب عليه أيضاً بنعم، فلقد انتهينا من الشطر الأول بأن إعزاز المسلمين وهو الغرض لا يتحقق إلا بالمنع، والعكس صحيح فإن الذلة والصّغار للمسلمين يتحقق بالإعطاء.

وبما أن المسلمين صاروا أعزة وفي كثرة ومنعة، وذلك بانتصاراتهم الساحقة في حروب الردة، والتي انتهت بهزيمة كل المرتدين تماماً واستسلامهم، الأمر الذي جعل صوت المسلمين هو الصوت المرتفع في الجزيرة العربية وما حولها. وأصبحت قوتهم ترهب أعداء الله وأعداءهم في داخل جزيرة العرب وما حولها. وكذلك الفتوحات الإسلامية الشهيرة في عهد عمر لكل من الشام والعراق ومصر.

وبما أن الإعزاز قد تحقق للإسلام والمسلمين بناء على ما تقدم، وهو إعزاز ذاتي نبع من نصر الله تعالى لهم، وإظهارهم على أعدائهم. وذلك كله تم بدون دفع للمؤلفة. إذاً فالمعادلة الآن ـ بناء على هذا الوضع الجديد للمسلمين ـ قد تغيرت وأصبحت كالآتي: عدم الدفع للمؤلفة يحقق الغرض الأساسي وهو إعزاز المسلمين.

وبالتالي فإن الدفع للمؤلفة في ضوء هذا الوضع الجديد للمسلمين فيه ذلة لهم وخضوع للكافرين وبما أنه لا يجتمع النقيضان: القوة مع الذلة في آن واحد، إذاً فقوة المسلمين في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمنع معها أن يدفع للمؤلفة لاسترضائهم أو لكف أذاهم، وقد أصبحوا في ضعف وذلة وهوان. وبالتالي فإن منعهم من الزكاة فيه عزة للإسلام وللدعوة الإسلامية وبالمقابل يكون الذل والهوان والصّغار على الكافرين.

وعلى هذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان على صواب وعلى حق في منع المؤلفة قلوبهم من الزكاة وبالمقابل فقد استفاد المسلمون والدعوة الإسلامية الكثير والكثير وأصبحت الكلمة العليا لهم والذل والصغار[1] لأعدائهم. يقول ابن الهمام في ذلك: أن المقصود بالدفع إليهم كان إعزاز الإسلام لضعفه في ذلك الوقت[2] لغلبة أهل

---

(١) الصغار: الهوان. (٢) أي وقت أن أعطاهم الرسول ﷺ ليتألفهم.

الكفر. فكان الإعزاز في الدفع. فلما تبدل الحال بغلبة أهل الإسلام[1] صار الإعزاز في المنع في ذلك الزمان والمنع في هذا الزمان بمنزلة الآلة لإعزاز الدين، والإعزاز هو المقصود، وهو باق على حاله[2].

---

(١) بعد أن كثروا وغلبوا أعداءهم في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.
(٢) فتح القدير كمال الدين بن الهمام ٢/١٥.

البَابُ الثالِث

عُمَرُ الداعيَة الفَاتح

الفصل الأول

حالة بلاد الفرس والروم قبل الفتح الإسلامي

لقد عمت بلاد الفرس والروم قبيل الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي[1] حالة من الفوضى في شتى أمور الحياة، دينية واجتماعية، واقتصادية، وسياسية أدت إلى افساد الحياة بشكل عام، مما حدا برعايا هاتين الدولتين إلى التطلع إلى اليوم الذي يتخلصون فيه من هؤلاء الحكام ومن فسادهم الذي عم كل شيء وأصبح لا يطاق. وفي الصفحات التالية سأتناول دراسة هذه الحالات المتردية لتلك البلاد في ضوء ما أمكن جمعه من مصادر، مقسماً هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: الحياة الدينية.
المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية.
المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية والسياسية.

المبحث الاول: الحياة الدينية

في دولة الفرس:

لقد كانت الأكاسرة - ملوك فارس - يدّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً فكانوا يكفرون[2] لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقادات، وفوق البشر...[3] ويقول أحمد أمين: إنهم كانوا - أي الفرس - ينظرون إلى ملوكهم كأنهم

---

(١) عام: ٦٣٣ ميلادية.

(٢) كفر الرَّجل بفلان: وضع يده على صدره وطأطأ رأسه، وتطامن تعظيما له.

(٣) انظر: كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ص ٤٩.

كائنات إلٰهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس، وخصهم بالسيادة، وأيدهم بروح من عنده، فهم ظل الله في أرضه أقامهم على مصالح عباده وليس للناس قبلهم حقوق. . .[1].

في دولة الروم:

لم تكن الحياة الدينية لدولة الروم بأسعد حالاً منها في دولة الفرس، فقد سادت في دولة الروم حول الديانة وفي صميمها مجالات كلامية وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة واستهلكت ذكاءها وقدرتها وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية، وحولت المدارس والكنائس والبيوت إلى معسكرات دينية متنافسة وأقحمت البلاد في حرب أهلية، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر، أو بين الملكانية والمنوقيسية بلفظ أصح، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواجيةطبيعة المسيح، وكان المنوقيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشري، وقد اشتد الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع وكانت كل طائفة تقول للأخرى إنها ليست على شيء[2].

يقول د. الفرد. ج. بتلر: إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس، إذ كان علة العلل في ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوقيسية، وكانت الملكانية هي حزب مذهب الدولة الامبراطورية وحزب الملك والبلاد، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة، وهي ازدواجية طبيعة المسيح، على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط المنوقيسين ـ أهل مصر ـ كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها، وتحاربها. .[3].

وفي صدر عام ٦٣١ حصل الامبراطور هرقل على وفاق بين الطائفتين على أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح وأصبح المذهب المنوثيلي مذهباً رسمياً للدولة، ولكن القبط نابذوه العداء، ولم تهدأ العاصفة في مصر ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر في مصر استمر عشر سنين، فرجال كانوا يُعَذبون ثم يقتلون

---

(١) فجر الاسلام ص ١١١، وانظر النظم الإسلامية د. صبحي الصالح ص ٣٠.

(٢) ماذا خسر العالم ص ٣٨.

(٣) ماذا خسر العالم ص ٣٨ بتصرف، عن كتاب فتح العرب لمصر ص ٣٧ ـ ٣٨ تعريب محمد فريد أبو حديد.

إغراقاً وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض، ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى به في البحر...[1].

وعن الحياة الدينية في مصر في عصر الدولة الرومية يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب): ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية. ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي[2]، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن. وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم. وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين[3]. ويقول صاحب كتاب فتح العرب لمصر: فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة، فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب، واختلف بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الاختلاف على أمور العقائد والديانات، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح، بل كان الدِّين في نظرهم هو الاعتقاد المجرد في أصول معينة[4].

---

(١) ماذا خسر العالم ص ٣٩ بتصرف، وانظر النظم الاسلامية ص ٢٦ عن كتاب فتح العرب لمصر ص ١٦٢.

(٢) لست أوافق المؤلف على تسميته للفتح بأنه فتح (عربي)، لأن الفتوح (إسلامية) وليست عربية كما يزعم المؤلف.

(٣) ماذا خسر العالم ص ٤١، عن كتاب حضارة العرب ص ٣٣٦.

(٤) ماذا خسر العالم ص ٤١، عن كتاب فتح العرب لمصر ص ٤٧ تعريب محمد فريد أبو حديد.

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية

في دولة الفرس:

لقد صورت لنا المصادر التاريخية الإسلامية أدق الصور وأوفاها على ترف الأكاسرة، وما أُوتوه من الكنوز التي لم يؤت مثلها أحد من العالمين. لقد قالوا عن كسرى أبرويز الذي عاصر أوائل القرن السابع الميلادي مبعث رسول الله ﷺ[1]: فمن ذلك أن الرياح ألقت الى سواحل أنطاكيا ألف مركب احتوت خزائن الروم، فاستولى عليها كسرى أبرويز وسماها خزائن الريح[2]. ومن ذلك أن كسرى هذا قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحد من الملوك، وبلغت خَيْلُهُ القسطنطينية وأفريقية، وكان يشتو بالمدائن ويتصيف ما بينها وبين همذان. وكان يقال: إنه كانت له اثنتا عشرة ألف امرأة وجارية، وألف خيل إلا واحداً، وخمسون ألف دابة... وكان أرغب الناس في الجواهر والأواني[3].

يقول صاحب كتاب (إيران في عهد الساسانيين)[4]: كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرب، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكان من قواعد السياسية الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه له نَسَبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يُولُّون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات يتميز بعضها عن بعض تميُّزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدود في المجتمع.

وكان هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهاناً للإنسانية يظهر ذلك جلياً في مجالس

---

(١) النظم الاسلامية بتصرف ص ٣٥.

(٢) النظم الاسلامية عن مروج الذهب ١/١٢٠.

(٣) النظم الاسلامية ص ٣٥ عن مروج الذهب ١/١٢١.

(٤) ماذا خسر العالم باختصار ص ٥٠ وما بعدها عن إيران في عهد الساسانيين ص ٥٩٠، ٤٢٠، ٤١٨.

الأمراء والأشراف حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب، وقد كبر ذلك على رسول المسلمين وأنكره، ويتبين مما روى الطبري ما وصل إليه الفرس من الاستكانة والخضوع لساداتهم جرياً على عاداتهم.

عن أبي عثمان النهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرةفعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئاً من شاراتهم تقوية بتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطهم على غلوه[1] ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه[2] وأنزلوه ومغثوه، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن مُلْكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول[3].

وكانت جيوش الفرس تفسد في الأرض وتقع على النساء وتشرب الخمور وتغتصب الأموال يقول الطبري: . . . فغصب أصحابه ـ يعني جنود رستم ـ الناس أموالهم، ووقعوا على النساء، وشربوا الخمور، فضج العلوج إلى رستم وشكو إليه ما يلقون في أموالهم وأبنائهم، فقام فيهم فقال: يا معشر أهل فارس والله لقد صدق العربي، والله ما أسملنا إلا أعمالنا، والله للعرب في هؤلاء، وهم لهم ولنا حرب، أحسن سيرة منكم إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة، وكف الظلم، والوفاء بالعهود والإحسان. فأما اذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم[4].

وكان المجتمع الفارسي مجتمعاً طبقياً مكوناً من سبع طبقات[5].

---

(١) الغلوة هي الغاية مقدار رمية (مختار ص ٤٨٠).
(٢) الترترة: التحريك (مختار الصحاح ص ٧٦).
(٣) تاريخ الطبري ٤/١٠٨، ماذا خسر العالم ص ٥١.
(٤) تاريخ الطبري ٤/٩٩ ـ ١٠٠.
(٥) الطريق إلى المدائن ص ١٠٦ باختصار عن ايران في عهد الساسانيين ص ٨٤.

الطبقة الأولى: الملوك:

وهي الطبقة الأولى ويحملون لقب ملك. وقد سوغ هذا لملك فارس أن يحمل لقب ملك الملوك (شاهنشاه). وتشمل هذه الطبقة الأمراء والتابعين الذين يحكمون أطراف الدولة. وحكام الإمارات، وأولئك الذين ضمن لهم ملك فارس الإمارة لهم ولذويهم ومن بعدهم نظير خضوعهم مع التزامهم بوضع قوتهم الحربية تحت تصرفه وأداء جزية معينة.

الطبقة الثانية: الأشراف:

وهي طبقة العائلات السبع الممتازة.

الطبقة الثالثة: رجال الدين:

وقد اعتبر الساسانيون الدين المجوسي الزرادشتي هو الدين الرسمي، ولم يسمح أردشير بأي دين آخر في فارس ونتج عن ذلك اضطهاد الأديان الأخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية، وبالرغم من ذلك فقد ظل عرب الحيرة وعرب الجزيرة من اللخميين الذين انتشرت فيهم النصرانية موالين للفرس في كافة حروبهم مع الروم كما ظل عرب الشام من الغساسنة الذين انتشرت فيهم النصرانية أيضاً موالين للروم.

الطبقة الرابعة: رجال الحرب:

وهم الفرسان وكانت زهرة الجيش الساساني، ثم الرَّجَالَه ولكل من القسمين رُتَبه وموظفوه. وكان ضباط الجيش يسمون الأساورة، وفرق المشاة كانت تستخدم الأقاليم كَشُرط أو جلادين، ولعل هذه الطبقة كانت جانباً، من الطبقة الثانيةَ، طبقةَ الأسر السبع الممتازةَ إذ لم يكن الفرسان الأساور يخرجون من هذه الطبقة.

الطبقة الخامسة: الكتاب:

وهم كتاب الدواوين وينقسمون إلى كتاب رسائل، وكتاب الحسابات، وكتاب الأقضية.... الخ.

الطبقة السادسةَ: الدهاقين:

وهم رؤساء القرى وكانوا يستمدون قوتهم من الملكيةَ الوراثيةَ للادارة المحلية، وكانوا

أساساً متيناً للإدارة، فهم الرؤساء وملاك الأراضي والقرى، وكانوا أشبه بالعمد، وكانوا مثقفين إلى حد ما.

الطبقة السابعةَ: الشعب:

وهم من الفلاحين والصناع، ويدخل فيهم الرعاةَ والتجار وأهل الحرف. وكان كثير من التجار يستطيع القراءةَ والكتابةَ والحساب، وما عدا ذلك كانت ثقافة الشعب ضئيلة جداً[1].

في دولة الروم:

بلغ الانحلال الاجتماعي في الدولة الرومية الشرقية، وذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية. وكان العدل كما يقول (سيل) يباع مثل السلع. وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع. ويقول (جبسون): وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في تردِّيها وهبوطها إلى آخر نقطة.

وكانت مصر في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية، وبالدولة الرومية، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات في طبيعة المسيح، وفي فلسفة ما وراء الطبيعة... وقد ظهرت في القرن السابع في شر مظاهرها، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهاداً دينياً فظيعاً واستبداداً سياسياً شنيعاً جرعت في سبيلهما من المرائر في عشر سنين ما ذاقته أوروبا في عهد التفتيش الديني في عقود من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح، فلا هي تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية ولا هي تتمتع بالحرية الدينية والعقلية رغم كونها نصرانية.

وكانت جنود الروم أصحاب باهان بالشام يفسدون في الأرض ويشربون الخمور ويسلبون الأهالي ويعتدون على الأعراض. فقد ذكر الأزدي[2] حكاية عن رجل نصراني يدعى أبا بشير قال: كنت نصرانياً، فنصرت النصرانية على العرب، وأقبلت مع الروم،

---

(١) الطريق إلى المدائن ص ١٠٦ ـ ١١٠ باختصار عن إيران في عهد الساسانين ص ٤٠٠.
(٢) فتوح الشام ١٧٥ للأزدي.

فجعلنا لا نمر بأحد من أهل البلد إلا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم، وفي سيرتهم.

قال: وأقبلت الروم، فجعلوا يفسدون في الأرض، ويسيئون السيرة، ويعصون أميرهم حتى ضج منهم الناس، وشكاهم أهل القرى، وجعلوا لا يفيقــون من شرب الخمور والزنا، ولا تزال جماعة من أهل الذمة يجيئون إلى ملكهم ومعهم الجارية قد افتضت، وجماعة يشكون أن أغنامهم قد ذبحت، وجماعة يشكون أنهم قد خربوا وسلبوا. . .[1].

وأخبر رجل رومي قال: إن بطريقاً من بطارقة الروم نزل ببيت رجل من أهل الذمة، وكان عظيماً من عظمائهم وأشدائهم، فوقع على امرأة الذمي، فنكحها، فجاء زوجها ليمنعه، فقتله، فخرج أخوه، فاستعدي عليه أميرهم الأعظم باهان، وأخبره خبره. . .[2].

---

(١) فتوح الشام ١٧٥ للأزدي.

(٢) فتوح الشام ٢١٦ للأزدي.

المبحث الثالث

الحيـاة الاقتصــاديـة والسياسية

في دولة الفرس:

لم يكن النظام المالي والسياسة المالية في إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة في كثير من الأحوال، تابعة لأخلاق الجباة والعاملين وأهوائهم فكان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال.

ولم يكن ما ينفق على أهل البلاد في إيران من مالية الدولة شيئاً كثيراً. وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكنزوا النقود ويدخروا الطّرف والأشياء الغالية...

فكان الغني لأفراد معدودين والفقر لمعظم الأهلين. وأثقلت الضرائب الفلاحين حتى ترك كثير منهم زراعته أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب وفشت البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب[1].

وكان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم، وكانوا يستخدمون مجاناً ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجر وكانت علاقة الفلاحين بالملاك كعلاقة العبيد بالسادة[2].

أما عن الحياة السياسية: فكان سائداً في الدولة الاضطهاد والاستبداد وقد اضطهد اليهود في الشام والعراق واليعقوبيون في مصر اضطهاداً كبيراً واستبد الحكام استبداداً شديداً وعاثوا في البلاد والدماء والأموال والأعراض وصار المحكومون في بعض الأحيان يفضلون الموت على الحياة[2].

---

(١) ماذا خسر العالم ص ٧٨ ـ ٧٩ باختصار عن ايران في عهد الساسانيين.
(٢) السابق ص ٨٠.

في دولة الروم:

أفلست الدولة في عهد هرقل لكثرة حروبه التي استنزفت خزائن المال، حتى اضطر إلى الاقتراض من ثروة الكنائس على أن يرد الدين بالربا وأمسى الناس في عهده لا يستفيقون إلا من أحد أمرين: فإما الموت وإما الضريبة.[1].

ولم يكن للحكومة الرومية في مصر إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، فكان الحكم حكمَ الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم[2].

أما النظام السياسي:

فكان المبدأ الأساسي هو تقديس الوطن الرومي، ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقاً يجري منها الدم إلى مركزها فكانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشنيعة، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان، حلوب في بعضها لا يقدم لها من العلف إلا ما يقيم صلبها إو يدر ضرعها[3] فكان نظام الحكم استبدادياً اوتوقراطياً يعول على سلطة الحاكم الفرد المطلق. . .[4].

تلك كانت لمحة خاطفة أردنا بها تصوير الحالة العامة التي كانت سائدة داخل الدولتين الفارسية والرومية قبل الفتح الإسلامي.

فدولة بني ساسان ـ رغم ما تزخر به من مظاهر الحضارة العمرانية ـ كانت تنتظر أجلها المحتوم، وترقب ساعة الخراب.

ودولة الروم أيضاً لم تكن أحسن حظاً من سابقتها بل فاقتها سوءاً وبهذا فقد أصبح رعايا كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية بصورة عامة يشعرون أنهم غير آمنين على دياناتهم أو أنفسهم أو أرزاقهم ويشعرون بأن هذا الحكم هو حكم الغرباء، لا يعتمد إلا على القوة

---

(١) النظم الاسلامية ص ٢٤.
(٢) ماذا خسر العالم باختصار ص ٧٦ ـ ٧٧.
(٣) ماذا خسر العالم باختصار ص ٧٦ ـ ٧٧.
(٤) النظم الإسلامية د. صبحي الصالح ص ٢٢.

ولا يحس بشيء من العاطفة على الشعب المحكوم. لذلك فقد تطلع الشعب في كلتا الدولتين إلى ساعة الخلاص من تلك الحكومات الفاسدة إلى حكومة أخرى تعدل بينهم وترعى مصالحهم، حكومة تحفظ عليهم أنفسهم وأموالهم وآدميتهم وأني لهم بالحكومة التي تحفظ عليهم كل ذلك إلا حكومة واحدة فقط هي حكومة الإسلام.

فقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ في هذا الجو القاتم المُكْفَهِرّ برسالة الإسلام التي بها بُدِّل الظلام نوراً، والفساد صلاحاً، والجهل علماً، والفوضى نظاماً. إذاً ـ والحال على ما ذكر ـ فالفتح الإسلامي أصبح ضرورة ملحة لا مناص عنه، ولا بديل له يستطيع أن يحل محله لتخليص الشعوب المقهورة من حالة التردي التي تعيشها في ظل الحكم الاستبدادي الهمجي، الكسروي القيصري.

الفصل الثاني

اخلاق الجهاد وأساليبه عند عمر وقادة الفتح

تمهيد

إن أي دعوة في الدنيا ـ للحق أم للباطل ـ لا بد لها من حملة يحملونها ويدافعون عنها وينشرونها بين الناس.

ودعوة الإسلام ـ وهي دعوة الحق ـ التي نحن بصددها، قد حملها رسول الله ﷺ ابتداء، وأمره الله تعالى أن يبلغها إلى الناس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً. . .﴾[1] ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[2] فقام ﷺ بأمانة تبليغ الدعوة الإسلامية ونشرها إلى عشيرته الأقربين ثم الأبعد فالأبعد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا.

وقد حمل رسول الله ﷺ عبء هذه الدعوة ودافع عنها، وجاهد في سبيل الله من أجل نشرها وتعرض هو ومن آمن معه لألوان الاضطهاد والتعذيب من المشركين المكذبين له.

ولم يثنهم كل ذلك عن المضي في تبليغ دعوة الله إلى العالمين ولما كانت الدعوة إلى الله تعالى دعوة عالمية وللناس كافة، فقد كلف الله تعالى المسلمين جميعاً بتبليغها والدفاع عنها والقتال من أجل نشرها في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ. . .﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّه لِلَّه. .﴾[5] وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨. (٢) سورة الأحزاب آية ٤٦.
(٣) سورة يوسف آية ١٠٨. (٤) سورة البقرة آية ٢١٦. (٥) سورة الأنفال آية ٣٩.

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1].

لذلك عندما استُخلِف أبو بكر الصديق رضي الله عنه تحمل مسئولية تبليغ الدعوة الإسلامية للعالمين في زمانه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكان رضي الله عنه مثالاً لتحمل عبء هذه الأمانة الكبرى، والدفاع عنها هو والمسلمون معه، حتى قضى على فتنة المرتدين، وكان عهده رضي الله عنه امتداداً لعهد رسول الله ﷺ، كله كفاح وجهاد في سبيل نشر الدعوة والدفاع عنها ضد أي معتد تخول له نفسه الاعتداء على المسلمين ولما علمنا مما تقدم أن الدعوة إلى الله تعالى دعوة عالمية وللبشر كافة بنص القرآن الكريم، وبأن المسلمين في كل زمان ومكان مكلفون بنشرها والدفاع عنها.

ولما علمنا أن رسول الله ﷺ هو المبلغ الأول عن ربه سبحانه وتعالى وأنه هو المسئول الأول عن نشر الدعوة والدفاع عنها وتبليغها إلى العالمين، وذلك بصفته النبي المبلغ عن الله عز وجل من جهة، وبصفته رئيساً للدولة الإسلامية من جهة أخرى، حيث كان ﷺ يحرس الإسلام وينشره ويسوس الدولة به.

ولمّا خلف أبو بكر الصديق رسول الله ﷺ في رئاسة الدولة الإسلامية بإجماع المسلمين، أصبح رضي الله عنه هو المسئول الأول عن نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها في كل مكان وقد كانت حروب الردة أكبر شاهد على ذلك.

نخلص مما سبق أن خليفة المسلمين في كل زمان ومكان أو رئيس الدولة الإسلامية ـ تحت أي اسم كان ـ هو المسئول الأول أمام الله تعالى عن تبليغ الدعوة الإسلامية وحمايتها والجهاد في سبيلها.

وهكذا عندما أصبح عمر بن الخطاب رضي الله عنه رئيساً للدولة الإسلامية كان أيضاً مسئولاً أمام الله تعالى عن تبليغ الدعوة والدفاع عنها. وفي ذلك يقول الطبري: فلما استخلف عمر رضي الله عنه صعد على المنبر فقال: إني قائل كلمات فأمنوا عليهن،

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩.

فكان أول منطق نطق به حين استخلف، قال: (إنما مثل العرب مثل جَمل أنف[1] اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق)[2].

وذكر الطبري أيضاً أن عمر رضي الله عنه خطب الناس فقال: يا أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً[3] بما ينوب من مهم أموركم، ما توليت ذلك منكم...[4].

وفي رواية قال: ... وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحَدٍ، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله[5].

وذكر ابن سعد أن عمر قال: ... ولو علمت أن أحداً من الناس أقوى عليه مني لكنت أقدم فَتُضْرَبُ عنقي أحبُّ إليّ من أن أليه[6].

فقد كان عمر بْن الخطاب رضي الله عنه يحب الجهاد في سبيل الله حباً جماً ويعرف ما للجهاد من فضل كبير عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم.
كان رضي الله عنه يقول: لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لحقت بالله ولولا أن أسير في سبيل الله، أو أضع جبهتي في التراب ساجداً، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب الثمر[7] يقول ابن تيمية: وكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أجمع الكلام وأكمله لأنه ملهم مُحدَّث[8] كل كلمة من كلامه تجمع علماً كثيراً مثل هؤلاء الثلاثة التي ذكرهن، فإنه ذكر الصلاة والجهاد والعلم، وهذه الثلاث هي أفضل الأعمال بإجماع الأمة.

قال الإمام أحمد بن حنبل: أفضل ما تطوع به الإنسان الجهاد. وقال الشافعي: أفضل

---

(١) أنف البعير: اشتكى أنفه من البره فهو أنف، وآنف وفي الحديث (المؤمن كالجمل الأنف إن قيد انقاد وإن استنيخ على صخرة استناخ) وذلك للوجع الذي به فهو ذلول منقاد.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٥٤، الكامل لابن الأثير ٢: ٢٠٨، وجمهرة خطب العرب ١/٧٩.
(٣) الذي في كتب اللغة (اضطلاع) يقال هو مضطلع بهذا الأمر، أي قوي عليه.
(٤) تاريخ الطبري ٥: ٢٥، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٤، وجمهرة خطب العرب ١/٨٠.
(٥) تاريخ الطبري ٥: ٢٦، جمهرة خطب العرب ١/٨١.
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٧٥.
(٧) منهاج السنة لابن تيمية ٣/١٤٦، الطبقات ٣/٢٩٠ لابن سعد.
(٨) مُحَدَّث: ملهم.

ما تطوع به الصلاة. وقال أبو حنيفة ومالك: العلم. والتحقيق: أن كلا من الثلاث لا بد له من الآخرين، وقد يكون هذا أفضل في حال وهذا أفضل في حال، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه يفعلون هذا وهذا كل في موضعه بحسب الحاجة والمصلحة، وعمر جمع الثلاث.[1]

ولما كانت مسئوليته رضي الله عنه هي إعلاء كلمة الله في الأرض، وأن لا تحكم الإنسانية إلا بالإسلام إذا فلا مناص أمامه من فتح هذه البلاد التي تدين بغير دين الإسلام، لكي يؤمن الطريق، ويفتحه أمام الدعوة الإسلامية لتأخذ طريقها إلى قلوب تلك الشعوب حتى تختار ديانتها دونما ضغط ولا إكراه. لذلك أقدم رضي الله عنه ـ كقائد عام لجيوش المسلمين وأمير للمؤمنين، وداعيةٍ إلى الله تعالى ـ على تعبئة الجيوش الإسلامية استعداداً للفتح الإسلامي لتلك البلاد لحماية حرية نشر الدعوة ولإقرار اركان الإسلام في ربوعها. وحرصاً منه رضي الله عنه على ضرورة فتح هذه البلاد لنشر الدعوة الإسلامية، فكان لزاماً عليه أن يكسب الحرب ويكسر شوكة الطغاة الحاكمين من الفرس والروم الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية ليحولوا دون نشرها في بلادهم وأني له ذلك الا بتنفيذ تعاليم الإسلام في سلمه وفي حربه.

إن عمر رضي عنه واثق من وعد الله للمؤمنين بالنصر حيث قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾[2].

فمن تعاليم الإسلام: تقوى الله تعالى في كل حال، سلما أو حربا ﴿.. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً..﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون﴾[5] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا..﴾[6] لذلك كان عمر رضي الله عنه يوصي نفسه والمسلمين بتقوى الله في كلِّ حال.

ومن تعاليم الإسلام أيضاً: إعداد القوة للعدو قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

---

(١) منهاج السنة ٣/١٤٦ ـ ١٤٧.
(٢) سورة النور آية ٥٥.
(٣) سورة طه آية ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٤) سورة غافر آية ٥١.
(٥) سورة الصافات آية ١٧٣.
(٦) سورة الحج آية ٣٨.

قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ..﴾[1] وهو الأخذ بالأسباب.

ومن تعاليم الإسلام كذلك: المحافظة على الخُلُق الإسلامي، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[2].

وباختصار فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه طبق كل تعاليم الإسلام بكل دقة في الحرب كما طبقها أيضاً في السلم. فمن الناحية الحربية، كان رضي الله عنه يختار قادة جنده ممن له فقهه في الدين، وبصر في الحرب ويكون شجاعاً راميا.

ولم يكن ينتهي دور عمر باختياره قادة الجند بل يظل على اتصال دائم بهم وهم في ميادين القتال يمدهم بنصائحه وتعليماته التي تتضمن حَثَّهم على تقوى الله تعالى والتخطيط والتنسيق بين جيوشهم وتحريضهم على القتال.

وسنفصل الكلام عن ذلك في الصفحات القادمة وذلك في مبحثين.
نخصص المبحث الأول: عن «عمر القائد الداعية».
ونخصص المبحث الثاني: عن «الإعداد للجهاد».

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠.
(٢) سورة فصلت آية ٣٣.

المبحث الأول

عمر القائد الداعية

أولاً: طريقة اختيار عمر بن الخطاب لقادة الفتح الإسلامي:

إن عمر رضي الله عنه كان ينظر لهؤلاء القادة على أنهم دعاة إلى الله تعالى أولاً وأخيراً، فهم إذاً حملة رسالة سماوية مكلفون بتبليغها للناس بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن كما أمرهم رب العزة سبحانهُ وتعالى حيث يقول جل شأنه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

ومن جهة أخرى فهم مكلفون بقتال من يقف في طريق تبليغ هذه الدعوة إلى الناس مهما كان، حتى يُؤمنوا لها الطريق لتَصل إلى قلوبهم، فإذا اختاروا الإسلام فبها ونعمت، وصاروا إخواناً للمسلمين، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وإن اختاروا البقاء على دينهم ـ إذا كانوا أهل كتاب[2] ـ فلا مانع من ذلك، إذا أعطوا الجزية للمسلمين نظير الدفاع عنهم وحمايتهم. وإذا رفضوا الإسلام ودفع الجزية وجب قتالهم. لأن رفضهم هذا تَعْطِيل لنشر دعوة الإسلام في بلادهم وهذا ما لا يرضاه الله ورسوله ولا المؤمنون الذين كلفوا بنشر هذا الدين للناس. وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[3] وقال ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أن لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّه، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥.

(٢) أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى لأنهم يؤمنون بكتاب سماوي، أما إذا كانوا من المشركين الذين يعبدون آلهة من دون الله، فلا يتركون وشأنهم بل يقاتلون.. (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ..) الأنفال آية ٦٧.

(٣) سورة التوبة آية ٢٩.

عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ وَحِسَابُهُم عَلَى اللَّه). متفق عليه[1].

وقد قاتل خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه المرتدين عندما قال قولته الشهيرة: والله لو منعوني عقالاً[2] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. . .[3] متفق عليه.

لذلك فإن هؤلاء القادة ـ وهم الدعاة إلى الله لا بد لهم والحال كما ذكر آنفاً ـ أن يكونوا حاملين للسيوف في أيديهم بجانب دعوة الإسلام التي في صدورهم، أي لا بد لهم من حمل المصحف في يد والسيف في اليد الأخرى.

وبما أن الدعوة إلى الله تعالى لا بد لها من قلوب تحملها وعقول تبلغها للناس بالحكمة والموعظة الحسنة ـ كما أمر المولى جل وعلا ـ فإن السيف أيضاً لا بد له من يد تحمله بحقه، وعقل فطن يقظ يخطط لتلك اليد حتى لا تطيش ضرباتها، إن أريد لها أن تضرب.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بما أنعم الله عليه من مناقب جمة استطاع معها أن يضع كلا في مكانه الصحيح ـ قام بوضع عدة شروط وضوابط لاختيار قادة جنده، ليستطيعوا معها الاضطلاع بمهام مسؤولياتهم الجسيمة، ألا وهي فتح تلك البلاد، وتبليغ دعوة الله تعالى إلى شعوبها وحماية تعاليم الإسلام. وتلك هي: ـ

أولاً: أن يكون تقياً ورعاً عالماً بأحكام الشريعة: روي الإمام أحمد في مسنده أن نافع ابن الحارث لقي عمر بعسفان وكان عمر قد استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت ابن أَبْزي، قال: وما ابن أبزي؟ قال: رجل من موالينا، فقال عمر أستخلفت عليهم مولى؟ فقال: إنه قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض قاض، فقال عمر: أما إن نبيكم قال: (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْواماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)[4] وكان عمر يولي من تتوفر فيهم التقوى. فقد أرسل إلى سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي يستعمله على بعض الشام فأبى عليه، فقال عمر: كلا، والذي نفسي

---

(١) رياض الصالحين حديث رقم ١٢١٦. (٢) هو (الحبل الذي يعقل به البعير).

(٣) رياض الصالحين حديث رقم ١٢١٧.

(٤) رواه مسلم: (رياض الصالحين حديث ١٠٠٢) وانظر موسوعة فقه عمر ص ١٠٠ عن مسند أحمد ٣٥/١.

بيده لا تجعلونها في عنقي وتجلسون في بيوتكم[1] وفي رواية[2] قال له عمر: يا سعيد بن عامر، إني قدوليتك على هذا الجيش ولست بخير من رجل منهم، إلا أن تكون أتقي لله منه . . .

وكان عمر يقول ويردد: من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فجر فهو مثله[3] وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لا ينبغي أن يولي الإمام الغز وإلّا ثقة في دينه . . .[4]

وكان عمر رضي الله عنه دائم النصح لولاة جنده وجنده بتقوى الله على كل حال وهو واثق تمام الثقة أن الله تعالى هو الرامي، وهو سبحانه وتعالى الناصر لجنده، فكيف يتأتى ذلك مع ارتكاب الجند للمعاصي؟ ومن وصاياه في ذلك إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والجنود أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . . .[5]

ثانياً: أن يكون القائد مكيثاً[6] غير متهور.

لما وليَّ عمر رضي الله عنه أبا عبيد[7] قال له: اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف . . . ، وقال عمر رضي الله عنه لأبي عبيد: إنه لم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع، إلا عن بيان، والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث[8] وفي رواية أن عمر قال لسليط: لولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زَبُون[9] لا يصلح لها إلا الرجل المكيث[10].

ثالثاً: أن يكون جريئاً، وشجاعاً رامياً.

---

(١) موسوعة فقه عمر ص ١٠٠ عن مصنف عبد الرزاق ٣٤٨/١١.
(٢) فتوح الشام للأزدي ص ١٨٦، الطريق الى دمشق أحمد عادل ص ٤١٤.
(٣) موسوعة فقه عمر ص ١٠٠ عن سيرة عمر لابن الجوزي ص٦٧.
(٤) الام للشافعي ٩٧٤. (٥) جمهرة خطب ١/ ٩٣ عن العقد الفريد.
(٦) المكيث: الغير متهور.
(٧) أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن عيرة بن عوف بن ثقيف وهو المختار.
(٨) تاريخ الطبري ٦١/٤ وانظر الفاروق القائد ص ٩٨ لمحمود شيت خطاب.
(٩) زبون: حَرْبٌ زبون: متدافعة شديدة (الرائد ٧٦٩/١).
(١٠) فتوح البلدان ص ٢٥٠ للبلاذري.

فقد ذكر الطبري: كان سعد بن مالك[1] أجرأ الناس وأشجعهم[2] وعندما أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الناس من يوليه أميراً على الجند لفتح نهاوند[3]. قالوا يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وجندك قد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلمتهم. فقال: أمَّا والله لأولّينَّ أمرهم رجلاً ليكوننّ أول الأسنّةِ[4] إذا لقيها غداً، فقيل من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن المزنيِّ، فقالوا: هُوَ لَها[5].

وجاء في فتوح البلدان أن: كتب المسلمون إلى عمر بن الخطاب يعلمونه كثرة من تجمع لهم من أهل فارس، ويسألونه المدد، فأراد أن يغزو بنفسه، وعسكر لذلك، فأشار عليه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وجماع من مشايخ أصحاب رسول الله ﷺ بالمُقَام وتوجيه الجيوش والبعوث فَفَعَل. . . . فأراد عمر توجيه سعيد بن زيد[6] ثم بدا له، فوجه سعد بن أبي وقاص. . . . وقال: إنه رجل شجاع رام[7]. وقد سأل رجل عمر رضي الله عنه: لا أخاف في الله لومة لائم خير لي أم أقبل على نفسي ـ أي أعبد الله وأهذبها ـ فقال عمر: أمّا من ولي من أمر المسلمين شيئاً فلا يَخَاف في الله لومة لائم، ومن كان خُلُوّاً فليقبل على نفسه، ولينصح لولي أمره[8].

رابعاً: أن يكون ذا دهاء وفطنة وحنكة.

فقد كان عمر رضي الله عنه يختار القائد الفطن الذكي، الذي يتمتع بالدهاء، والحنكة، والتجربة في القتال، وهذا شرط هام، يجب أن يتوفر لقائد الجند، حتى لا يرهقهم بالوقوع بهم في المآزق، مما يؤدي إلى هبوط الروح المعنوية، والكفاءة القتالية لهم، وفي ذلك ما فيه من أسباب خذلانهم[9] وقد قال عمر رضي الله عنه: ولكم عليَّ ألاَّ ألقيكم في المهالك ولا أحجزكم في ثغوركم[10] وقال أيضاً لبعض قواده: قاتلوا بهم الكفار طاقتهم، فإذا رأيتم بهم كلالة[11] فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. (٢) تاريخ الطبري ١٤٢/٤.
(٣) نهاوند: من بلاد الفرس، قرب همذان، تاريخ الطبري ٢٣١/٤ ومعجم البلدان ٣٢٩/٨.
(٤) الأسنة: واحدة السنان أي سن الرمح (مختار الصحاح ص ٣٠٧).
(٥) تاريخ الطبري ص ع/ ٢٣٨٠ ـ ٢٣٩.
(٦) هو سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل العدوي القاموس الإسلامي ٣٦٢/٣.
(٧) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٥٥ وانظر الفاروق القائد ص ٩٩ محمود شيث خطاب.
(٨) موسوعة فقه عمر ص ١٠٠ عن مصنف عبد الرزاق ٣٣٣/١١.
(٩) موسوعة فقه عمر ص ١٠٩ مع التصرف.
(١٠) موسوعة فقه عمر ١٠٩ عن خراج أبي يوسف ص ١٤١
(١١) كلالة: إعياء. المختار ص ٥٧٦.

عدوكم[1]. ولما نزل عمرو بن العاص وجنده على الروم بموقعة أجنادين، لفتحها ـ وكان قائد الروم الأرطبون، وهو أدهى الروم، وأبعدها غورا وأنكاها فعلاً، ووضع جنداً عظيماً بإيلياء والرملة.

وكتب عمرو إلى عمر بالخبر فلما جاءه كتاب عمر قال: رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عَمَّ تنفرج[2].

ولما أراد عمرو أن يجمع المعلومات عن الأرطبون وجيشه، حتى يضع خطته الحكيمة لمهاجمته، والانتصار عليه. فكر بفطنته ودهائه في خطة محكمة تمكنه من جَمْع هذه المعلومات عن العدو، دون علمه، فذهب عمرو بنفسه إلى أرطبون الروم كأنه رسول من قبل أميره، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد، ولما شك أرطبون في أمره على أنه هو عمرو، أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيه، أسر في نفسه أن يقتله، وفعلاً دعا حرسياً فسارّه بقتله إذا مر به عائداً إلى قومه.

ولكن كيف ذلك مع عمرو بن العاص داهية العرب؟

لقد فطن عمرو للأمر، فاستعمل على الفور دهاءه وفراسته، وحسن سياسته التي تتناسب مع هذا الأمر الخطير الذي طرأ عليه فجأة، فقال للأرطبون: قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، فأما ما قلتهَ فقد وقع مني موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه[3] ويشهدنا أموره، فأرجع فَآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عَرَضْتَ مثل الذي أرى، فقدرآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك، فقال: نعم. . . . وقال لعمرو انطلق فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها، وعلم الروميُّ بأنه قدخدعه، فقال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق. فبلغت عمر بن الخطاب فقال: غلبه عمرو لله عمرو[4].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا ينبغي أن يلي هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خصال: اللين من غير ضعف، والشدة من غير عنف، والإمساك من غير بخل، والسماحة

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ١٤١، موسوعة عمر بن الخطاب ص ١٠٩.
(٢) تاريخ الطبري ١٥٧/٤.
(٣) كنفه: حاطه وصانه وبابه نصر. والكنف بفتحتين الجانب. وتكنفوه واكتنفوه وكنفوه تكنيفا أحاطوا به المختار ص ٥٨٠.
(٤) تاريخ الطبري ١٥٧/٤.

من غير سرف، فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث[1].

خامساً: أن يكون القائد حاذقاً لبقاً ممن له رأي وعقل وبصر بالحروب.

فهو كما قلنا آنفاً قائد داعية، يحمل دينا كلّف بتبليغه، لذا يجب أن يكون لبقاً حاذقاً لما يدعو إليه. يقول صاحب المغني في كلامه على أمير الحرب: . . . ويكون ممن له رأي وعقل ونجدة وبصر بالحرب ومكايدة للعدو، ويكون فيه أمانة ورفق ونصح للمسلمين. . .[2].

فقد كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يرسل الدعاة لدعوة رستم إلى الإسلام، وكان يختارهم من ذوي الرأي والنجدة والفضل مثل: المغيرة بن شعبة، وحذيفة بن اليمان وعاصم، وأصحابهم[3] وكان هذا الذي يحدث في بقية جبهات القتال، بأن يرسل الرسل من فقهاء الناس وحذاقهم، وأكثرهم لباقة في القول ورجاحة في العقل حتى يستطيعوا دعوة هؤلاء الأعداء إلى الإسلام بالحجة والمنطق السليم.

سادساً: الرغبة في العمل.

كان من خطة عمر رضي الله عنه أن لا يوليَّ رجلا عملا لا رغبة له فيه ولا قناعة، إلا اذا اضطر إلى ذلك، ليكون العمل أكثر إتقاناً، فقد ندب الناسَ مرة وحثهم على قتال أهل العراق، فلم يقم أحد، ثم ندبهم في اليوم الثاني فلم يقم أحد، ثم ندبهم في اليوم الثالث وهكذا ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع كان أول من انتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي، ثم تتابع الناس، فأمّر على الجميع أبا عبيد ـ وهو لذلك أهل ـ ولم يكن صحابياً، فقيل لعمر: هلا أمّرت عليهم رجلاً من الصحابة؟ فقال: إنما أؤمر عليهم من استجاب[4].

وجاء في كتاب (مختصر سياسة الحروب)[5] قوله: فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حروبه تقوى الله ومساءلته التأييد والنصر والسلامة والظفر، وأن يعلم أن ذلك إنما هو من الله عز وجل ثناؤه لمن شاء من خلقه كيف يشاء، لا بالأرب[6] منه والحيلة

---

(١) موسوعة فقه عمر ص ١٠٠ عن مصنف عبد الرزاق ٢٩٩/٨.
(٢) المغني لابن قدامة ٣٥٢/٨ وانظر الأم للشافعي ٩١/٤ ما معناه.
(٣) تاريخ الطبري ١١٥/٤.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٩/٧، موسوعة فقه عمر ص ١٠١.
(٥) المرثمي ص ١٥ تحقيق عبد الرؤوف عوف انظر: الفاروق القائد ص ٧٠.
(٦) الأرب: العقل، والرجل الأريب: العاقل.

والاقتدار والكثرة، وأن يبرأ إليه جل وعز من الحول والقوة في كل أمر ونهي ووقت وحال، وألاَّ يدع الاستخارة لله في كل ما يعمل به، وأن يترك البغي والحقد وينوي العفو، ويترك الانتقام عند الظفر إلا بما كان فيه لله رضي، وأن يستعمل العدل وحسن السيرة والتفقد للصغير والكبير بما فيه مصلحة رعيته، وأن يعتمد في كل ما يعمل به في حربه طلب ما عند ربه عز وجل، ليجتمع له خيرا الدنيا والآخرة[1].

وقال أيضاً:[1] الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال: المحبة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض. وقد يحتاج في اجتماع هذه إلى آلات كثيرة وأعمال لطيفة. تفقد من أمور أصحابك جميع ما يعود نفعه عليهم، استزد محسنهم بالتكرمة، وقدم قبل الإساءة إلى مسيئهم بالمعذرة، واستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستصلح لهم غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة، ولا مستريح إلى كشف غامض العورة، فإنه لا يصلح الرعية إلا بعض تغابي الراعي عن فلتات زللها... فوضِّ إلى قوادك وولاة جندك أمور أصحابهم، ورضهم لهم من غير أن تأذن لأحد ببسط يده في أخذ مال أو عقوبة، إلا عقوبة أدب في صغائر الأمور، فأما غير ذلك فلا يلينَّهُ غيرك أو صاحب أحداثك[2] بأمرك[3].

وجاء في ذكر فضائل الرئيس وأصحابه قوله: أفضل الرؤساء أيمنهم نقيبة[4]، وأكملهم عقلاً، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتاً[5] وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، وتسييرهم أوان المسير، وإنزالهم أوان النزول، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وأن يكون حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً[6].

وقد جمع الشافعي رحمه الله ما ينبغي أن يتوفر في أمير الحرب فقال: ... ولا ينبغي

---

(١) مختصر سياسة الحروب للهرثمي ص ١٦: انظر الفاروق القائد ص ٧١.

(٢) صاحب الأحداث: الشخص المكلف بالتحقيق فيها، والحكم على أصحابها، ويطلق على صاحب الأحداث: المحاكم العسكرية.

(٣) مختصر سياسة الحروب ص ١٦ انظر القاروق القائد ص ٧١.

(٤) ميمون النقيبة: السجية والطبيعة، أو مبارك النفس.

(٥) الصوت: الذكر الحسن.

(٦) مختصر سياسة الحروب للهرثمي ص ١٧، ١٨ انظر الفاروق القائد ص ٧١.

أن يولي الإمام الغزو إلا ثقة في دينه، شجاعاً في بدنه، حسن الأناة عاقلاً للحرب بصيراً بها غير عجل ولا نزق[1] وأن يقدم إليه وإلى من ولاه أن لا يحمل المسلمين على مهلكة بحال ولا يأمرهم بنقب حصن يخاف أن يشدخوا تحته ولا دخول مطمورة يخاف أن يقتلوا ولا يدفعوا عن أنفسهم فيها ولا غير ذلك من أسباب المهالك. . . .![2].

ثانياً: رسائل عمر إلى قادة الجند والجند:

أ ـ نَدْب الجيوش:

إن أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما تولى الخلافة ندب الناس لمحاربة الفرس بالعراق فقال رضي الله عنه: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجْعة[3]، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين الطُّرَّاء[4] المهاجرون عن موعود الله، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. .﴾[5] والله مظهر دينه ومعزُّ ناصره، ومولي أهله مواريث الأمم، أين عباد الله الصالحون؟ فلما اجتمع له البعث أمرَّ عليهم أولهم انتداباً[6] وهو أبو عبيد وقال له: اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث[7] الذي يعرف الفرصة والكفّ[8].

ب: استنفار الجيوش:

لما اجتمعت بنهاوند[9] الأعاجم عليهم ذو الحاجب[10] كتب عمر إلى النعمان بن مقرِّن[11] يستفره لملاقاتهم فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير

---

(١) النزق: الخفة والطيش، المختار ص ٦٥٥.
(٢) الأم للشافعي ٤/٩٢. (٣) طلب الكلأ في موضعه.
(٤) جمع طارىء من طرأ عليهم كمنع أتاهم من مكان أو خرج عليهم منه فجأة.
(٥) سورة التوبة آية ٣٣.
(٦) ندب القوم الى الأمر: دعاهم وحثهم وانتدبوا اليه: أسرعوا.
(٧) الرزين انظر خطب العرب ٢/٢١١.
(٨) تاريخ الطبري ٤/٦١ جمهرة خطب العرب ص ١/٨٩ عن الكامل لابن الأثير ٢/٢١١.
(٩) نهاوند: من بلاد الفرس قرب همذان. تاريخ الطبري ٤/٣١، معجم البلدان ٨/٣٢٩، انظر أيام العرب في الاسلام ص ٣٢٦.
(١٠) رجل من الأعاجم. تاريخ الطبري ٤/٢٣٢.
(١١) النعمان بن مقرن المزني صحابي مشهور، استشهد بنهاوند، سنة إحدى وعشرين. تقريب التهذيب ٢/٣٠٤ لابن حجر باختصار.

المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام الله عليك، أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد بلغني أن جُموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا، فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحبُّ إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك[1]. وقد ولّاه عمر حربهم وأمره بالمسير حتى يأتي ـ ماه ـ ثم ينتظر الجيوش التي ستأتيه من الكوفة ثم يسير بالجميع إلى نهاوند وأمرهم عمر أن يستنصروا بالله، ويكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله[2] وقد كان عمر قد كتب أيضاً إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان أمير الكوفة أن يستنفر من أهلها مجموعة مقاتلين لتكون مع النعمان في حرب نهاوند فكتب إليه عمر يقول: أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى ماه فليوافوه بها. . . . . [3].

جـ ـ تشييع الجيوش:

وشيع جيش سعد بن أبي وقاص، حين وجهه لحرب العراق، فقام عُمَر في الناس خطيباً فقال: إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم الأقوال ليحيى بها القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئاً فلينتفع به، وأن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات: فالحياء والسخاء والهين واللين، فَبَابُ العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبلَهُ حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولا تُصَانِع[4] في ذلك أحداً، واكتف بمن يكفيه الكفاف، فمن لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء، إني بينكم وبين الله، وليس بيني وبينه أحد، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع، فإلى من يُبَلِّغُنَاهَا، نأخذ له الحق غير مُتَعْتَع[5].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٣٢، خطب العرب ص ٢٦٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٣٩ مع تصرف يسير في العبارة.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٢٣٩ وجمهرة رسائل العرب ص ١/٢٦٨.

(٤) المصانعة: الرشوة، وفي المثل: من صانع بالمال لم يحتشم من طلب الحاجة. المختار ص ٣٧١.

(٥) التعتعة: التردد (مختار ص ٧٧) والمراد نأخذ له الحق غير مترددين ولا مبالين بأحد.

د ـ : التحريض على القتال:

أولاً: فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة يثبته ويحرضه على قتال الروم في موقعة اليرموك فقال: أما بعد: فقد قدم عليَّ أخو ثُمَالة بكتابك يخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين برّاً وبحراً، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقِسِّيسيهم ورهبانهم، وإن ربنا المحمود عندنا، والصانع لنا، والعظِيم ذا المنِّ والنعمة الدائمة علينا، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيث بعث محمداً ﷺ بالحق، وأعزه بالنُّصرة، ونصره بالرعب على عدوه وقال وهو لا يخلف الميعاد: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1] فلا تهولنَّك كثرة ما جاءك منهم، فإن الله منهم بريء ومن برىء الله منه كان قَمِناً[2] ألَّا تنفعة كثرة، وأن يكِلَه الله إلى نفسه ويخذُله، ولا تُوحشْك قلة المسلمين في المشركين[3] فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه، فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقىَ عدوك وتناجزَهم، وتستظهرَ بالله عليهم، وكفى به ظهيراً، ووليا ونصيرا، وقد فهمت مقالتك: احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا، ودينَهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم مالا قبل لهم به، إلا أن يُمِدَّهُم الله بملائكته، وبأتِيهم بغياث من قبله.

وايْمُ اللَّهِ لولا استثناؤك بهذا لقد كنت أسأت، ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار.

ولقد قال الله عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ[4] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[5] فطوبىَ[6] للشهداء، . . . ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[7] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُم فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا واللَّهُ يحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّت أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ واللَّهُ يُحِبُّ

---

(١) سورة الصف آية ٩.

(٢) القمين كأمين، والقمن ككتف وجبل (جمهرة رسائل العرب هامش ١ ١/١٨٣، قَمِنَ أن تفْعل كذا بفتح الميم أي خليق وجدير، لا يُثنَّى ولا يُجمع ولا يؤنث. مختار ص ٥٥٢.

(٣) أي جنب المشركين. (٤) نحبه: أجله.

(٥) سورة الأحزاب آية ٢٣. (٦) الحسنى والخير.

(٧) قيل ربيون: هم العلماء الأتقياء الصبر، وقيل: الجماعات الكثيرة.

الْمُحْسِنِينَ﴾[1] فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة.

وأقرأ كتابي هذا على الناس، ومُرْهم فليقاتلوا في سبيل الله، وليصبروا كَيْمَا يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. فأما قولك: إنهم قد جاءهم ما لا قِبَل لهم به، فإنْ لاَ يَكُنْ لكم بهم قِبَل، فإنَّ لِلَّه بهم قبلاً، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا، لهيهات ما قد أبادونا[2] وأهلكونا، ، ولكن نتوكل على الله ربنا، ونبرأ إليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فأخلصوا لله نيتكم وارفعوا اليه رغبتكم واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون[3].

قال عبد الله بن قرط: دفع إليّ عمر هذا الكتاب، وأمرني أن أعجل المسير، وقال: إذا قدمت على المسلمين فسِر في صفوفهم، وقِفْ على أهل كل راية منهم، وأخبرهم أنك رسولي إليهم، وقل لهم: عمر يقرئكم السلام، ويقول لكم: يا أهل الإسلام، اصدُقُوا اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث، واضربوا هاماتهم بالسيوف، وليكونوا أهون عليكم من الزّر[4] فإنا قد كنّا علمنا أنكم عليهم منصورون فلا تهولنكم كثرة عدوكم ولا تستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم[5].

ثالثاً: وصاياه ونصائحه لأمراء الجند والجند:

أ ـ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الألوية:

بسم الله وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور[6] ولا تقتلوا هَرِماً ولا امرأةً ولا وليداً، وتَوَقَّوْا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شَنٍّ[7] الغارات[8].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٦، ١٤٨.
(٢) ما مصدريه، والمصدر المؤول فاعل هيهات، أي لوقعت إبادتهم لنا منذ زمن بعيد.
(٣) جمهرة رسائل العرب ١/١٨٢، ١٨٤، فتوح الشام للأزدي ص ١٨٢.
(٤) طائر ضعيف. (٥) فتوح الشام للأزدي ص ١٨٤.
(٦) الغلبة. (٧) شن الغارات عليهم: صبها من كل وجه.
(٨) جمهرة خطب العرب ١/٩١ عن العقد الفريد ١/٤٠.

ب ـ وصيته لسعد بن أبي وقاص. عندما سرحه لحرب العراق:

قال له: قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتاداً[1]، فعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبرَ على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته، واجتناب معصيته، وإنما أَطَاعَهُ مَنْ أطاعه ببغض الدُّنيا وحب الآخرة، وعَصَاهُ من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئُها الله إنشاء، منها السِّر، ومنها العلانية. فأما العلانية فأن يكون حامده وذامُّه في الحق سواء، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس، فلا تزهد في التحبُّبِ، . . . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك[2].

عدم إرهاق الجيش: لأن إرهاق الجيش يؤدي إلى هبوط الروح المعنوية والكفاءة القتالية فيهم، وفي ذلك ما فيه من أسباب خذلانه، ولأنه يؤدي إلى ضعف الثقة بالحاكم، قال عمر: ولكم عليّ ألَّا ألقيكم في المهالك ولا أحجزكم في ثغوركم، وقال لبعض قواده: قاتلوا بهم ـ الجنود ـ الكفار طاقتهم، فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم[3].

جـ ـ: وكتب عمر إلى سعد رضي الله عنهما ينصحه بالسير إلى فارس يقول:

أما بعد: فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله، واستعن به على أمرك كله، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة[4]، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع وإن ـ كان سهلاً ـ كؤود[5]، لبحوره وفيوضه ودآدائه[6] إلَّا أنْ تُوافِقُوا غَيْضاً منْ فيض[7].

وإذا لقيتم القوم، أو أحداً سنهم فابدؤوهم الشد والضرب، وإياكم والمناظرة

---

(١) العتاد: العدة.
(٢) جمهرة خطب العرب ١/٩٢ ت الطبري ٤/٨٥.
(٣) الخراج لأبي يوسف ١٢٧، موسوعة فقه عمر ص ١٠٩.
(٤) زائدة. (٥) صعب.
(٦) جمع دأداء وهو الفضاء وما اتسع من التِّلاع والأودية.
(٧) غاض الماء: قلّ: وفاض فيضاً كثر.

لجموعهم، ولا يخْدَعُنَّكمْ فإنهم خدعة مكرة، أمرهم غير أمركم، إلا أن تجادُّهم، وإذا انتهيت إلى القادسية ـ والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، ولما يريدونه من تلك الأصل[1] وهو منزل رغيب، خصيب حصين، دونه قناطر، وأنهار ممتنعة ـ فتكون مسالحك[2] على انقابها...[3].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يهدأ أبداً، فكان دائم النصح للدعاة الفاتحين وتزويدهم في كل لحظة بتعليماته وأوامره لما يجده صالحاً وفيه النصر للإسلام والمسلمين ولنشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها.

ومن أوامره لقواده ومن معه من الأجناد كتابه الذي كتبه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومن معه من الأجناد حيث قال: أما بعد[4]: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المُسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شرٌّ منا، فلن يسلط علينا فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل ـ لما عملوا بمساخط الله ـ كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً، واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم...

وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم[5] مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم (والسفر لم ينقص قوتهم) لأنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع[6]، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة

---

(١) الأصل والأصول: جمع أصل، ورغيب أي يرغب فيه لملأ منه.
(٢) جمع مسلحة كمرحلة وهي القوم ذو سلاح.
(٣) جمهرة رسائل العرب ٢٣٢/١ تاريخ الطبري ٨٩/٤.
(٤) جمهرة رسائل العرب ٢٣٣/١ عن العقد الفريد ٤٠/١.
(٥) تجشمهم: تتعبهم.
(٦) الكراع: من كل شيء طرفة، واسم يجمع الخيل.

يحيون فيها أنفسهم، ويرمُّون[1] أسلحتهم وأمتعتهم. . .[2] وليكن منك عند دُنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا[3] بينك وبينهم. . . . واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد. . .[4].

رابعاً: التخطيط والمتابعة والتنسيق بين الجيوش وملاحظة فلول المنهزمين:

أ ـ: رسم الخطط الحربية:

فقد كان عمر رضي الله عنه يرسم الخطط الحربية للجيش في ميدان المعركة، وكانت خطته تأتي بدقة متناهية كأنه حاضر القتال ويعرف الأرض أكثر من معرفة أهلها لها.

فلما ملَّك الفرس يَزْدَ جرْد بن كسرى، واطمأنت فارس واستوثقت[5] كتب المثنى بن حارثة[6] إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما ينتظر المسلمون ممن بين ظهرانيهم[7] فرد عليه عمر يقول: أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة ولا مُضَر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم، فلتلقوا جدهم بجدكم[8].

فكانوا في أمواه[9] العراق من أولها إلى آخرها مسالح يغيث بعضهم بعضاً إن كان كون[10].

---

(١) يرمّون: يصلحون.

(٢) جمهرة رسائل العرب ١/٢٣٣ وما بعدها عن العقد الفريد ١/٤٠.

(٣) القطعة من الجيش.

(٤) جمهرة رسائل العرب ١/٢٣٣ وما بعدها عن العقد الفريد ١/٤٠.

(٥) كان الفرس قد شغلوا عن المسلمين بما شجر بينهم من خلاف على من يلي أمر الملك. . . حتى وجدوا غلاماً يدعى يزدجرد من ولد شيريار ابن كسرى، فجاءوا به فملكوه واجتمعوا عليه واتحدت كلمتهم.

(٦) وكان أبو عبيد بن مسعود قد مات في وقعة الجسر التي نشبت بين الفرس والمسلمين حيث قتله الفيل ومات وتولى مكانه المثنى بن حارثة.

(٧) ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد: من كان لهم منهم عهد ومن لم يكن ويقال: هو بين ظهريهم وظهرانيهم (ولا تكسر النون) وبين أظهرهم أي وسطهم.

(٨) جمهرة رسائل العرب ١/٢٢٩ ت الطبري ٤/٨٢.

(٩) الماه: قصبة البلد، الماهان: ماء الكوفة وماء البصرة (البداية والنهاية ٧/١١٩ هامش٢.

(١٠) جمهرة رسائل العرب ١/٢٢٩ ت الطبري ٤/٨٢.

٢ : وقد رسم عمر رضي الله عنه الخطة الحربية لتعبئة الجيوش بشراف[١] بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه تمهيداً لسيرها إلى فتح القادسية فأرسل إلى سعد يقول: إذا جاءك كتابي هذا، فعشِّر الناس وعرِّف عليهم، وأمِّر على أجنادهم، وعبِّهم ومُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدِّرْهُم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمره[٢].

فلما فرغ سعد من تعبئته وأعد لكل شيء من أمره جماعاً ورأساً كتب بذلك إلى عمر ابنِ الخطاب رضي الله عنه[٣] ينتظر أمره إليه بالتوجه لفتح القادسية.

وبينما هو كذلك إذ قدم عليه وهو بشراف كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه: أما بعد: فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله، واستعن به على أمرك كله.... وإذا لقيتم القوم، أو أحداً منهم فابدءوهم الشَّد، والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة، أمرهم غير أمركم، إلا أن تجادوُّهم، وإذا انتهيت إلى القادسية ـ والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتِّهم، ولما يريدونه من تلك الأصل: وهو منزل رغيب، خصيب حصين، دونه قناطر، وأنهار مختلفة ـ فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحَجَرِ والمَدَرِ، على حافات الحَجَر، وحافات الْمَدَرِ، والكراع بينهما، ثم الزم مكانك ولا تبرحه، فإنهم اذا أحسوك أنغضتهم[٤] رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم وَرَجِلهم، وَحدُّهم وجِدُّهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم، واحتسبتم لقتاله، ونويتم الأمانة، رجوت أن تُنْصُروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثله أبداً، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم، إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ، وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة[٥].

وكتب إليه عمر رضي الله عنه أيضاً باليوم الذي يرتحل به من شراف حيث قال: فإذا

---

(١) ماء بنجد. (٢) جمهرة رسائل العرب ١/٢٣١، ت الطبري ٤/٨٧.

(٣) ت الطبري ٤/٨٨.

(٤) أي حركتهم وأثرتهم (قلت: ويكون العدو في حالة نفسية سيئة عند احساسه أن المسلمين محاصرين بلادهم فينطلقوا بكل كقوتهم وهنا يسهل ابادتهم كلهم حيث أنهم سيهبون بدون تخطيط سليم لمفاجأتهم.

(٥) جمهرة رسائل العرب ١/٢٣٣ ت الطبري ٤/٨٩.

كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذَيْب الهجانات وعُذَيْب القوادس وشرق بالناس وغرب بهم[1].

ولما فتح الله لسعد بن أبي وقاص المدائن[2] (سنة ١٦ هـ) وهرب يزدجرد إلى حلوان[3] أتى سعد الخبر أن الفرس قد عسكروا بجلولاء[4] بقيادة مهران فكتب سعد إلى عمر رضي الله عنه فكتب إليه بالتخطيط الآتي: -

أن سرح هاشم بن عتبه إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى ميمنته سعد بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عمرو بن الجهني[5].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دائم المتابعة والتقصي لأخبار الدعاة الفاتحين، وكان يرسل إلى أمراء الأجناد أن يوافوه باستمرار بأخبار ما يدور حولهم، وأيضاً كان يطلب منهم أن يصفوا له الأرض التي ينزلون عليها وكذا أرض عدوهم ومن هم قواده؟ وأن يصفوا له البلاد التي حلوا بها وصفاً كأنه ينظر إليها، وذلك حتى يستطيع أن يمدهم بخططه ومشورته وأوامره بالدقة المطلوبة التي تحقق لهم النصر على عدوهم.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو بصدد فتح القادسية يقول له: . . . واكتب إليَّ: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به، قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين (المدائن) صفه كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية. . .[6].

ولما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر، كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أن صف لي مصر) فكتب إليه عمرو بن العاص وصفاً دقيقاً شاملاً لمصر وما فيها

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١/٢٣٣ ت الطبري ٤/٨٩.
(٢) المدائن: عاصمة الفرس بناها أنو شروان (أيام العرب ٢٩٤).
(٣) حلوان: بلدة تقع في شمال الجزيرة من كبرى مدن العراق (القاموس الاسلامي ٢/١٢٦).
(٤) جلولاء: بلدة في طريق خراسان في نحو أربعين ميلا في شمال المدائن (امام العرب ٢٩٨).
(٥) جمهرة رسائل العرب ١/٢٥٥، ت الطبري ٤/١٧٩.
(٦) الخبر اليقين.

من زروع وأشجار وبحار وأنهار، وعن حياة أهلها وعاداتهم. . . . فلما ورد الكتاب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لي خبراً كأني أشاهده[1].

وكان من حكمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لا يقدم على فعل شيء أو يأمر غيره بفعله إلا بعد التأكد تماماً من ذلك الفعل.

فعندما ألح معاوية عليه في غزو البحر، وكتب إليه كتاباً يرغبه فيه ويقول: يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص[2]، ورفض عمر إجابه طلبه لأنه لا يعرف شيئاً عن البحر ولا راكبه، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص ـ عامله على مصر ـ صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه[3]، ولما كتب له عمرو بن العاص وصف البحر وراكبه في كلمة موجزة ومعبرة حيث قال: . . . .هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق[4].

نهى عمر بن الخطاب على الفور عن ركوب البحر لخطورته على الجند، وكتب إلى معاوية: لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً[5]. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الخوف على المسلمين ولا يحب أن يجازف بهم في أي مكان تكون هلكتهم فيه أرجح من نجاتهم، وكان مراراً ما يوصي أمراء الجند. فقد كتب رضي الله عنه إلى النعمان بن مقرِّن عندما وجهه إلى فتح نهاوند. . . . سر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار. . .[6].

وهكذا كان عمر رضي الله عنه دائم المتابعة والسؤال عن أمر هؤلاء الدعاة الفاتحين، لدرجة أن هذا كان شغله الشاغل في كل وقت. وكان يخرج من المدينة ليستنشق الأخبار من الركبان فقد سأل ذات يوم راكباً عن أمر القادسية، فأجابه الراكب أن الله فتح على المسلمين بها، وغنموا غنائم كثيرة[7].

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٢/١، ٣٣، جمهرة رسائل العرب ٢١٢/١، ٢١٣.

(٢) يعني جزيرة (قبرس) وقد غزاها معاوية وفتحها في خلافة عثمان سنة ٢٨هـ (جمهرة رسائل العرب ٢١٣/١ هامش «١» ت الطبري ٥١/٥).

(٣) جمهرة رسائل العرب ٢١٤/١، ت الطبري ٥١/٥، العقد الفريد ٢٨/١ البيان والتبيين ٥٧/٢.

(٤) برق: كفرح ونصر: تحير حتى لا يطرق أو دهش فلم يبصر.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١١٩/٧. (٦) البداية والنهاية مع تصرف في العبارة ٤٩/٧.

ولما فتح الله الإسكندرية بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب بشيراً له بالفتح... فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخر عمر ساجداً، وقال: الحمد لله ثم قال له أمير المؤمنين: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل[1]، قال: بئس ما قلت، أو بئس ما ظننت، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟[2].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينسق بين الجيوش في ميادين القتال وبين الجبهات المختلفة وذلك كان يتم بانسياب المعلومات من جميع قادة الجند إليه، ثم يقوم رضي الله عنه بدراسة هذه المعلومات والبيانات ويرسلها إلى جميع الجبهات في صورة أوامر يومية لأمراء الجند والجند للعمل بموجبها. فكانت هذه الطريقة من التنسيق بين الجيوش لها أهمية قصوى في ميادين القتال، لأنها تمكنه من معرفة الجبهة المحاطة بالأعداء، فيسرع بتعزيزها وإمدادها من الجبهات الأخرى غير المحاط بها، وبهذا تكون كل جبهاته القتالية مع الأعداء في حالة استعداد ويقظة واستنفار دائم بأن تكون كل جبهة في مساعدة وتعزيز الأخرى، الأمر الذي يجعل المقاتلين يشعرون بالاطمئنان النفسي دائماً وبالرُّوح القتالية العالية، وهذا يعطيهم قوة من الثبات والصبر أمام عدوهم مما يؤدي إلى انتصارهم في النهاية. ولنأخذ مثالاً على ذلك:

فإن جمعاً من الروم عزموا على حصار أبي عبيدة بحمص[3]، واستجاشوا[4] أهل الجزيرة، وخلق ممن هنالك، وقصدوا أبا عبيدة، فبعث أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه من قنسرين، وكتب إلى عمر بذلك[5] فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به[6]، وتقدم إليهم في الجد والحث[7].

وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا[8] الروم على حصار أبي

---

(١) قال من باب باع، وقيلولة: أيضاً، ومقيلا: فهو قائل (والمراد: النوم عند الظهيرة) مختار ٥٥٩.

(٢) الخطط للمقريزي ١٦٦/١ مع تصرف يسير بحذف بعض العبارات.

(٣) حمص: مدينة سوريّة. تقع في وادي نهر العاصي وهي سوق تجارية هامة (القاموس الإسلامي ١٥٨/٢).

(٤) استجاشوا: استعانوا، واستجاشه: طلب منه جيشاً (البداية والنهاية ٨٤/٧ هامش ١).

(٥) البداية والنهاية ٨٤/٧. (٦) محاصر.

(٧) تاريخ الطبري ص/١٩٥، جمهرة رسائل العرب ٢٦٠/١ وانظر البداية والنهاية ٨٤/٧.

(٨) أعانوهم.

عبيدة، ويكون أمير الجيش عياض بن غُنم[1]. ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم، واستثاروهم أن الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا الجزيرة يريدون أم حمص، تفرقوا إلى بلدانهم، وخلوا الروم، وعندئذ قاتل أبو عبيدة الروم فانتصر عليهم، وقدم القعقاع في أهل الكوفة في ثلاث من يوم الوقعة، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، وبقدوم المدد عليهم في ثلاث، وبالحكم في ذلك، فكتب إليه عمر: أن أشركوهم فإنهم قد نفروا إليكم، وتفرق لهم عدوكم، وقال: جزى الله أهل الكوفة خيراً، يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار[2].

ولما أراد العلاء بن الحضرمي - وهو على البحرين - أن يغزو فارس، ندب أهل البجرين إليها وحملهم في البحر دون إذن عمر ولما أراد الجنود أن يقصدوا إلى البصرة لم يجدوا سبيلاً في البحر إلى ذلك إذ غَرقت سفنهم.

ولما بلغ عمر ما صنع العلاء، كتب إلى عتبه بن غزوان: أن العلاء بن الحضرمي حمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم أن لا ينصروا وإن[يغلبوا وَيَنْشَبُوا[3]، فاندب إليهم الناس، واضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا[4]. كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دائم الحث على تتبع آثار المنهزمين من العدو.

فقد كتب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص: إن فتح الله عليكم جلولاء، فَسَرج القعقاع بن عمرو في آثار القوم،حتى ينزل بحلوان، فيكون ردءاً للمسلمين، ويحرز الله لكم سواركم[5].

فلما هزم الله عز وجل أهل جلولاء أقام هاشم بن عتبة بها، وخرج القعقاع بن عمرو في آثار القوم إلى خانقين في جند من أفناء الناس ومن الحراء، فأدرك سبياً من سبيهم، وقتل مقاتلة من أدرك وَقُتِل مهران... واستولى المسلمون على حلوان.[6].

---

(١) البداية والنهاية ٨٤/٧ تاريخ الطبري ١٩٥/٤.

(٢) تاريخ الطبري ١٩٦/٤، جمهرة رسائل العرب ٢٦٠/١، ٢٦١، البداية والنهاية مع اختلاف يسير ٨٤/٧، ٨٥.

(٣) أي يؤسروا، من نشب الصيد في الحبالة كفرح إذا علق بها.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٢٤٦/١، تاريخ الطبري ٢١٣/٤.

(٥) تاريخ الطبري ١٨٥/٤ وانظر جمهرة رسائل العرب ٢٥٥/١.

تلك كانت رسائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتبه إلى أمراء جنده وإلى جنده الفاتحين، والتي تضمنت أوامره وتعليماته ونصائحه إلى الجيوش المقاتلة في ميادين القتال المختلفة ضد أعداء الإسلام والتي كان لها التأثير الأساسي في وضع نهاية المعارك لصالح المسلمين. الأمر الذي أدى إلى فتح البلاد، وبالتالي فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية لكي تأخذ طريقها إلى قلوب تلك الشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها، والمحكومة حكماً استبدادياً من حكام ظلمة، أرادوا أن يمنعوا نور الإسلام من الوصول إليهم ظناً منهم أنهم قادرون على ذلك ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو العقل المدبر لتلك الفتوح من بدايتها إلى نهايتها، فقد أحسن رضي الله عنه اختيار القادة الذين سيقودون تلك المعارك، وانتقاهم من الأتقياء ذوي الكفاءة العالية في الشجاعة، والحنكة، ورجاحة العقل والتؤدة، لأنها الحرب لا يصلح لها إلَّا الرجل المَكِيث[2] الذي يعرف الفرصة، ولا يتعجل الأمر إلَّا عن بيان ومعرفة.

ولم تنته مسئوليته رضي الله عنه باختياره للقواد الأكفاء، بل ظل يتابعهم، وكان على اتصال دائم ومستمر بينهم عبر جسر متصل من الرسائل والرسل المتبادلة بينه وبينهم، ويسألهم عن كل شيء؟ «أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟.. صف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة أنظر إليها، واجعلني على أمركم من الجلية»[3].

فكان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كلَّ التخلي اعتماداً على القائد وحده، إذ ليس القائد بالمسئول الوحيد عن المصير[4].

لقد كان رضي الله عنه يُسَيِّر الجيوش ويُعَيِّن لها الطريق، ويمدها بالمؤن والعتاد، وكان على صلة تامة بكل حركة يقوم بها القواد، ولا تكون حركة إلا عن رأيه ومشورته، وكان يرسل إليهم الخطط الحربية عن اصطفاف الجند وكيف ومتى يهجمون على العدو، وكل

---

(١) سورة التوبة آية ٣٢.
(٢) الذي لا يتعجل.
(٣) انظر تاريخ الطبري ٤/٨٩.
(٤) انظر عبقرية عمر للعقاد ص ١٣٤.

ذلك كان يحدث منه رضي الله عنه وبينه وبينهم ألف وخمسمائة كيل في البادية[1]، مما يدل على دقته وحنكته وسهره ليل نهار في مباشرة مسئوليته، فقد قال في ذلك: لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين؟[2]. نعم لقد كان عمر رضي الله عنه مع الفاتحين لحظة بلحظة بعدد دقات قلبه المؤمن النابض بالحركة والحيوية، وتلك كانت سياسته التي لا يستطيع حاكم أن يجري غيرها في حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسب القائد في الميدان وجعلت بطل الفرس رستم يقول: إن عمر هازمه في الميدان[3] وإنه هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل أكل عمر كبدي أحرق الله كبده. . .[4] وهكذا نشر عمر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة وأعز الله به دعوته وأذل به الكفر والنفاق[5].

---

(١) سيرة عمر لعلي الطنطاوي ص ١٧٩ بتصرف.
(٢) الخطط للمقريزي ١/١٦٦.
(٣) عبقرية عمر ص ١٣٥ مع تصرف يسير (العقاد).
(٤) عبقرية عمر ١٣٥ وانظر الطبري ٤/١١٥.
(٥) انظر منهاج السنة لابن تيمية ٣/١٥٧ مع تصرف في العبارة.

البحث الثاني

الإعداد للجهاد

الإعداد للجهاد على ثلاثة أنواع:

أولاً: الإعداد المعنوي:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّه رَمَى﴾[1] فبناء على هذه الآية الكريمة فإن الله تعالى يكون رامياً مع أناس ضد أناس آخرين إذا توفر فيهم شرطان.

الشرط الأول: الإيمان بالله تعالى. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّه يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾[3].

هل هذا الشرط ـ الإيمان بالله ـ متحقق فعلاً في هؤلاء الفاتحين، حتى يكونوا أهلاً لدفاع الله تعالى عنهم؟
لا شك أن الإيمان بالله تعالى متحقق فعلاً في هؤلاء الدعاة والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[4].

فالإعداد المعنوي يشمل الإيمان بالمبادىء التي يقاتل المسلم من أجل انتشارها، وهذا أمر قد كفله الإسلام ومضى عليه عمر رضي الله عنه عندما جعل مهمة الأمراء تعليم الناس أمور دينهم حينما قال: أيها الناس إني أشهدكم على أمراء الأمصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم، ويقسموا عليهم فيئهم، ويحكموا بينهم، فما أشكل عليهم

---

(١) سورة الأنفال آية ١٧. (٢) سورة غافر آية ٥١.
(٣) سورة الحج آية ٣٨. (٤) سورة الأحزاب آية ٢٣.

شيء رفعوه إليَّ[1] وفي رواية قال عمر: إني والله ما أبعث إليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا من أموالكم ولكني أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم، وسنة نبيكم[2].

كما يشمل أيضاً توفير الكرامة للمسلم في دولة الإسلام، الأمر الذي يحفزه ويدعوه لأن يقاتل لتثبيت أركان هذه الدولة حتى يمتد ظلها إلى الآفاق.

كما يشمل أيضاً الابتعاد عن المعاصي عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم﴾[3].

وقد كان الجندي المسلم معداً معنوياً لقتال الكفار من جميع نواحي الإعداد المعنوي. فكان على إيمان عميق بالله تعالى واثقاً من نصره ونصر دينه وإظهاره على الدين كله ولو كره المشركون. ومن جهة أخرى كانت الجيوش الإسلامية على ثقة عالية جداً بقيادتها المسلمة، فكانت طائعة لها متعاونة معها لا لشيء إلا لأن هذه القيادة تطيع الله فيهم، لذلك كانت روح الجند والقادة في الجيوش الإسلامية عالية جداً فكانوا يشعرون بالكرامة والعزة في ظل الإسلام، وتحت قيادتهم المسلمة التي لا هم لها سوى السهر على راحتهم من أجل رفع أرواحهم المعنوية لقتال الفئة الكافرة والظفر عليها بإذن الله تعالى.

لقد نصروا الله في أنفسهم، فنصرهم الله على عدوهم وطوى لهم الأرض طياً ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[4].

فقد تأسوا برسول الله ﷺ حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[5] وبهذا الإيمان صلح خلقهم وصاروا قدوة حسنة ينشرون نور الإسلام في كل مكان بأخلاقهم التي اكتسبوها من رسول الله ﷺ حيث قال فيه المولى جل وعلا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[6].

ويحسن بنا أن نأتي بأمثلة حية من داخل معسكر المسلمين أنفسهم توضح بجلاء كيف كانوا يترجمون هذا الإيمان وهذا الاعتقاد القلبي، إلى دافع ملموس تحسه جوارحهم، ويلازمهم في حياتهم اليومية. وذلك عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ١٢٨.
(٢) نفسه ص ١٢٥.
(٣) سورة محمد آية ٧.
(٤) سورة الكهف آية ١٣.
(٥) سورة الأحزاب آية ٢١.
(٦) سورة القلم آية ٤.

الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. لقد كان هؤلاء الفاتحون قمة في الإيمان، وكانوا قدوة حسنة لمن بعدهم، حتى شهد لهم الأعداء بذلك فقد كانوا يقيمون الصلاة في موعدها، حتى ولو أدى بهم الأمر إلى الصلاة بالإيماء أثناء الالتحام مع أعدائهم، عندما يحمي الوطيس.

ونترك الكلام إلى رجل من العرب ممن كان على دين النصرانية قد دعاه الدرنجار ـ أحد نساك الروم ـ وأمره أن يدخل عسكر المسلمين، ويأتيه بأخبار وافية عن هَدْيِهم، وعن حالهم، وما هي أعمالهم وما يصنعون وكيف سيرتهم. وكان ذلك في موقعة اليرموك[2] التي دارت بين المسلمين والروم.

يقول الأزدي[3]: فخرج الرجل حتى دخل عسكر المسلمين، فلم يستنكروه لأنه كان رجلاً من العرب لسانه ووجهه، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح، فوجد المسلمين يصلون الليل كله كأنهم في النهار ثم أصبح، فأقام عامة يومه، ثم خرج إليه فقال: جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون، ويصومون النهار ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، رهبان بالليل، أسد بالنهار، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنا لرجموه لإيثارِهِم الحق، واتباعهم إياه على الهوى.

فقال: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالَهم ولقاءَهم من ظهرها[4]. ولما هزم الله الروم في حمص، وعلم بذلك هرقل ملك الروم ـ وهو بأنطاكيا دعا رجلاً من عظمائهم، وعدداً من فرسانهم فدخلوا عليه فقال لهم متعجباً: ويلكم من هؤلاء القوم الذين تلقونهم أليسوا بشراً مثلكم؟ وأنتم أكثر منهم عدداً وعدة؟ فقالوا: نعم نحن أكثر منهم أضعافاً، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم. فاستشاط غضباً وقال لهم: ويلكم، فما بالكم منهزمين إذا لقيتموهم؟ فسكتوا ولم يجيبوه[5].

وشهد شاهد من أهلها. فعندما سكت القوم ولم يجيبوا هرقل على سؤاله. قام شيخ منهم فقال:[6] أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون. قال: فأخبرني. قال: إنا إذا حملنا

---

(١) سورة الزخرف آية ٧٢.

(٢) اليرموك: للعرب على الروم، كان سنة ١٣هـ. واليرموك: واد بناحية الشام ينتهي إلى نهر الأردن (أيام العرب ص ٢٠٧).

(٣) فتوح الشام للأزدي ص ٢١١.

(٤) الأزدي ص ١٥٠ بتصرف في العبارة.

(٥) الأزدي ص ١٥٠ وما بعدها. (٦) أي: ينهزمون.

عليهم صبروا وَإذا حملوا علينا لم يكذبوا، ومن حيث أنَّا نحمل عليهم فنكذب، ويحملوا علينا فلا نصبر.

قال: ويلكم، فما بالكم كما تصنعون، وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما أراه إلا وقد عَلِمتْ من أين هذا.

قال له: ومن أين هذا؟

قال: من أجل أن القوم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحداً، ويتناصفون فيما بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمور، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، وَنأمن بسخط الله، وننتهي عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

قال: صدقتني والله، والله لأخرجن من هذه القرية، ولأدعن هذه البلدة، ومالي في صحبتكم من خير وأنتم هكذا.

قال له الشيخ: أنشدك الله أيها الملك ألا نترك سورية، وهي جنة الدنيا، للعرب، ونخرج منها، ولم نقاتل ونجهد؟ قال: قاتلتموهم غير مرة بأجنادين، وفحل، ودمشق، والأردن وفلسطين، وحمص، وفي غير موطن من المواطن، كل ذلك تنهزمون، وتفرون، وتغلبون[1].

ولما هزم الله الروم في مدينة قنسرين[2] ثم سار هرقل حتى نزل القسطنطينية واستقر بها ملكه وقد سأل رجلاً ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين، فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوه حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدميّ هاتين[3].

ويروي ابن كثير قصة دخول المسلمين المدائن التي كانت مستقر ملك كسرى وما صاحبها من كرامات ساقها الله للمسلمين فيقول[4]: . . .وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم اقتحم بفرسه [نهر][5] دجلة واقتحم الناس ولم يتخلف

---

(١) فتوح الشام للأزدي ص ١٥٠ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٥٩/٧.

(٣) البداية والنهاية ٧٢/٧ وما بعدها.

(٤) ما بين القوسين ليس من كلام ابن كثير وقد أثبته، ونهر دجلة يمر بالعراق.

منهم أحد، فساروا فيها كأنما يسيروا على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ودعا له فقال: (اللهم أجب دعوته، وسدد رميته) . . . ولم يفقد من المسلمين رجل واحد . . . فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: إن الإسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده، ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً.

فخرجوا منه كما قال سلمان ـ لم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً.

. . . فلما جاء سعد بالجيش دعا أهل القصر الأبيض[1] ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه وسكنه سعد[2] واتخذ الإيوان مصلّى، وحين دخله تلا قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَّعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[3]. ثم تقدم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح . . . وجمّع[4] بالإيوان في صفر من هذه السنة[5].

هكذا كان حال المسلمين عند انتصاراتهم، وكانوا يصلون لله صلاة الشكر على ما أنعم عليهم وأعطاهم إحدى الحسنيين ألا وهي النصر. وعلى النقيض تماماً كان يحدث في عسكر الرُوم والفرس، فكانوا في سُكرٍ دائم، ويعصون الله في كل لحظة حتى خذلهم الله سبحانه وتعالى وأسكن الأرض لمن يستحقها من المؤمنين.

ذكر الطبري[6] أن رستم ـ قائد الفرس ـ عندما نزل ببرس[7] فَغَصِبَ أصحابهُ النَّاسَ

---

(١) كان هذا القصر قصر الأكاسرة بالمدائن، وكان من عجائب الدنيا، ولم يزل قائماً حتى أيام المكتفي في حدود سنة ٢٩٠هـ (البداية والنهاية ٧/٧١ هامش ١).

(٢) البداية والنهاية ٧/٧٣ وما بعدها.

(٣) سورة الدخان آية ٢٥ ـ ٢٨.

(٤) صلى صلاة الجمعة.

(٥) البداية والنهاية ٧/٧٤.

(٦) تاريخ الطبري ٤/٩٩ وما بعدها.

(٧) برس: قرية ما بين القادسية والمدائن وهي جنوب المدائن بحوالي ٦٠ كيلا انظر خريطة رقم ٤ ص ٨٥ المنشورة بكتاب القادسية لأحمد كمال.

أموالهم، ووقعوا على النساء، وشربوا الخمور، فضج الفُلُوج[1] إلى رستم، وشكوا إليه ما يلقون في أموالهم، وأبنائهم. فقال: يا معشر أهل فارس... والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله للعرب في هؤلاء ـ وهم لهم ولنا حرب ـ أحسن سيرة منكم، إن الله كان ينصركم على العدو، ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة، وكف الظلم، والوفاء بالعهود، والإحسان، فأما إذا تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال، فلا أرى الله مغير ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم[2].

وفي مصر، عندما بعث المقوقس عظيم القبط رسلاً إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه. فلما أتته رسل المقوقس حبسهم عنده يومين، وليلتين، وقد أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين،

ولما جاءت رسل المقوقس إليه، قال لهم كيف رأيتموهم؟

قالوا له: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأن أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم. فقال المقوقس: والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد[3].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دائم النصح للفاتحين، ومن جملة هذه النصائح، كان يحثهم على الصلاة لوقتها، والإكثار من ذكر الله تعالى.

فعندما بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتبة بن غزوان عام أربعة عشرة إلى الحيرة قال له: وأحكم بالعدل، وصلِّ الصلاة لوقتها، وأكثر من ذكر الله[4]. ووصايا عمر في هذا الباب كثيرة جداً لو تتبعناها لملأنا أسفاراً، وإنما اكتفينا بذكر مثال فقط. وهو كاف للدلالة على ما نَقول.

وفي موقعة اليرموك أبلى المسلمون بلاء حسناً، وزحف خالد بالمسلمين حتى

---

(١) الفلاحين. (٢) تاريخ الطبري ٤/٩٩/١٠٠.

(٣) حسن المحاضرة مع تصرف في العبارة، وانظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٦٦ وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١/١٢ وما بعدها.

(٤) تاريخ الطبري ٤/١٤٨.

تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد وجرجه[1] من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب.

وصلى المسلمون صلاة الظهر، وصلاة العصر إيماء[2].

وإذا كانت الصلاة هي عماد الدين، فهي بالتالي لا تصح دون قراءة القرآن، فإن قراءة القرآن من أحسن العبادات، ومن أهمها تقرباً إلى الله تعالى، لما للقرآن من فضائل شتى ليس هنا مجال لذكرها ولكن حبذا لو أتينا بمثال حتى يستأنس به القارىء.

قال ﷺ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)[3] وقال ﷺ (إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ)[4].

وقال ﷺ: (من اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّه كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة مَضَاعَفَة، ومن تَلاَهَا كَانَتْ لَه نوراً يوم الْقِيَامَةِ)[5].

فكان الفاتحون يدوون بقراءة القرآن طول الليل دويَّ النَّحل فقد كتب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنصر على الفرس في القادسية وسمي له من استشهد من المسلمين فجاء من ضمن قوله عن الشهداء: كانوا يدوون بالقرآن إذا جَنّ عليهم الليل كدوِّي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب له[6].

إن الإيمان بالله تعالى قلباً وقالباً عند هؤلاء الفاتحين المسلمين وشدة تمسكهم بكتابهم وهدى نبيِّهم ﷺ وطاعتهم لأمرائهم فيما لا معصية لله فيه جعل منهم قدوة حسنة في قتالهم وسلمهم الأمر الذي كان له أبلغُ الأثر في سرعة انتشار الإسلام على أيديهم. فقد قال ﷺ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ. وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)[7].

---

(١) أحد قادة الروم أسلم بدعوة خالد. أنظر ابن كثير ١٤/٧، وانظر الطبري ٣٥/٤.

(٢) البداية والنهاية ١٥/٧.

(٣) أخرجه الجماعة الا مسلم انظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٦٣.

(٤) متفق عليه انظر رياض الصالحين حديث ١٠٠٩ الالباني.

(٥) رواه أحمد انظر فضائل القرآن ص ٩٢.

(٦) البداية والنهاية ٥١/٧.

(٧) خ ٩٩/١٣، م ١٨٣٥، النسائي ١٥٤/٧ انظر رياض الصالحين حديث رقم ٦٦٩ تحقيق رباح وآخرون وانظر الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤٨.

فقد خرج هؤلاء المسلمون الفاتحون يعلنون كلمة الله تعالى وينشرون دينه في أرجاء الأرض آملين أن يهدي الله بهم البشرية بهدى هذا الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجاً وبذلك يخرجون من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهداية ومن الشقاء إلى السعادة حيث قال تعالى:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً..﴾[1].

فكانوا يبدءون القوم بدعوتهم إلى الله وإظهار محاسن الإسلام فإن قبلوه هدوا إلى الله تعالى وكَفُّوا عنهم وصاروا إخواناً لهم في الإسلام الذي لا يفرق بين الأعجمي والعربي إلا بالتقوى. وإن هم أَبَوْا الإسلام فَرَضُوا عليهم الجزية، بطريقة عادلة وعلى القادر منهم فقط من الرجال دون النساء والولدان والشيوخ، وإن لم يقبلوا الجزية قاتلوهم وكانوا قدوة في قتالهم كما كانوا قدوة في سِلمهم.

فإذا قاتلوهم فإنهم لَا يَغدُرون ولا يَمْثُلون ولا يقتلون وليداً ولا امرأة ولا شيخاً ولا يمسون معبداً ولا يُخَرِّبونَ داراً ولا يُفسدون ماء ولا يترفعون بشيء على المغلوبين، إنهم لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً كما هو حال جيوش الفرس والروم، لأنهم إنما تأسوا بكتابهم وسنة نبيهم في كل شيء فقد نهى الله ورسوله عن الغلول في الحرب حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2] وكان عليه الصلاة والسلام إذا أرسل سَرِيَّة ينصحها ويقول: اغْزُو بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً[3]. وفي رواية أخرى قال ﷺ: [(انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً، وَلَا طِفْلاً، وَلَا صَغِيراً، وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَإِصْلِحُوا)[4] (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)][5].

---

(١) سورة طه آية ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦١.

(٣) سنن أبي داود ٣/٨٥ رقم الحديث ٢٦١٣ كتاب الجهاد، ومسلم بشرح النووي ١٢/٣٧.

(٤) سنن أبي داود ٣/٨٦ رقم الحديث ٢٦١٤ كتاب الجهاد.

(٥) سورة البقرة آية ١٩٥.

ثانياً: الإعداد المادي:

ويشمل هذا الإعداد كل أدوات الحرب من كراع وسلاح... الخ.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه معتنياً بذلك كل العناية، فكان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف بعير[1] وهذا عدا ما يحمل عليه من الخيل والبغال وغير ذلك.

وكان عمر رضي الله عنه يتخذ احتياطياً من السلاح والعتاد الحربي، فقد اتخذ في كل مصر على قدره من فضول أموال المسلمين عدة لأمر كان.

يقول الطبري: ...وقد كان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيلاً من فضول أموال المسلمين عدَّة لكون إن كان. فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس...[2].

وزاد ابن الأثير: وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي، وفي كل مصر من الأمصار الثمانية على قدره فإن تأتيهم آتية ركبها الناس وساروا إلى أن يتجهز الناس[3].

معنى هذا أن قوة الجيش المرابط فقط يبلغ اثنين وثلاثين ألف مقاتل مجهزين وهذا خلاف الجيوش الضاربة الرئيسة.

ومن الإعداد المادي للجهاد إيجاد اقتصاد قوي ينهض بنفقات الحرب، وقد أشار عمر إلى ذلك عندما قال: لأن أموت بين شعبتي رحْل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله أحب إليّ من أن أُقتلَ مجاهداً في سبيل الله[4].

وكان عمر رضي الله عنه بعيد النظر حين لم يقسم أرض السواد بين الغانمين، ورأى أن يكون هذا المال لتجهيز الجيوش.

يقول عمر رضي الله عنه: ورأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين، المقاتلة والذرية ولمن يأتي

---

(١) موسوعة فقه عمر ص ٢٣٠ عن موطأ مالك ٢/٤٦٤.
(٢) تاريخ الطبري ٤/١٩٥.
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٥٣٠ ـ ٥٣١ وانظر خراج أبي يوسف ص ٥١ بمعناه.
(٤) موسوعة فقه عمر ص ٢٣١.

بعدهم، أرأيتم هذه الثغور[1] لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة، ومصر؟ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، وادرار العطاء عليهم[2].

إن حجم المبالغ الضخمة التي جمعها عمر رضي الله عنه من خراج أهل السواد لتوضح لنا مدى الاستعداد المادي لهذه الجيوش من عدة وعتاد حربي فقد جاء في كتاب الخراج أن جباية سواد الكوفة بلغ ألف ألف درهم[3] أي يساوي مليون درهم وهو مبلغ كبير إذا ما قورن بذلك العصر المتقدم ، وقد جُمع من الكوفة فقط. وذكر ابن عبد الحكم أن خراج أرض مصر بلغ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة[4].

الإعداد البشري:

كان عمر بن الخطاب يهيء الإعداد الكافية للجهاد، فيسعى بكل اجهده أن لا يتناقص عدد المجاهدين، ولذلك رفض تقسيم أراضي سواد العراق بين المحاربين، لئلا يركن المحاربون إلى الأرض الخصبة والجني الطيب، ويتركوا الجهاد.

أخرج ابن عبد الحكم: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر مناديه أن يخرجَ إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية، أنّ عطاءهم قائم، وأنّ رزق عيالهم سائل، فلا يزرعون ولا يزارعون[5].

قال ابن وهب: فأخبرنا شربل بن عبد الرحمن المرادي، قال بلغنا أن شريك بن سميّ الغُصَيفّي أتى عمر بنَ العاص، فقال: إنكم لا تعطونا ما يحسبنا[6]، أفتَأذن لي في الزرع؟.

قال: ما أقدر على ذلك، فزرع شريك من غير إذن عمرو، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريكاً حرث بأرض مصر فكتب إليه عمر: أن أبعث إليّ به، فبعث به إليه، فقال له عمر: لأجعلنك نَكالا لمن خلفك، قال: أو تقبل مني ما قبل الله من العباد؟ قال: وتفعل؟ قال: نعم

---

(١) الثغور: جمع ثغر وهو موضع المخافة من فروج البلدان. مختار ص ٨٤.
(٢) خراج أبي يوسف ٢٦. (٣) نفسه ٢٨.
(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٧٠.
(٥) حسن المحاضرة للسيوطي ١/١٥٥، وانظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٦٢.
(٦) ما يكفينا.

فكتب إلى عمرو بن العاص: أن شريكاً بن سمي جاءني تائباً. فقبلت منه[1].

وجاء في فتوح مصر: فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكاً فقال شريك لعمرو: قتلتني يا عمرو فقال عمرو: ما أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك، قال له: إذا كان هذا رأيك، فأذن لي بالخروج إليه من غير كتاب، ولك عهد الله أن أجعل يدي في يده، فأذن له بالخروج، فلما وقف على عمر قال: تؤمنني يا أمَير المؤمنين؟ قال ومن أي الأجناد أنت؟ قال: من جند مصر، قال: فعلك شريك بن سميٍّ الغُطَيفي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: لأجعلنك نكالاً لمن خلفك، قال: أو تقبل مني ما قبل الله من العباد؟ قال: وتفعل؟ قال: نعم، فكتب إلى عمرو بن العاص أن شريكاً بن سُميّ جاءني تائباً فقبلت منه[2].

ولم يوجه عمر اهتمامه إلى كمية الجند اللازمة للقتال فحسب بل وجه اهتمامه إيضاً إلى نوعية هؤلاء الجند، فالجندي المسلم يجب أن يكون على درجة عالية من التدريب ولذلك أمرهم بالتعرض للشمس، والتدريب على تحمل المصاعب، وتعلم الفروسية.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى أمراء الأجناد بتعلم الفروسية، فعن أبي عثمان النهدي قال: أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأَذَرْبِيجَان أما بعد: فاتزروا، وارتدوا، وانتعلوا، وألقوا الخفاف، وألقوا السراويلات وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم وزيّ العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب وتمعددوا واخشوشنوا واخلولقوا واقطعوا الركب، وانزوا على الخيل نزواً، وارتموا الأغراض. قال بن قيم: هذا تعليم منه للفروسية[3].

وكان يأمر أمراء الجند والجند بتوفير الأظافر في أرض العدو للاستعانه بها كسلاح.

قال الإمام أحمد: قال عمر: وفروا الأظافر في أرض العدو فإنه سلاح.

قال أحمد: يحتاج إليها في أرض العدو. ألا ترى أنه إذا أراد أن يحل الحبل أو الشيء فإذا لم يكن له أظافر لم يستطع. وقال عبد الحكم بن عمرو: أمرنا رسول الله ﷺ أن لا

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٥٥.

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ١٦٢ وقد اثبت السيوطي (القُصَيفيّ) وأثبتها ابن عبد الحكم (الفُطَيْفي).

(٣) الفروسية لابن قيم ص ٩ وانظر موسوعة فقه عمر ص ٢٣٢.

نخفف الأظافر في الجهاد، فإن القوة في الأظافر[1].

وإذا وجد في الجند أعزب ومتزوج ساق الأعزب على المتزوج، فقد روى ابن سعد عن أبي عثمان النهدي أن عمر كان يغزي الأعزب عن ذي الحليلة، ويغزي الفارس عن الراجل[2] وإذا ما ذهب المتزوج إلى الجهاد ذهب وحده، ولا يسمح له بأخذ ذريته وأهله معه، فعن عبد الله بن كعب أن عمر كان يعقب بين الغزاة ـ يعني من ذهب هذه الغزوة لا يذهب في التي بعدها ـ وينهي أن تحمل الذرية إلى الثغور[3].

وكان عمر رضي الله عنه يعقب الغزاة ليرتاح الجند قليلاً ـ وهو ما يسمى اليوم بتبديل القطعات المحاربة ـ ويمنع الجند من حمل الذرية إلى الثغور لئلا يشتغل الجند بأمر العناية بذريتهم وبتدبير أمر معيشتهم، وليتفرغوا إلى عدوهم، ولئلا يعرضهم للسبي[4].

أمثلة على مدى تطبيق الإعداد المعنوي والمادي والبشري في ساحات القتال مع المشركين

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعد للجهاد الإعداد المعنوي، والمادي، والبشري لجند المسلمين للقتال ضد أعداء الله المشركين، ولكن هل كان هذا الإعداد يطبق في ساحات القتال فعلاً؟ سنرى من خلال سردنا لبعض الأحداث التي وقعت في ساحات القتال الإجابة على ذلك. ولكن قبل سرد هذه الأحداث لنا وقفة أمام الآية الكريمة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قوة﴾[5].

لنرى ما هي تلك القوة التي ترهب العدو؟ هل هي قوة السلاح، والخيل، والرمي؟ أم معنى القوة بشكل عام مما يدخل فيه ما يكيد للعدو من تخطيط، وتنظيم، وتنسيق، وثبات أمام العدو، وحروب نفسيَّة وغير ذلك مما يوهن العدو، ويسبب له الهزيمة؟

---

(١) المغني لابن قدامة ٣٥٣/٨ وانظر موسوعة فقه عمر ص ٢٣٢.
(٢) موسوعة عمر ص ٢٣٢ عن كنز العمال ١١٤١٨.
(٣) موسوعة عمر ص ٢٣٢.
(٤) موسوعة فقه عمر ص ٢٣٢.
(٥) سورة الأنفال آية ٦٠.

نترك الكلام للطبري في تفسير هذه الآية الكريمة فيقول:[1] والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين من السلاح والرَّمي، وغير ذلك من رباط الخيل، ولا وجه لأن يقال: عُني بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة، وقد عم الله الأمرَ بها.

فإن قال قائل: فإن رسول الله ﷺ، قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ﴾ قيل له: إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس من الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معنى القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة، لأنه إنما قيل في الخبر ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ﴾ ولم يقل دون غيرها.

ومن القوة أيضاً السيف والرمح والحربة، وكل ما كان معونة على قتال المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم.[1]

معنى هذا أنه يندرج تحت اسم القوة كل ما كان معونةٍ على قتال المشركين، وأعمال النكاية فيهم. فمن ذلك مثلاً؛

١ ـ الرمي وما يتبعه من تحريض على القتال والثبات عليه ... الخ.
٢ ـ حسن التخطيط والتنسيق والتعبئة.
٣ ـ الشورى وعدم التنازع والصبر.
٤ ـ الفطنة والذكاء.
٥ ـ رفع الروح المعنوية للجند.
٦ ـ الحرب النفسية.
٧ ـ إذكاء العيون لجمع المعلومات عن العدو. ويحسن بنا أن نتكلم بإيجاز عن كل بند من هذه البنود السبعة.

أولاً: (ألا إن القوة الرمي) الحديث

ثبت عن النبي ﷺ أنه سابق بالأقدام، وسابق بين الإبل، وسابق بين الخيل، حضر نضال السهام، ورمي بالقوس، وطعن بالرمح، وركب الخيل مسرجة ومعراة، وتقلد السيف[2] ولما كان النضال والرمي من أشدهم نكاية للعدو فقد خصه رسول الله ﷺ فقال

---

(١) تفسير الطبري ج ١٠ ص ٣٢ سورة الأنفال آية ٦٠.
(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب الفروسية لابن قيم ص ٢ وما بعدها.

عليه السلام: (مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا) وفي لفظ (فَقَدَ عَصَى)[1].

وفي السنة أيضاً عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَيُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ. صَانِعَهُ الْمُحْتَسِبَ في عَمَلِهِ الْخَيْرَ، والرَّامِي به، والْمُمِدَّ بِهِ).

وفي رواية: (وَمُنْبِلَهُ فارْمُوا، وارْكَبُوا، وإِنْ تَرْموا أَحبَّ إِليَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا كل لهو باطل. ليس من اللَّهو محمود إلا ثلاثة، تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله فإنَّهن من الْحَق ومنْ تَرَكَ الرَّمي بَعْدَمَا عُلِّمهُ رَغْبةً فإِنَّها نِعْمَةٌ تَرَكَها) أو قال: (كَفَرَها)[2].

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ. إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّميُ، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمي . .) ثلاثاً[3].

وفي صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: خرج رسول الله ﷺ بنفر ينتضلون فقال: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً. ارموا وأنا من بني فلان)[4]لحديث.

وفي الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال: قال سعد بن مالك[5]: نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد فقال: (ارم فداك أبي وأمي)[6].

وفي سنن أبي داود، والنسائي، والترمذي عن عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رمي بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر)[7]. أي عتق رقبة مؤمنة.

وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ مَنْ ارْتَبَطَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ شِبَعه، وَرِيَّه، وَرَوْثَه، وَبَوْله في ميزانه يوم القيامة)[8].

وقد ذكر الله تعالى الرمح في كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾[9].

وفي مسند الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (بُعِثْتُ

---

(١) رواه أهل السنن، انظر الفروسية لابن قيم ص ٨ ورواه مسلم انظر رياض الصالحين حديث ١٣٤١ تحقيق الألباني.

(٢) أبو داود حديث ٢٥١٣ الفروسية لابن قيم ص ٨. (٣) رياض الصالحين ١٣٤١ نفسه ص ٩.

(٤) نفسه. (٥) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٦) الفروسية لابن قيم ص ١٤. (٧) الفروسية ص ١٤ قال الترمذي حسن صحيح.

(٨) الفروسية ص ١٣. (٩) سورة المائدة آية ٩٤.

بِالسَّيْف بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحتَ ظَلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ والصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّه بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم)[1].

وكان سعد يقول: أي بني تعلموا الرماية فإنها خير لعبكم.[2] وكتب عمر بن الخطاب إلى عبيده بن الجراح: أن علموا غلمانكم العوم، ومقاتلتكم الرمي...[3].

ونصح عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص في موقعة القادسية حيث قال: ...وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدئوهم الشد والضرب...[4].

وكان ذلك من عمر بمثابة الإعداد لقوة الرمي لجند المسلمين التي شهد بها الأعداء بأنهم: فرسان بالنهار ورهبان بالليل...[5].

وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يأمر جنده بالمحافظة على الخيول حيث يقول لهم: ...وأربعوا خيلكم وأسمنوها، وصونوها وأكرموها، فإنها جُنتكم[6] من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم...[7].

والأمثلة على بطولات المسلمين في الجهاد من الكثرة بحيث لا تتسع لها الأسفار ولكننا هنا سنذكر مثالاً واحداً فقط لنستشهد به على ما نقول.

فقد جاء على لسان أحد جنود الفرس في القادسية أنه قال لطلحة: لا والله لا تُهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والصلاح... وظل يصف بطولته الخارقة لسعد بن أبي وقاص وكيف تم له أسره.

وقد ذكر الطبري ذلك إذ يقول[8]: ... فأقيم الترجمان بين سعد والفارسي، فقال له الفارسي: أتؤمنني على دمي إن صدقت؟ قال: نعم. الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب، قال: أخبركم عن صاحبكم[9] هذا قبل أن أخبركم عمن قِبَلي، باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، ولم أر ولم أسمع

---

(١) الفروسية ص ١٧، وانظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٣٨.
(٢) الفروسية ص ٩ عن الطبراني. (٣) تاريخ الطبري ٤/٨٩.
(٤) البداية والنهاية ابن كثير ٧/٥٩. (٥) وقايتكم.
(٦) حسن المحاضرة للسيوطي ١/١٥٤ وانظر فتوح مصر لابن عبد الحكم.
(٧) تاريخ الطبري ٤/١٠٣، البداية والنهاية ٧/٤٣.
(٨) يعني طليحة الذي هجم على عسكر الفرس وقاده أسيرا.

بمثل هذا أن رجلاً قطع عسكرين لا يجترىء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة، إلى ما هو دون، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند، وهتك أطناب بيته، فأنذره فأنذرها به، فطلبناه، فأدركه الأول وهو فارس الناس، يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثاني، وهو نظيره فقتله، ثم أدركْتُهُ، ولا أظن أنني خَلَّفْت بعدي من يعدلني، وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمِّي، فرأيت الموت فاستأسرت، ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدام لهم.

وأسلم الرجل وسماه سعد مُسْلماً.

ثانياً: حسن التخطيط والتنسيق وتعبئة الجيوش:

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرسم التخطيط للمعارك ويترك تنفيذها لأمراء الجند، أي كان يضع الخطة العامة ويترك التفاصيل للقادة.

فمن نصائحه إلى سعد بن أبي وقاص بالقادسية: إذا جاءك كتابي هذا فَعَشِّر الناس وعرف عليهم وأَمِّر على أجنادهم وعَبِّهم، وَمُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدِّرْهم وهم شهود...[1].

ثالثاً: الشورى وعدم التنازع والصبر على القتال:

قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾[4] وكان عمر رضي الله عنه دائم النصح لأمراء الجند والجند بالتشاور فيما بينهم والصبر على النزال. وله أقوال كثيرة جداً في ذلك نأتي بمثال منها ومن أقواله في ذلك: عندما نصح أبو عبيد في موقعة الجسر وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ وأن يستشير سليط بن قيس، فإنه رجل باشر الحروب[5] ولما قدمت عيون أبي عبيدة فأخبروه بجمع الروم، دعا أبو عبيدة رؤوس المسلمين وذوي

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٨٧.
(٢) سورة الشورى آية ٣٨.
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٤) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٥) البداية والنهاية ابن كثير ٧/٢٩.

الهيئة والصلاح منهم ليستشيرهم ويسمع رأي جماعتهم وقال[1]: أما بعد، فإن الله عز وجل، وله الحمد، قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم، وصدقكم الوعد، وأعزكم بالنصر وأراكم في كل موطن ما تسرون به، وقد سار إليكم عدُوُّكم من المشركين بعدد كثير، ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفير الروم الأعظم، فجاؤكم براً وبحراً، حتى خرجوا إلى صاحبكم بأنطاكية، ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر، في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا اللهُ من البشر، وقد أحببت ألا أغركم من أنفسكم ولا أطوي عنكم خبر عدوكم، ثم تشيرون عليَّ برأيكم، وأشير عليكم برأيي فإنما أنا كأحدكم.[2].

وكان القادة والجند في تفاهم تام فيما بينهم، دون أدنى تنازع، وحتى في أحلك الظروف عندما عُزِل خالد بن الوليد لم يحدث أي تنازع على الإطلاق بينه وبين أبي عبيدة بل قال رضي الله عنه: بعث إليكم أمين هذه الأمة[3] وأبو عبيدة يقول في خالد: خالد سيف من سيوف الله نعم فتىً العشيرة[3].

ولما سمح أبو عبيدة لخالد بقيادة الجيش في اليرموك كان خالد متأدباً مع أبي عبيدة حيث يقول له: من كنت تجعل على ميمنتك؟ قال أبو عبيدة: معاذ بن جبل.

قال خالد: أهل ذلك هو الرضا والثقة، فولها إياه.

فأمَّر أبو عبيدة معاذاً، فوقف في الميمنة.

ثم قال خالد لأبي عبيدة: من كنت تولي الميسرة؟

قال: غير واحد. قال: فولها قباث[4] بن أشيم إن رأيت. فأمَّره أبو عبيدة، فوقف في الميسرة...

وقال خالد: وأنا على الخيل، وولِّ على الرجَالة من شئت...

وقال خالد لأبي عبيدة: أبعث إلى أهل كل راية، فمرهم يطيعوني، فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك. فخرج الضحاك يسير في الناس، ويقول: إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به. فقال الناس: سمعنا وأطعنا...[5].

وهذه الرواية تشير إلى مدى أدب خالد بن الوليد مع أبي عبيدة بعد أن استلم خالد

---

(١) فتوح الشام للأزدي ص ١٥٣ وانظر الطريق الى دمشق أحمد كمال ص ٤٠٩.

(٢) فتوح الشام للأزدي ص ١٥٣. (٣) البداية والنهاية ابن كثير ١٢٥/٧.

(٤) تابعي، من قبيلة ابن أشيم (فتوح الشام هامش ١ ص ١٨٩).

(٥) فتوح الشام للأزدي ص ١٨٨ وما بعدها وانظر الطريق الى دمشق أحمد كمال ص ٤٤٢ وما بعدها.

قيادة المعركة.

وكان الفاتحون يتحملون المشاق في سبيل الله وهم صابرون محتسبون الأجر على الله سبحانه وتعالى لا يفرون ولا يكلون مهما كان في ذلك من شدة وقسوة عليهم.

فَقَدْ حاصر أبو عبيدة بجنوده، مدينة حمص[1] حصاراً شديداً، ولحقه خالد بن الوليد وذلك في زمن البرد الشديد، . . .

وصبر الصحابة صبراً عظيماً، بحيث إنه ذكر غير واحد أن من الروم من كان يرجع، وقد سقطت رجله وهي في الخف من شدة البرد، والصحابة ليس في أرجلهم شيء سوى النعال، ومع هذا لم يصب منهم قدم ولا أصبع، ولم يزالوا في حصارها حتى انسلخ فصل الشتاء[2].

رابعاً: الفطنة والذكاء وحسن الحيلة:

فقد كان الفاتحون يتمتعون بالفطنة وحسن الحيلة والتصرف السليم.

ويظهر ذلك عندما دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على أرطبون بموقعة أجنادين كأنه رسول، فأبلغه[3] ما يريد وسمع كلامه، وتأمل حضرته حتى علم ما أراد، وقال الأرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو، أو أنه للذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيبَ القوم بأمر هو أعظم من قتله، فدعا حرسيا فَسَارَّه فأمره بفتكه، فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مر بك فاقتله. ففطن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعتَ كلامي وإني واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره، وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت. فقال الأرطبون: نعم فاذهب فأتني بهم، ودعا رجلاً فساره فقال: اذهب إلى فلان فرده، وقام عمرو فذهب إلى جيشه. ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص، فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب[4].

خامساً: رفع الروح المعنوية للجند:

إن رفع المعنوية في ميدان القتال من الأمور المهمة جداً، لأن عليها يتوقف النصر أو

---

(١) بلدة قديمة في شمال دمشق (ابن كثير ٥٨/٧.

(٢) البداية والنهاية ٥٨/٧ بتصرف.

(٣) البداية والنهاية ٦٠/٧. (٤) نفسه ٦١/٧.

الهزيمة، بصرف النظر عن قوة هذا الجيش في العدد والعدة.

لقد كان المسلمون الفاتحون واثقين تمام الثقة بنصر الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنهم نصروه في أنفسهم بطاعته سبحانه وتعالى فكانوا يحاربون بروح معنوية عالية جداً وفي ثبات كأنهم الجبال الراسيات أمام أعدائهم، وكانوا يكبرون ـ الله أكبر الله أكبر ـ كلمات ارتجت منها المدن حتى تفطرت منها بعض الجدران وهذا ما كان يخيف عدوهم منهم ويقبلون مصالحتهم إما أن يسلموا أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وكان أمراء الأجناد يدورون في صفوفهم لرفع الروح المعنوية لهم.

ومن ذلك مثلاً: وعظ أبو عبيدة المسلمين.

فقال[1]: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم... ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدءوهم بالقتال... والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا أهل القرآن، ومتحفظي الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق، ألا تسمعوا لقول الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[2] فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرَّاراً من عدوكم[3].

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ... لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً[4] وقصراً قصراً فلا يهولنكم جمعهم ولا عددهم، فإنكم لو صادفتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل[5].

وفي معركة اليرموك أيضاً كان خالد بن الوليد رضي الله عنه هادىء الأعصاب عميق النظر واثقاً في الله تعالى وبنصره، لقي خالداً ـ مقدمة الشام مغيثاً لأهل اليرموك ـ رجل من روم العرب فقال يا خالد: إن الروم في جمع كثير مائتي ألف أو يزيدون، فإن رأيت أن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٩/٧ وانظر الأزدي ص ٢١٨ ابن عساكر ٥٣٥/١.

(٢) سورة النور آية ٥٥.

(٣) ابن كثير ١٠/٧ وانظر الأزدي ص ٢١٩، ابن عساكر ٥٢٦/١.

(٤) الكفر: القرية (نفسه ١٠/٧.

(٥) الحجل: الذكر من القبج، وهو طائر معروف، المفرد: حجلة ـ محركة ـ وحجلى ـ بالكسر: اسم جمع، ولا نظير له الا ظربي.

ترجع على حاميتك فافعل، فقال خالد: أبالروم تخوفني؟ والله لوددت أن الأشقر[1] براء من تَوَجيِّه[2] وأنهم - يعني الروم - أضعفوا ضِعْفهم فهزمهم الله على يديه[3].

هذا وكلام خالد رضي الله عنه هو بمثابة رفع الروح المعنوية للجند.

سادساً: الحرب النفسية:

وكان الفاتحون يحاربون عدوهم أيضاً بالحرب النفسية فعندما حبس عمرو رسل المقوقس في فتح مصر يومين بليلتين حتى يروا ما يدور بعسكر المسلمين. لكي ينقلوا ذلك للمقوقس وبقية جنودهم، وفي ذلك ما يؤثر على نفسياتهم ويقبلوا الإسلام أو الجزية.

وعندما أرسل عمرو أيضاً رسالة[4] إلى أهل إيلياء[5] شديدة اللهجة بشكل لم يُعهد من قبل وذلك لأنهم سمعوا أن جيشاً رومياً كثيفاً قادماً لملاقات المسلمين. فقصد عمرو تخويفهم حتى لا ينقضوا عهدهم مع المسلمين، ولا يفكروا أصلاً في ذلك. فأراد عمرو تحييد أهالي إيلياء حتى يستطيع مواجهة جيش الروم الجرار.

ولما أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه القعقاع بن عمرو في ألف من الجنود لنجدة سعد بن أبي وقاص بالقادسية.

فماذا فعل القعقاع بجنوده الألف؟

لقد فكر في خديعة العدو - والحرب خدعة - وأراد أن يُكثِّر جيشه حتى يدِب الرعبُ في نفوس الأعداء. فعمد إلى تقسيم جيشه الألف أعشاراً وكلما بلغ عشرة مدى البصر، سرح في آثارهم عشرة وهكذا، وأمرهم القعقاع أن يكثروا من الغبار الكثيف، وبهذا يكون الغبار متصلاً دائماً على مدى مرور مائة مجموعة كل مجموعة عشرة.

وقد أثمرت هذه الخدعة فعلاً وظن الأعداء أن المسلمين قادمون في مدد كثيف لتعزيز سعد بن أبي وقاص، وكانت سبباً في توهين قوتهم وهزيمتهم[6].

---

(١) فرسه. (٢) التوجي: أن يشتكي الفرس من باطن حافره.
(٣) تاريخ الطبري ٤/٣٧.
(٤) انظر تفصيل ذلك في فتوح الشام للأزدي ص ١٦٥ وما بعدها.
(٥) القدس. (٦) تاريخ الطبري ٤/١٢٠ بتصرف.

سابعاً: إذكاء[1] العيون لجمع المعلومات عن العدو:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتبه للجند يأمرهم فيما يأمرهم به أن يذكوا العيون لجمع المعلومات عن الأعداء.

فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول: . . . وإذا وطئت أرض العدو فأذكى العيون بينك وبينهم، ولا يخْفَ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عين لك وليكن منك عند دُنُوِّك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السَّرايا[2] بينك وبينهم فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم. . .[3].

وقد أرسل أبو عبيدة جماعة من نصارى العرب أسلموا عيوناً للمسلمين على الروم. فقال لهم أبو عبيدة، وخالد بن الوليد: ادخلوا في عسكر الروم فاكتموا إسلامكم، وألقونا بأخبارهم، فإن في هذا لكم أجراً، والله حاسبه لكم جهاداً، فإنكم تدفعون بذلك حرمة الإسلام، وتُدِلُّون على عورة أهل الشرك.

فانطلقوا، فدخلوا عسكر الروم. ثم جاؤا بعد ما مضى من الليل نصفه. فأتَوْا أبا عبيدة بن الجراح، فقالوا له: إن القوم قد أوقدوا النيران، وهم يتعبَّون[4] لكم، ويتهيأون لقتالكم، وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين، فاصنعوا الآن[5].

---

(١) أذكى عليه العيون: أرسل عليهم الطلائع. (٢) السرية: هي قطعة من الجيش.
(٣) جمهرة رسائل العرب ١/٢٣٤ وما بعدها عن العقد الفريد ١/٤٠.
(٤) يجمعون. (٥) فتوح الشام للأزدي ص ٢١٢.

الباب الرابع

الفتوحات الإسلامية
في عهد عمر بن الخطاب وأثرها في نشر الدعوة

تمهيد

لقد بشر رسول الله ﷺ المسلمين من بعده أن الله سيفتح لهم أرض كسرى وقيصر.

فقد بشر رسول الله ﷺ سراقة بن جعشم عندما أدركه سراقة يوم خرج ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه مهاجران من مكة إلى المدينة، وقال له الرسول ﷺ (كأني بك يا سراقة وقد ألبست سواري كسرى)[1] وقال ﷺ (اكتب له يا أبا بكر) فكتب له أبو بكر كتاباً بذلك.[2] قال الشافعي وقد قال عمر لسراقة حين ألبسه سواري كسرى قل الله أكبر، فقال: الله أكبر، ثم قال: قال الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك ـ أعرابي من بني مدلج[3] وهكذا تحقق موعود الرسول ﷺ ولبس سراقة بن مالك بن جعشم سواري كسرى بعد ستة عشر عاماً من وعد الرسول ﷺ له بذلك.

وأعاد النبي ﷺ ذكر هذه النبوءة وهو يحفر الخندق مع المسلمين حول المدينة في غزوة الأحزاب... بشرهم بقصور الحيرة، وقصور المدائن، وقصور الروم وقصور صنعاء، وكان ذلك عام خمسة من الهجرة الشريفة.

وقال ابن اسحق: وحدثت عن سلمان الفارسي[4] أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليَّ صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليَّ، نزل فأخذ المِعْول من يدى فضرب به ضربةً لمعت تحت المعول بُرقة[5]، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته بُرقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته بُرقة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧/٧٦. (٢) سيرة ابن هشام ٢/١٠٣.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٧/٧٦.

(٤) سيرة الرسول ﷺ لابن هشام ٣/٢٣٤ وما بعدها.

(٥) البرقة بالضم ذات حجارة وتراب وحجارتها الغالب عليها البياض وفيها حجارة حمر وسود (جمهرة رسائل العرب ١/١٦٧).

أخرى. قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت نعم، قال:

أما الأولى: فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية: فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة: فإن الله فتح عليَّ بها المشرق.

وفي رواية أخرى[1] قال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج فرأيناك تكبر ولا نرى شيئاً غير ذلك، قال صدقتم، ضربت ضربتي الأولى: فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.

ثم ضربت ضربتي الثانية: فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.

ثم ضربت ضربتي الثالثة: فبرق منها الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا يبلغهم النصر ـ كررها ثلاثاً ـ فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق بار وعدنا النصر بعد الحصر فطلعت الاحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُه وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُه وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[2] وقال المنافقون ألا تعجبون أيحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا. وأنزل القرآن ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾[3].

وذكر الطبري عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمن عمر وعثمان وما بعده: افتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى محمد ﷺ مفاتيحها قبل ذلك[4].

ويروي البخاري[5] عن عدي بن حاتم الطائي أنه قال: (بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٦. (٢) سورة الأحزاب آية ٢٢.
(٣) سورة الأحزاب آية ١٢. (٤) تاريخ الطبري ٣/٤٦.
(٥) شرح صحيح البخاري للكرماني ٢/١٧٨ (انظر سقوط المدائن ص ٣٢٢ لأحمد عادل كمال.

رجل فشكا إليه الفاقة)[1]، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل قال النبي ﷺ: (يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة)[2] ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. فقلت ـ فيما بيني وبين نفسي ـ: فأين دعاء طيء الذين سعروا البلاد؟

ويروى أبو داود[3] عن مكحول أن رسول الله ﷺ قال: (موضع فسطاط المسلمين في الملاحم أرض يقال عليها الغوطة).[4]

وأخرج أبو داود عن ثوبان رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ إن الله زَوَى لي الأرض)[5] أو قال: (إن ربي زَوَى لي الأرض) (فرأيتُ مشارقها ومغاربها وإنَّ مُلْكَ أمتي سيبلغ ما زُوِي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمرَ والأبيضَ، وإني سَألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بِسَنَةٍ بِعَامةٍ [6] ولا يسلط عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم فيستبيح بَيْضَتَهم وإن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنةٍ عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بَيْضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها أو قَال بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يَسْبي بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المُضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُد قبائل من أمتي الأوثان وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نَبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)[7].

وأخرج أبو داود عن مسلم بن أبي بكرةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: (ينزل ناس

---

(١) الفاقة: الفقر. (٢) الظعينة: المرأة.

(٣) سنن أبي داود حديث ٤٦٤٠. (٤) الغوطة: اسم لبساتين حول دمشق.

(٥) (زوى لي الأرض) معناه قبضها، وجمعها ويقال انزوى الشيء: اذا انقبض وجمع. انظر أبو داود ٤/٤٥٠ هامش «١» وانظر المغني جزء ٦/٣٥٦.

(٦) السنة: القحط والجدب، وانما جرت الدعوة بأن لا تعمهم السنة كافة (أبو داود ص ٤٥٠ هامش «١»).

(٧) أبو داود حديث ٤٢٥٢، وانظر مسلم حديث ٢٨٨٩ باب هلاك الأمة، الترمذي في الفتن ٢٢٠٣ وابن ماجة حديث ٣٩٥٢، ومسلم في الامارة حديث ١٩٢٠ (لا تزال طائفة).

من أمتي بغائط[1] يسمونه البصرة[2] عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين)[3].

وفي رواية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له: (يا أنس إن الناس يمصرون أمصاراً، وإن مصراً منها يقال له البصرة أو البصيرة، فإن أنت مررت بها، أو دخلتها، فإياك وسباخها وكلاءها[4] وسوقها، وباب أمرائها، وعليك بضواحيها فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف، وقوم يبيتون يصبحون قردة وخنازير)[5].

وقال ﷺ ستفتح عليكم الأمصار، وستكون جنود مجندة تقطع عليكم فيها بعوث فيكره الرجل منكم البعث فيها، ويتخلص من قومه، ثم يتصفح القبائل يعرض نفسه عليهم، يقول: من أكفيه بعث كذا؟ من أكفيه بعث كذا؟ ألا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه)[6].

أخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: (إنها ستفتح لكم أرض العجم وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات، فلا يدخلها الرجال إلا بالأزر، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء)[7].

وأخرج أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (منعت العراق قفيزها[8] ودرهمها، ومنعت الشام مُدْيَهَا[9] ودينارها، ومنعت مصر إرْدَبَّهَا[10] ودينارها، ثم عدتم من حيث بدأتم)[11].

---

(١) الغائط: البطن المُطْمئن من الأرض.

(٢) البصرة، ويقال لها البصيرة، وسميت البصرة لأن المسلمين لما قدموها نظروا الى الحصباء فقالوا: ان هذه أرض بصرة، يعني حصيبة. بناها عقبة بن غزوان عام ١٧هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أبو داود حديث رقم ٤٣٠٦ تحقيق الدعاس وعادل.

(٤) كلأها: شاطىء النهر، الموضع تربط فيه السفن. أبو داود.

(٥) أبو داود حديث ٤٣٠٧ ج (٤).

(٦) أبو داود حديث ٢٥٢٥ ج ٣ تحقيق الدعاس، عادل السيد.

(٧) أبو داود حديث ٤٠١١ وابن ماجه ٣٧٤٨.

(٨) القفيز: مكيال وهو ثمانية مكاكيك والجمع أقفزة. (مختار ص ٥٤٦ ومعنى مكاكيك: مكيال «مختار ص ٦٣٠»).

(٩) المدى: مكيال أهل الشام يسع أربعة عشر أو خمسة عشر مكوكاً.

(١٠) الإرب: مكيال لأهل مصر ويقال أنه يسع أربعة وعشرون صاعاً.

(١١) أبو داود ج ٣/٣٠٣٥ وانظر مسلم في الفتن.

وأخرج البخاري من حديث أم حَرَام رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول: (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أَوْجَبُوا. قالت أم حَرام: قلت يا رسول الله أنا فيهم؟ قال أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم. فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال لا)[1] ومدينة قيصر هي القسطنطينية.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط) وفي رواية: (ستفتحون مصر وهي أرض يسمي فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحما) وفي رواية: (فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما) أو قال: (ذمة وصهراً)[2]. قال العلماء: الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل ﷺ منهم، والصهر كون مارية أم إبراهيم من رسول الله ﷺ منهم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة، فعفوا أيديكم وفروجكم، وغضوا أبصاركم...)[3].

وأخرج الشافعي[4] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)[5].

قال الشافعي: لما أتى كسرى بكتاب رسول الله ﷺ مزقه، فقال رسول الله ﷺ (يمزق ملكه)[5].

وقال أيضاً[5]: ووعد رسول الله ﷺ الناس فتح فارس والشام فأغزى أبو بكر الشام على ثقة من فتحها لقول رسول الله ﷺ، ففتح بعضها، وتم فتحها في زمان عمر رضي الله عنه

---

(١) فتح الباري لشرح صحيح البخاري ١٠٢/٦ حديث رقم ٢٩٢٤.
(٢) فتح الباري لشرح صحيح البخاري ١٠٢/٦.
(٣) رواه مسلم أنظر رياض الصالحين حديث ٣٣٣.
(٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ١٤٠ - ١٤١.
(٥) الأم للشافعي ٩٤/٤.

وفتح العراق وفارس.[1] وقال عليه السلام: (ليبلغن هذا الأمر ما يبلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به دين الإسلام، وذلاً يذل به الكفر)[2].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ: أن المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ مدينة هرقل تفتح أولاً يعني القسطنطينية)[3].

مما سبق يتضح أن رسول الله ﷺ قد بشر بفتح بلاد الفرس والروم والتي تشمل كلاً من العراق وفارس، والشام ومصر، وذلك لتأمين نشر الدعوة إلى الله تعالى.

ولا يعني تبشير الرسول ﷺ بفتح بلاد الفرس والروم لنشر الإسلام أن هذه البلاد هي المعنية فقط دون سواها من سائر بلاد العالم.، بل إن دعوة الإسلام دعوة عالمية لسائر الخلائق إلى أن تقوم الساعة. وما بلاد الفرس والروم إلا مقدمة لنشر الدعوة إلى العالمين لكونها البلاد التي تلي مباشرة البقعة المقدسة التي تشرفت بتلقي رسالة الإسلام على قلب محمد رسول الله ﷺ الا وهي مكة المكرمة والمدينة المنورة.

إن الدعوة إلى الله تعالى واجب المسلمين جميعاً، أمرهم الله تعالى بتبليغها للناس كافة في كل زمان ومكان بادئين بالذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وهكذا حتى تعم جميع الخلائق في بلدانهم المختلفة، تماماً كما لو وضعت حجراً في وسط بئر مغمور بالمياه فإنه يحدث عدة دوائر تبدأ من مركز إلقاء هذا الحجر ثم تتسع شيئاً فشيئاً إلى الخارج حتى تعم جميع مساحة سطح الماء في البئر، وهكذا دعوة الإسلام تبدأ من مركزها ثم تتسع دوائرها شيئاً فشيئاً حول مركز الدعوة (مكة ـ والمدينة) إلى أن تعم جميع الخلائق في سائر أقطار الأرض حتى تقوم الساعة، وهكذا فطر الله الأشياء ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4].

ولنا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الدليل الواضح على ذلك حيث يقول تعالى ذكره: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[5].

يقول الطبري[6] في تفسير هذه الآية الكريمة :. . . أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب،

---

(١) الأم للشافعي ٤/٩٤.
(٢) رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) رواه أحمد.
(٤) سورة الروم آية ٣٠.
(٥) سورة الأنعام آية ٩٢.
(٦) تفسير الطبري ج ٧/٢٧١.

مصدقاً ما قبله من الكتب، ولتنذر به عذاب الله وبأسه من في أم القرى وهي مكة ومن حولها شرقاً وغرباً، من العادلين بربهم غيره من الآلهة والأنداد، والجاحدين برسله وغيرهم من أصناف الكفار.

وفي رواية[1]: (أم القرى): مكة، (ومن حولها): الأرض كلها.

ويقول الطبري[2] في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجمع لَا رَيْبَ فِيهفَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[3]. (لتنذر أم القرى) هي مكة (ومن حولها) يقول: ومن حول أم القرى من سائر الناس.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[4].

يقول الطبري[5]: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بعد منهم، يقول لهم: ابدءوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم داراً دون الأبعد فالأبعد، وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم، لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ، والشام كانت أقرب إلى المدينة من العراق.

فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية قتال من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم لزم عونهم، ونصرهم، لأن المسلمين يد على من سواهم. . .[6])

وفي رواية: في قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم على الكفار﴾[7] قال: كان الذين يلونهم من الكفار العرب، فقاتلهم حتى فرغ منهم، فلما فرغ قال الله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾. . . حتى بلغ ﴿وهم صاغرون﴾[8] قال فلما فرغ من قتال من يليه من العرب أمره بجهاد أهل الكتاب، قال: وجهادهم أفضل الجهاد عند الله[9].

---

(١) تفسير الطبري ج ٧/٢٧١.
(٢) نفسه ج ٨/٢٥.
(٣) سورة الشورى آية ٧.
(٤) سورة التوبة آية ١٢٣.
(٥) تفسير الطبري ج ١١/٧١.
(٦) نفسه.
(٧) سورة التوبة آية ١٢٣.
(٨) سورة التوبة آية ٢٩.
(٩) تفسير الطبري ج ١١/٧٢.

ويقول المصطفى ﷺ في ذلك: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[1].

إذن فبدلالة الكتاب والسنة فإن المسلمين مطالبون بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى جميع الخلائق وفي سائر أنحاء الأرض وليس للروم والفرس وحدهم.

فعلى قائد الجيش الإسلامي أن يدعو من يريد حربهم من الكفار إلى الإسلام ثلاثة أيام، لعل الله يهديهم إلى الإسلام، فيعصموا بذلك دمهم ويكونوا عوناً للمسلمين، فشريعة الإسلام تقتضي أن تسبقَ الدعوة إلى الإسلام بالبيان قبل الدعوة إليه بالقتال، لأن الله تعالى لا يؤاخذ قوماً إلا بعد إنذارهم. قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾[2] وقال تعالى: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما﴾[3] وقال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[4].

وقد أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني الحرث[5] ابن كعب سنة عشر ليدعوهم إلى الإسلام فكتب إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحرث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمت فيهم، وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركباناً قالوا: يا بني الحرث أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إليَّ رسول الله ﷺ والسلاك عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته[6].

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري (فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر جزء ١/٤٣٦).
(٢) سورة الاسراء آية ١٥. (٣) سورة النساء آية ١٦٥.
(٤) سورة الأعراف آية ١٧٢.
(٥) وقد بعثه ﷺ اليهم بنجران في ربيع الآخر أوجمادى الأولى سنة عشر ليدعوهم الى الاسلام (جمهرة ١/٦١).
(٦) الطبري ٣/١٥٦، وجمهرة رسائل العرب ١١/٦١

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما: إني قد كتبت إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين، له ما للمسلمين، وله سهمه في الإسلام، ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فما له في فيء للمسلمين لأنهم كانوا أحرزوه قبل إسلامه. فهذا أمري وكتابي إليك.[1].

وعلى قائد الجيش المسلم أن يوجه إلى من يريد حربه من الكفار إنذاراً حربياً مؤلفاً من ثلاثة بنود: الدخول في الإسلام، فإن أبوا فقبول الإنضواء تحت الراية الإسلامية ودفع الجزية مع الإحتفاظ بدياناتهم، فإن أبوا فالقتال. وكان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتها أجابوك إياها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فاقبل منهم وكف عنهم)[2].

وكان ﷺ لا يقاتل قوماً قط حتى يدعوهم للأسلام.

قال أبو يوسف: لما غزا سلمان المشركين من أهل فارس قال: كفوا حتى أدعوهم كما كنت أسمع رسول الله ﷺ يدعوهم. . .[3].

وقال عمر لسلمة بن قيس: سر باسم الله تقاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسْلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء[4] المسلمين نصيب، فإن

---

(١) الأموال لأبي عبيد ص ١٣٦ وانظر موسوعة فقه عمر ص ٢٣٣.

(٢) أبو داود حديث ٢٦١٢، وأخرجه مسلم في الجهاد حديث ١٧٣١، والترمذي في السير حديث ١٦١٧.

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ٢٠٧.

(٤) الفيء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق بلا قتال، وما حملهُ الرسل بالرسالة الى الامام. وما تركه الكفار وهربوا فزعاً من جيش المسلمين قبل القتال: وما تركه الميت من مال لا وارث له، وما استخرج من كنوز ونحو ذلك. انظر موسوعة عمر ص ٥٣١، وانظر الأموال ص ٢٥٤ بمعناه.

اختاروا أن يكونوا معكم ـ أي في عداد المجاهدين ـ فلهم مثل الذي لكم ـ أي من العطاء ـ وعليهم مثل الذي عليكم، فإن أبوا ـ أي الدخول في الإسلام ـ فادعوهم إلى إعطاء الجزية فإن أقروا بالجزية فقاتلوا عدوهم من ورائهم، وفرغوهم لخراجهم، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا ـ أي دفع الجزية ـ فقاتلوهم، فإن الله ناصركم عليهم، وإن تحصنوا منكم في الحصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلوهم على حكم الله ولا حكم رسوله، فإنكم لا تدرون ماحكم الله وحكم رسوله فيهم، وإن سألوكم أن تنزلوهم على ذمة الله وذمة رسوله فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله، وأعطوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم فلا تغدروا ولا تغلوا ولا تَمْثُلُوا ولا تقتلوا وليداً. قال سلمة: فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين فدعوناهم إلى ما أمرنا به أمير المؤمنين فأبوا أن يسلموا، فدعوناهم إلى إعطاء الجزية فأبوا أن يقروا بها، فقاتلناهم، فنصرنا الله عليهم...[1]

وبعد توجيه الإنذار الحربي لا بد أن يختاروا أحد ثلاثة أمور:

الإسلام: فمن أسلم وهاجر كان له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، ومن أسلم ولم يهاجر فعليه أن يؤدي الزكاة، ويلتزم بأحكام الإسلام، ولكن له نصيب من فيء المسلمين، لأن العطاء خاص بالمجاهدين من مواطني الدولة الإسلامية. وإن رفضوا الإسلام وأقروا بإعطاء الجزية سموا عندئذ بأهل الصلح لأنهم صالحونا عن قتالهم. وإن رفضوا إعطاء الجزية أيضاً لم يبق إلا القتال[2]. لأن الجزية شرط من شروط العقد، لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ الآية[3] ولذلك قال عمر لسلمة بن قيس: ادعهم إلى الإسلام... فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية[4].

مما سبق يتبين لنا أن رسول الله ﷺ قسم الدعوة الإسلامية إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: دعوة القوم إلى الإسلام فإن هم أجابوا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

المرحلة الثانية: دعوتهم إلى دفع الجزية عن يد وهم صاغرون إن هم رفضوا الدخول في الإسلام.

المرحلة الثالثة؛ دعوتهم إلى القتال إن هم رفضوا الإسلام ودفع الجزية.

---

(١) خراج أبو يوسف ص ٢١٠ وانظر موسوعة عمر ص ٢٣٣.

(٢) موسوعة عمر ص ٢٣٤. (٣) التوبة آية ٢٩.

(٤) الخراج لأبي يوسف ص ٢١٠، وموسوعة فقه عمر ص ٣١٨.

ولنا في القرآن الكريم ما نستشهد به على ذلك إذ يقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾[1] أي جاهد الكفار بالقرآن والبيان والحجة الدامغة، وادعهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة عسى أن يؤمنوا.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخر وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2].

فالشاهد في قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية) أي إن لم يسلموا[3] ورفضوا إعطاء الجزية يقاتلوا، وعلى العكس من ذلك، فإن هم أجابوا ودخلوا في الإسلام، أو قبلوا دفع الجزية لم يقاتلوا.

هكذا عرفنا أن رسول الله ﷺ بشر صحابته والذين اتبعوهم بإحسان بأن الله سيفتح عليهم البلاد لينشروا دعوة الإسلام في ربوعها وقد وضع ﷺ اللبنة الأولى في سبيل تلك الفتوح بأن بعث جيش زيد بن حارثة إلى مُؤته بالشام عام ثمانية، ثم غزوة تبوك بالشام عام تسعة وتلاهما تجهيزه لجيش أسامة إلى الشام أيضاً وقد توفي ﷺ وأوصى بإنفاذ هذا الجيش. وهكذا وضع ﷺ اللبنة الأولى للفتوح والتي بني عليها أبو بكر الصديق فتوحه إلى الشام بعد ذلك.

وعلى هذا تكون الفتوح الإسلامية بالإصطلاح المعروف قد بدأت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فقد أنفذ رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد إلى الشام، والذي قد جهزه رسول الله ﷺ قبل وفاته وأمر بإنفاذه.

ثم تابع رضي الله عنه عقد الألوية إلى الشام لنشر الإسلام في ربوعه، فعقد لواء يزيد بن أبي سفيان وجعل له دمشق[4] ثم بعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر وخرج معه ماشياً يوصيه وجعل له نيابه حمص[5]. وبعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر على فلسطين وأمر كل أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر.

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٢. (٢) سورة التوبة آية ٢٩.
(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٨/١٠.
(٤) البداية والنهاية ٤/٧، فتوح الشام للأزدي ص ١١، الخراج لأبي يوسف ص ٤١.
(٥) البداية والنهاية ٤/٧، الخراج لأبي يوسف ص ٤٢، فتوح الشام ص ٢٩.

ثم وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالداً إلى العراق لنشر الإسلام في ربوعه، ولما كانت وقعة اليرموك[1] قال الصديق رضي الله عنه: والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، وبعث إليه وهو بالعراق ليقوم إلى الشام فيكون الأمير على من به، فإذا فرغ عاد إلى عمله بالعراق[2] وترك خالد نائبه المثني بن حارثة بالعراق الذي هزم جيشاً كبيراً لفارس، وقتل المثني شهربزار ملك الفرس[3] ثم سار المثني بجيشه يطارد الفرس حتى بلغ أبواب المدائن، ثم كتب إلى أبي بكر بانتصاره على الفرس، واستأذنه بالإستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردّة، لكن انتظاره طال، وأبطأ عليه رد الخليفة، فانسحب بالجيش إلى أدنى العراق من حدود البادية، واستخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين، وذهب بنفسه إلى المدينة ليقنع أبا بكر برأيه.

فقدم المدينة وأبو بكر مريض قد أشرف على الموت، ولكنه استقبله وسمع إليه، واقتنع برأيه، وقال: عليّ بعمر ـ وكان قد استخلفه ـ فلما جاء قال له: اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجوَ أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثني. وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثني، ولا تشغلنّكم مصيبة وإن عظمت من أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رَأَيْتَني متوفّى رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله، والله لو أنّي أنهي عن أمر الله وأمر رسوله لخذَلَنا وَلاَ عَاقَبْنَا، فاضطرمت المدينة ناراً، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردُدْ أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره، وهم أهل الضّراوة بهم، والجرأة عليهم[4].

هكذا توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجيوشه تحارب المشركين بالشام والعراق، ثم أوصى عمر رضي الله عنه بإتمام الفتوح من بعده.

ونهض عمر رضي الله عنه لهذا الأمر العظيم لنصرة دين الله، وجاهد في الله حق جهاده هو ومن معه من صحابة رسول الله ﷺ حتى نصرهم الله وأعز بهم الإسلام والمسلمين، وأذل بهم الكفر والكافرين، ولم ينتقل عمر رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى، إلا وقد فتح الله على يديه جميع بلاد الفرس والروم، وأصبحت خاضعة للإسلام

---

(١) اليرموك: واد في طريق الغور يصب في نهر الأردن.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦/٧.

(٣) البداية والنهاية ١٨/٧ بتصرف، وانظر تفصيل ذلك في فتوح الشام ص ٦٨/٨٠.

(٤) أيام العرب في الاسلام ص ٢٢٤/٢٢٥.

وتحكم بشرائعه، ودخل معظم أهلها في دين الله أفواجا.

وسنرى من خلال الباب التالي كيف تم له رضي الله عنه فتح تلك البلاد ودعوة أهلها للإسلام، مطبقاً في ذلك الخصال التي أمر بها رسول الله ﷺ وهي دعوة القوم للإسلام أولا دون قتال فإن لم يستجيبوا يؤمروا بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن رفضوا دفع الجزية استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم لفتح الطريق أمام نشر الدعوة الإسلامية.

الفصل الأول
الدعوة في بلاد الشام قبل القتال

سنذكر بعض ما كان يدور على ألسنة جند الله ودعاته الذين كان يبعثهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح بلاد الشام، وما كان منهم من دعوة أعداء الله وأعدائهم من الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين «قبل قتالهم».

ولم أذكر بالطبع كل ما كان يدور بين الدعاة من جند المسلمين وبين أعدائهم في جميع المعارك خشية الإطالة واكتفيت فقط باختيار بعض من أهم المعارك في بلاد الشام، لتكون مثالاً يوضح أسلوب هؤلاء الدعاة وطريقتهم في تبليغ الدعوة حتى يتأسى بها الدعاة إلى الله اليوم.

فعندما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة، بعث إلى عبيدة يؤمره على جند المسلمين بالشام بدلاً من خالد بن الوليد رضي الله عنه وأوصاه بتقوى الله والمحافظة على جند المسلمين.

فقد روى الطبري أن أول كتاب كتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ولي الخلافة هو كتابه إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه يوليه على جند خالد بن الوليد، هو: أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفني ما سواه، الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تُقَدِّم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده[1] لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف[2] من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة: . . .[3].

---

(١) الرائد: الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث، وقد راد أهله منزلاً وكلأ، وأراد لهم، وارتاد واسترادَ. (جمهرة رسائل العرب ١/١٥٧ هامش ١).

(٢) السرية: قطعة من الجيش. الكثف: الجماعة.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٥٤. وبنحوه قاله الأزدي في فتوح الشام ص ١٠٢ - ١٠٣.

الدعوة في فحل بالأردن:

دعوة معاذ بن جبل للروم في فحل:

لما بلغ الروم أن أبا عبيدة قد أقبل اليهم تحولوا إلى فحل فوصلوها وهي أرض من الأردن[1] وجاء المسلمون بأجمعهم حتى نزلوا بهم.

وأرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل ليدعوهم للإسلام قبل قتالهم. يقول الأزدي[2]: فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل رضي الله عنهما، فآتاهم على فرس له. فلما دنا منهم نزل عن فرسه، وأخذ بلجامه ثم أقبل إليهم يقود فرسه فقالوا لبعض غلمانهم: انطلق إليه فأمسك له فرسه. فجاء الغلام ليمسك له دابته، فقال معاذ: أنا أمسك فرسي، لا أريد أن يمسكه أحد غيري. فأقبل يمشي إليهم فإذا هم على فرش وبسط ونمارق[3] تكاد الأبصار أن تغشى منها.

فلما دنا من تلك الثياب قام قائماً. فقال له رجل: اعطني دابتك أمسكها لك، وادن أنت فاجلس مع هؤلاء الملوك في مجالسهم، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم، وقد بلغهم صلاح وفضل عند من أنت منهم، فهم يكرهون أن يكلموك جلوساً، وأنت قائم، فأجلس معهم.

فقال معاذ للترجمان: ان نبينا ﷺ أمرنا أن لا نقوم لأحد من خلق الله، ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة، والرغبة إليه، فليس قيامي هذا لكم، ولكني قمت اعظاماً للمشي على هذا البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم وأصل ملتهم، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها وقد زهّد الله في الدنيا وذّمها، ونهى عن البغي والسرف فيها، فأنا أجلس ها هنا على الأرض، وكلموني أنتم من حاجتكم من ثم، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم، فليفهمني ما تقولون، وليفهمكم ما أقول.

ثم أمسك برأس فرسه، وجلس على الأرض عند طرف البساط. فقالوا له: لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس تكرمة لك،

---

(١) بين طبرية وبيسان بوادي نهر اليرموك، كانت به وقائع كثيرة. (أزدي ص ١١١).
(٢) فتوح الشام للأزدي ص ١١٥.
(٣) جمع نمرقة وهي الوسادة الصغيرة.

إن جلوسك على الأرض منتحياً صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك[1].

فأخبره الترجمان بمقالهم. فجثا معاذ على ركبته واستقبل القوم بوجهه. وقال للترجمان: قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي يدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم، وإنما هي الدنيا التي زهد الله فيها، فهي عندكم مكرمة في الدنيا، فهذه المكرمة لكم، ولا حاجة لنا في شرف الدنيا، ولا في فخرها، ولا في شيء يباعدنا من ربنا، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم فأنتم بها مستأثرون على ضعفائكم مكرمة لمن كانت في يديه منكم عند الله، فهذا خطأ من قولكم، وجور من فعلكم، وإنه لا يُدْرَك ما عند الله بالخطأ، ولا بخلاف ما جاءت به الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ عن الله من الزهادة في الدنيا وأما قولكم، أن جلوسي على الأرض منتحياً صنيع العبد بنفسه، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعتُ، وأنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله ولا أستأثر بشيء من مال الله على اخواني من أولياء الله، وأما قولكم، إني أزريت بنفسي من مجلسي، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك، وإن قلتم إنما دخل على ذلك عباد الله فقد أخطأتم خطأ بينا لأن أحب عباد الله إليه المتواضعون لله، القريبون من عباد الله الذين لا يشغلون أنفسهم بالدنيا، ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة.

قال: فلما فسر هذا الترجمان لهم نظر بعضهم إلى بعض وتعجبوا مما سمعوا منه، وقالوا لترجمانهم: قل له، أنت أفضل أصحابك؟ فقال معاذ: عند الله، معاذ الله، أن أقول ذلك؛ وَلَيتني لا أكون شرهم.

قال: فسكتوا عنه ساعة، ولا يكلمونه، وهم يتكلمون فيما بينهم. فلما احتبسوا عنه لا يكلمونه قال لترجمانهم: قل لهم إن كانت لهم حاجة في كلامي، وإلا انصرفت عنهم.

فقال لهم الترجمان ذلك فأقبلوا عليه فقالوا للترجمان: قل له، أخبرونا ما تطلبون، وإلى ما تدعون إليه وما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة، وليسوا منك ببعيد، وتركتم أرض فارس، وقد هلك ملك الفرس،[2] وهلك ابنه، وإنما تملكهم اليوم النساء، ونحن ملكنا حيّ، وجنودنا عظيمة كثيرة، وإن افتتحتم من مدائننا مدينة أو من قرانا قرية أو من حصوننا حصناً أو هزمتم لنا عسكراً، أظننتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا، وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم، أو فرغتم مما وراءنا منا ونحن عدد السماء وحصىّ الأرض؟

---

(١) الازراء: التهاون بالشيء، يقال أزرى به اذا قصر به، ازدراه: حقّره. (المختار ص ٢٧١.

(٢) فتوح الشام للأزدى من ص ١١٥ ـ ١١٨.

وأخبرونا لم تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا؟

فلما قالوا هذا القول، وفسره الترجمان لمعاذ سكتوا. فقال معاذ للترجمان: قد فرغوا؟

قال له: نعم. قال: فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذاكر حمد الله الذي لا إله إلا هو والصلاة على محمد نبيه ـ ﷺ ـ وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده، وبمحمد ﷺ وأن تصلوا صلاتنا، وتستقبلوا قبلتنا، وأن تستنوا بسنة نبينا ﷺ. وتكسروا الصليب وتجتنبوا شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، ثم أنتم منا ونحن منكم، وأنتم أخواننا في ديننا، لكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية لنا في كل عام وأنتم صاغرون، ونكف عنكم، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم، فابرزوا الينا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1] وهذا ما نأمركم به، وما ندعوكم إليه.

وأما قولكم ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملكهم فإني أخبركم عن ذلك، ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم، وأنكم عندنا جميعاً بالسواء، وما جاءنا كتابنا بالكف عنهم، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا ﷺ، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَارِ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[2] وكنتم أقرب الينا منهم، فبدأنا بكم لذلك، وقد أتاهم طائفة منا وهم يقاتلونهم، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم، وينصرهم.

وأما قولكم إن ملكنا حي وأن جنودنا عظيمة، وأنّا عدد نجوم السماء وحصى الأرض وَتُؤيَسُّوننا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم، وإنما الأمور كلها إلى الله وكل شيء في قبضته، فإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[3]، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا، وأميرنا رجل منا، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا، وإن هو سرق قطعنا يده، وإن زنا جلدناه، وإن شتم رجل منا شتمه كما شتمه، وإن جرحه أقاده من نفسه، ولا يحتجب منا، ولا يتكبر علينا ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاء الله علينا، وهو كرجل منا.

وأما قولكم جنودنا كثيرة، فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض فأنا لا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها، ولكنا نتبرأ

---

(١) سورة الأعراف آية ٨٧. (٢) سورة التوبة الآية ١٢٣.
(٣) الآية الكريمة (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونَ) آية ٨٢ من سورة يس.

من الحول والقوة، ونتوكل على الله عز وجل، ونثق بربنا، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها، وغلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها، وقال تبارك وتعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلِبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

وأما قولكم، كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا، فأنا أخبركم عن ذلك، نحن نؤمن بنبيكم، ونشهد أنه من عبيد الله، وأنه رسول من رسل الله، وأن مثله ﴿عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، ولا نقول إنه الله، ولا نقول أنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة، ولا أن لله ولداً، ولا أن له صاحبة ولا ولداً، ولا أن معه آلهة أخرى، لا إله إلا هو ﴿تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلواً كَبِيراً﴾[3]، وأنتم تقولون في عيسى قولاً عظيماً، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول، وآمنتم بنبوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم، وكما نؤمن نحن بنبيِّكم، وأقررتم بما جاء به من عند الله، ووحَّدتم لله ما قاتلناكم، بل كنا نسالمكم ونواليكم ونقاتل معكم عدُوكم.

قال: فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له: ما نرى ما بيننا وبينك إلا متباعداً وقد بَقِيَت خصلة نحن نعرضها عليكم، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم، نعطيكم البلقاء وما وَالَى أرضكم من سواد الأردن وتنحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا، ونكتب عليكم كتاباً نسمي فيه خياركم وصلحائكم، ونأخذ عهودكم ومواثيقكم على ألا تطالبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم.

فقال معاذ: هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيْديكم مما لم نظهر عليه، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وصفت لكم ما فعلنا.

فغضبوا عند ذلك وقالوا: نتقرب إليك وتتباعد عنا؟ اذهب إلى أصحابك، فوالله أنا لنرجوا أن نفرقكم في الجبال غداً.

فقال معاذ: أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون. وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة، فأخبره بما قالوا، وبما رد عليهم[4].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩.
(٢) سورة آل عمران آية ٥٩. (٣) سورة الاسراء آية ٤٢.
(٤) فتوح الشام للأزدي من ص ١١٥ - ١٢١

دعوة أبي عبيدة الروم في فحل:

ولما علم أبو عبيدة برفض الروم دعوة معاذ بن جبل، لم يسرع في منازلة القوم، بل تريث عَلَّهم يُغيِّرون رأيهم ويقبلون ما يعرض عليهم.

وبينما أبو عبيدة والمسلمون في انتظار ذلك اذ بعث الروم إليه رجلاً يخبره عنهم قالوا[1]: إنك بعثت إلينا رجلاً[2] لا يقبل النصفة، ولا يريد الصلح ولا ندري أعن رأيك ذلك أم لا، وأنا نريد أن نبعث إليك رجلاً منا يعرض عليك النِّصف، ويدعوك إلى الصلح، فإن قبلت ذلك منه فعلّ ذلك يكون خيراً لك ولنا، وإن أبيت فلا تراه إلا شراً لك. قلت: برغم رد الروم القاسي والشديد اللهجة إلا أنه رضي الله عنه وافقهم لما يريدون.

فقال أبو عبيدة: فابعثوا من شئتم فبعثوا إليه رجلا طويلا، أحمر أزرق[3]، فأقبل حتى أتى أبا عبيدة. فلما دنا من المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من أصحابه، ولم يدْر أفيهم هو أم لا، ولم يرهبه مكان أمير. فقال لهم: يا معشر العرب، أين أميركم؟

فقالوا: هَا هُوَذَا. فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض وهو متنكب للقوس، وفي يده أسهم وهو يقلبها. فقال له الرسول: أنت أمير هؤلاء القوم؟ قال: نعم.

قال: فما يجلسك على الأرض؟ أرأيت لو كنت جالساً على وسادة أو كان تحتك بساط، أو كان ذلك واضعك عند الله أو مانعك من الإحسان.

قال أبو عبيدة: إن الله لا يستحيي من الحق، ولأصدقنك عما قلت، ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً ولا أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي...

فقال له الرومي: إنه ليس شيء أحب إلى الله من الصلاح، ولا شيء أبغض إليه من البغي والفساد، وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي، ويقال، ما بقي قوم وأفسدوا في الأرض إلا أهمهم الله بهلاك، وأنا أعرض عليكم أمراً لكم فيه حظ إن قبلتموه. نحن نعطيكم دينارين، وثوباً، ونعطيك أنت ألف دينار، ونعطي الأمير الذي فوقك (يعنون عمر) ألفي دينار، وتنصرفون عنا، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما

---

(١) فتوح الشام للأزدى ص١٢١.

(٢) هو معاذ بن جبل رضي الله عنه

(٣) احمر الوجه ازرق العينين.

والى أرضكم من سواد الأردن، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلظة ليقومن به وليقين بما عاهد الله عليه.

قال: فحمد الله أبو عبيدة، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ ثم قال: إن الله بعث فينا رسولاً نبيّاً، وأنزل عليه كتاباً حكيماً، وأمره أن يدْعُوَ الناس إلى عبادة ربهم، رحمة منه للعالمين، وقال لهم: فإن الله إله واحد، عزيز حكيم، عليم مجيد، وهو خالق كل شيء، وليس كمثله شيء وأمرهم أن يوحدوا الله الذي لا إله إلا هو، ولا تتخذوا له صاحبة ولا ولداً، ولا تتخذوا معه آلهة أخرى، وإن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه، وأمرنا ﷺ، فقال: إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله، ورسوله، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل، فمن آمن وصدق فهو أخوكم في دينكم، له ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن أبو أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقاتلوهم فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله، وهو في جنات النعيم، وقتيل عدوكم في النار، فإن قبلتم ما سمعتم مني فهو لكم، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا ﴿..حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾[1].

فقال الرومي: قد أبيتم الا هذا؟

فقال أبو عبيدة: نعم. فقال له الرومي: أما والله على ذلك، اني لأراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم.

فانصرف الرومي وهو رافع يده إلى السماء، وهو يقول: اللهم انا قد أنصفناهم، فأبوا علينا، اللهم انصرنا عليهم[2].

هكذا رفض الروم في فحل قبول الإسلام وأيضاً دفع الجزية فلا بد من دعوتهم بالقتال.

دعوة الروم في وقعة اليرموك:

كانت وقعة اليرموك بين جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة وبين جيوش الروم بقيادة

---

(١) سورة الأعراف آية ٨٧ انظر الأزدى ص١٢٤

(٢) فتوح الشام للأزدى من ص١٢٢ - ١٢٤.

باهان وكانت عام ١٣ هـ وهي واد بناحية الشام ينتهي إلى نهر الأردن[١]

خالد يدعو باهان للإسلام:

ذكر الأزدي[٢] ما دار في هذا اللقاء بين خالد بن الوليد رضي الله عنه وقائد جيش الروم باهان. فقال: . . .وبعث باهان أمير الروم إلى خالد بن الوليد وهو في قبته، أن ألقني وصف له في طريقه عشرة صفوف عن يمينه، وعشرة صفوف عن شماله مقنعين بالحديد، عليهم البيض والدروع والسواعد والجواشن. . .[٣].

وإنما أراد بذلك أن يريه جدة الروم وعددهم ليرعبه بذلك. . .

فأقبل خالد غير مكترث لما رأى من هيئتم وجماعتهم، وكأنه أهون عليه من الكلاب.

. . .والتفت باهان إلى قومه وقال بلسانه: إنه رجل عاقل، يتكلم بالحكمة. فقال خالد: إن كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك. . . فقال باهان: أنت أعقل أهل الأرض. أخبرني عنك وأنت هكذا، أتحتاج إلى مشورة هذا الرجل معك؟

فقال خالد: وقد تعجب من ذلك، أن في عسكرنا هذا لأكثر من ألفي رجل كلهم لا يستغني عن رأيه وعن مشنورته. فقال له باهان: ما كنا نظن ذلك عندكم ولا نراكم به.

فقال له خالد: ما كل ما تظنون ونظن يكون صواباً. قال باهان: صدقت. . .

قال باهان: الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم. . .

فقاطعه خالد بقوله: والحمد الله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء، وجعل الأمير الذي ولياه أمورنا رجلا كبعضنا. . . فاصفر وجه باهان ومكث قليلاً، ثم قال باهان: الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاءه عندنا، وأغنانا من الفقر ونصرنا على الأمم وأعزنا فلا نذل ومنعنا من الضيم، فلا يباح حريمنا، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا ببطرين ولا مرحين ولا باغين على الناس، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم ونعظم قدرهم ونَفْضُل ونفي لهم بالعهد. . . ولم تكن أمة من الأمم بأرق عندنا منكم شأناً ولا أصغر أخطاراً، إنما جلكم رعاء الشاء والإبل وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء. . . وأصبتم منا وملأتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٤/٣٥، وانظر أيام العرب في الاسلام ص ٢٠٧.

(٢) فتوح الشام للأزدي بتصرف ص ١٩٩ وما بعدها.

(٣) البيض: السيوف (الأزدي ص ١٩٩) والجواشن الدروع.

البيضاء والمتاع الفاخر. ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا وهو في أيديكم، فنحن نسلمه لكم وأخرجوا به وانصرفوا عن بلادنا.

فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرهوا، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوي به الضعيف منكم. ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير فعلنا، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار ونأمر لك بمثلها ونأمر لرؤسائكم بألف دينار، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا.

جواب خالد بن الوليد:

قال خالد: الحمد لله الذي لا إله إلا هو.

فلما فسر الترجمان قوله رفع باهان يده إلى السماء وقال لخالد: نعْم ما قلت، قال خالد: وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ فلما فسر الترجمان ذلك قال باهان: الله أعلم، ما أدري لعله كما تقول. قال خالد: أما بعد فإن كل ما ذكرت به قومك من الغناء والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن من البلاد فنحن به عارفون...

وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم فما أقل من رأيت واحداً منا يكرهه،... وأما قولك أنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالنا والله كما وصفت، ما ننتفي من ذلك ولا نتبرأ منه، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت، وسأقص عليك قصتنا وأعرض عليك أمرنا وأدعوك إلى حظك إن قبلت.

ألا انا كنا معشر العرب أمة من هذه الأمم أنزلنا الله له الحمد منزلاً من الأرض ليست به أنهار جارية ولا يكون به من الزرع إلا القليل وكل بلدنا المهامة[1] والقفار، فكنا أهل حجر ومدر[2] وشاء وبعير وعيش شديد وبلاء دائم لازم، نقطع أرحامنا ونقتل خشية الإملاق أولادنا ويأكل قوينا ضعيفنا وكثيرنا قليلنا ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة نعبد من دون الله أرباباً وأصناماً ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا وهي لا تضر ولا تنفع ونحن عليها مكبّون.

فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار، من مات منا مات مشركاً وصار إلى النار

---

(١) جمع مهمة وهي المغارة البعيدة والبلد المقفر.

(٢) قطع الطين اليابس.

ومن بقي منا بقي كافراً مشركاً بربه، قاطعاً لرحمه اذ بعث الله فينا رسولاً من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا وأفضلنا، دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئا، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون دونه، وقال لنا: لا تتخذوا من دون الله ربكم إلهاً ولا ولياً ولا نصيراً ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولداً ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ولا شمساً ولا قمرا، واكتفوا به رباً وإلهاً من كل شيء دونه وكونوا أولياءه، وإليه فارغبوا، وإليه فادعوا.

وقال لنا، قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى، وكل من زعم أن لله ولداً، وأنه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ويدخلوا في الإسلام، فإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها، وهم اخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم.

فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم فأعرضوا عليهم الجزية أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن أبوا فقاتلوهم فإنه من قتل منكم كان شهيداً عند الله مرزوقا، وأدخله الله الجنة ومن قتل من عدوكم قتل كافراً وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً.

ونحن ندعوكم إلى ما دعا إليه نبينا ﷺ، وإلى ما أمرنا به أن نَدْعُو الناس إليه، فنحن ندعوكم إلى الإسلام وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله،[1] وإلى أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتقروا بما جاء من عند الله عز وجل فإن فعلتم فأنتم اخواننا في الإسلام، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فإنا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فإن فعلتم قبلنا منكم وكففنا عنكم، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم، وهم أحرص على الموت منكم على الحياة[2]، فاخرجوا بنا على إسم الله حتى نحاكمكم إلى الله، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

ثم سكت خالد. فقال باهان: أما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم، وأما أن نؤدي الجزية ـ فتنفس صعداً وثقلت عليه وعظمت عنده ـ فقال: سيموت من ترى جميعاً قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها، وأما قولك، فاخرجوا حتى يحكم الله بيننا، فلعمري ما

---

(١) فتوح الشام للأزدى ص ٢٠٤ وما بعدها.
(٢) الأزدى ص ٢٠٦.

جاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله، وأما قولك، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدقت، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها إلا لأُمّة من الأمم كانوا قبلنا فيها، فقاتلناهم عليها، فأخرجناهم منها[1].

ورفض باهان الدخول في الإسلام ولا دفع الجزية فحق عليهم الدعوة بالقتال.

دعوة أهل ايلياء، «القدس»:

دعوة عمرو بن العاص أهل ايلياء:

بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى أهل ايلياء كتاباً يدعوهم فيه للإسلام جاء فيه[2] بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص إلى بطارقة ايلياء، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو، ومحمد ﷺ أما بعد: فإنا نثني على ربنا خيراً، ونحمده حمداً كثيرا كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسالته وأكرمنا بدينه وأعزنا بطاعته وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته، فلسنا والحمد لله يجعل له نداً، ولا نتخذ من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا، سبحانه وبحمده جل ثناؤه. والحمد لله الذي جعلكم شيعاً وجعلكم في دينكم أحزاباً بكفركم بربكم فكل حزب بما لديهم فرحون، فمنكم من يزعم أن لله ولداً، ومنكم من يزعم أن الله ثاني اثنين، ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة، فبعدا لمن أشرك بالله وسحقاً، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيرا. والحمد الله الذي قتل بطارقتكم، وسلب عزكم،[3] وطرد من هذه البلاد ملوككم، وأورثنا أرضكم وديارکم وأموالكم، وأذلكم بكفركم بالله، وترككم ما دعوناكم إليه من الإيمان بالله ورسوله، فأعقبكم الله الجوع والخوف والذل بما تصنعون، فإذا أتاكم كتابي هذا فأسلموا تسلموا، وإلا فأقبلوا الينا حتى أكتب لكم كتاباً أماناً على دمائكم وأموالكم، وأعقد لكم عقداً، تؤدون إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون، والا فوالله الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل، وبالرجال بعد الرجال، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة، وأسبي الذرية، وتكونون كأمة كانت فأصبحت كأنها لم تكن.[3]

ولكن بطارقة ايلياء ردوا على خطاب عمرو بن العاص بالرفض، فعاود الكرة أبو عبيدة ابن الجراح وأرسل إليهم كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام لعل الله يهديهم له بدون قتال.

---

(١) نفسه ص ٢٠٧.

(٢) نفسه ص ١٦٥ و١٦٦.

(٣) نفسه ص ١٦٦.

دعوة أبي عبيدة أهل إيلياء «القدس»:

بعث أبو عبيدة كتاباً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه أنه أرسل إلى أهل ايلياء كتاباً لدعوتهم للإسلام، قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنه: وقد بعثت إلى أهل ايلياء أدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا وإلا فليؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم، ثم لا أزايلهم[1] حتى يفتح الله على المسلمين، إن شاء الله والسلام عليك[2].

وجاء في نص كتابه إلى أهل إيلياء[3]: بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل ايلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله العظيم ورسوله، أما بعد، فإنا ندعوكم إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم، وكنتم أخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقروا لنا بإعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإن أبيتم سرت إليكم بقوم، هم أشد حباً للموت منكم للحياة، ولشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم، وأسبي ذراريكم[4].

ولما رفض أهل ايلياء خطاب أبي عبيدة أقبل إليهم حتى نزل بهم، فحاصرهم حصاراً شديداً وضيق عليهم من كل جانب.

ولما رأى أهل ايلياء أن أبا عبيدة غير مقلع عنهم، وظنوا أنهم لا طاقة لهم بحربه قالوا له:

نحن نصالحك. قال: فإني أقبل منكم الصلح. قالوا: فأرسل إلى خليفتكم عمر فيكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصالحنا، ويكتب لنا الأمان، فقبل منهم أبو عبيدة[5].

وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً بذلك.

فلما وصل الكتاب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاور أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك فأجمع رأيهم بأن يسير عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ايلياء، وفعلاً سار

---

(١) أزايلهم: أفارقهم (مختار الصحاح).

(٢) فتوح الشام ص٢٤٤.

(٣) نفسه ص ٢٤٣.

(٤) نفسه ص٢٤٣.

(٥) نفسه ص٢٤٨.

اليهم عمر رضي الله عنه وكتب لهم عهد الأمان وفتحها الله على المسلمين صلحاً ثم رجع رضي الله عنه إلى المدينة.

هكذا نرى جيوش المسلمين الفاتحين لا تحارب الأعداء إلا بعد دعوتهم إلى الله تعالى أولاً بدون قتال.

الفصل الثاني

الدعوة في بلاد العراق وفارس قبل القتال

استهلت سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية الشريفة والخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث الناس ويحرضهم على جهاد أهل العراق، وذلك لما بلغه مقتل أبي عبيد يوم الجسر[1]، وانتظام شمل الفرس، واجتماع أمرهم على يَزْدَ جرْد الذي أقاموه من بيت الملك، ونقض أهل الذمة بالعراق عهدودهم، ونبذوا المواثيق التي كانت عليهم، وآذوا المسلمين وأخرجوا العمال من بين أظهرهم.

واستشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحابة رسول الله ﷺ في الأمر، فاستقر الرأي على أن يبعث عمر سعد بن أبي وقاص على جيش العراق، ثم أوصاه عمر رضي الله عنه قائلاً: يا سَعْد سعد بن وُهَيب لا يغرنك من الله إن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله لا يمحُوَ السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، واستطرد عمر يقول لسعد رضي الله عنهما: إنك ستقدم على أمر شديد، فالصبر على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته[2].

وسار سعد نحو العراق في أربعة آلاف وقيل ستة آلاف وشيعهم عمر رضي الله عنه وأوصاهم بتقوى الله[2].

ونزل سعد رضي الله عنه القادسية[3]، وبث سراياه بها، ولما علم يزد جرد ملك الفرس

---

(١) وقعة بين الفرس بقيادة (بهمن) والمسلمين بقيادة (أبي عبيد) سنة ثلاث عشرة للهجرة. وهو موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي. وقد سمى يوم الجسر لما كان من قطعة وراء المسلمين. ويسمى أيضاً يوم قس الناطف، ويسمى كذلك يوم المروحة (أيام العرب ص٢٣٠).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٩/٧ ـ ٤٠ بتصرف يسير في العبارة.

(٣) القادسية: مدينة على جادة الكوفة بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا (ابن كثير).

بذلك، أرسل جيشاً قوامه ثمانون ألفاً فيما ذكره سيف وغيره، وفي رواية: مائة ألف، وعليهم رستم، وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلاً. فكتب سعد إلى عمر رضي الله عنه بذلك.

فكتب إليه عمر كتاباً يطمئنه ويوصيه بتقوى الله ويأمره بإرسال الدعاة إلى يزدجرد ملك الفرس ليدعونه للإسلام وعلى أن يكونوا ممن لهم اجتهاد وآراء ومهابة. وجاء في هذا الكتاب: لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلْجاً[1] عليهم واكتب إلي في كل يوم[2].

وجمع سعد نفراً عليهم نجار[3] ولهم آراء واجتهاد وهم:

١ ـ النعمان بن مقرن المزني.
٢ ـ بسر بن أبي رهم الجهني.
٣ ـ حملة بن جوية الكناني.
٤ ـ حنظلة بن الربيع التميمي.
٥ ـ فرات بن حيان العجلي.
٦ ـ عدي بن سهيل.
٧ ـ المغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب.

ونفراً عليهم مهابة ولهم منظر لأجسامهم ولهم آراء وهم:

١ ـ عطارد بن حاجب التميمي.
٢ ـ الأشعث بن قيس الكندي.
٣ ـ الحارث بن حسان الذهلي.
٤ ـ عاصم بن عمرو التميمي.
٥ ـ عمرو بن معدي كَرِب الزبيدي.
٦ ـ المغيرة بن شعبة الثقفي.

---

(١) الظفر والفوز.
(٢) ت الطبري ٩٢/٤، البدية والنهاية ٤٢/٧.
(٣) أصل وحسب ولون.

٧ ـ المعنىّ بن حارثة[١] الشيباني.

فهم أربعة عشر داعية بعثهم سعد دعاة إلى ملك الفرس بأمر عمر رضي الله عنه وهم من سادات القوم كما أرادهم عمر رضي الله عنه، كي يستطيعوا دعوة يزدجرد بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لعل الله يهديه هو وجنده للإيمان وتحقن دماء الطرفين. لقد كان هذا الوفد المنتقي على درجة عالية من الكفاية والقدرة لما أوفد له، فبالإضافة إلى ما يتمتعون به من جسامة وقوة ومهابة وحسن رأي، فلهم أيضاً سبق معرفة بالفرس، فقد كان منهم من عاركهم وعركهم ومارس معهم الحروب في حملات سابقة، ومنهم من وفد في الجاهلية على ملوك الفرس، ومنهم من يعرف اللغة الفارسية. فكأنما اختارهم سعد لهذه الوفادة بعد أن اجتاز كل منهم كشفاً فنياً من حيث كفاءته وحسن رأيه، وكشفاً طبياً من حيث قوته وضعفه وكشف هيئة من حيث لياقته وجسامته[٢]. معنى هذا أن الوفد كان يتمتع بميزتي الرغبة والرهبة، الرغبة التي تتوفر فيهم لحسن آرائهم وقدرتهم على المجادلة والإقناع والرهبة التي تتوفر في جسامتهم ومهابتهم وجلَدهم.

ويحسن بنا أن نقدم ترجمة لأمير وأعضاء هذا الوفد الميمون، نلقي فيها بعض الضوء عليهم لنجلِّيهم ونعرف فضلهم، ونقف على طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كيفية اختيار دعاته ونوعية هؤلاء الدعاة.

أولاً: فأولهم وأميرهم[٣] النعمان بن مقرن من بني مزينة، صحابي. أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ في سبعة أخوة له. روي عنه أنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة، وأول مشاهده الخندق. ثم كان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة وكانوا ألفاً. ولما وقعت الردة وقف في المدينة إلى جوار أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قتاله مرتدي عبس وذبيان، وكان أخوه عبد الله على الميسرة وأخوهما سويد بن مقرن على المؤخرة، ساروا من المدينة الى ذي قصة فدهموا المرتدين وكان ذلك أول فتوح الردة. ورجع أبو

---

(١) الطبري ٤/٩٢، البداية والنهاية ابن كثير ٧/٤٢ وقد ذكر سبعة فقط وهم (النعمان، وفرات، حنظلة، عطارد، الأشعث، المغيرة بن شعبة، وعمرو بن معد كرب) وانظر القادسية أحمد عادل كمال ص٦٥ ـ ٦٦.

(٢) القادسية أحمد عادل كمال بتصرف ص٧٠.

(٣) القادسية لأحمد عادل كمال ص٦٦ وما بعدها عن تاريخ الطبري، فتوح البلدان، الاصابة في تمييز الصحابة، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب.

بكر إلى المدينة وقد خلف النعمان بذي قصة في عدد من الرجال. ثم وجدنا النعمان بعد ذلك في جيش خالد لفتح العراق واحداً من عشرة اخوة جاء ذكرهم في حصار حصن بني مازن من حصون الحيرة. وللنعمان بعد ذلك تاريخ ناصع وجهاد مشرف حتى استشهد بنهاوند وهو يقود معركتها. وقال عبد الله بن مسعود: أن للأيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً، وإن بيت بني مقرن من بيوت الإيمان. والنعمان وأخوته هم الذين نزل فيهم قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عْندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلاَّ إِنَّهَا قُرْبَةٌ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. آية ٩٩.

ثانياً: وبسر بن رهم صاحب خالد في حروب الردة وشهد معه اليمامة وفتح العراق وهو أحد المذكورين، وقد وكل إليه خالد بن الوليد أمر الكمين في موقعة الولجة. ثم كان ذا بلاء مشهود في القادسية.

ثالثاً: وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف بحنظلة الكاتب لأنه كتب للنبي ﷺ كتاباً وكانت الكتابة في العرب قليلة. كان حنظلة في جيش خالد لفتح العراق ومن شهود معاهدة الصلح مع أهل ما بين النهرين، ومن شهود جباية الجزية. استقر خالد بالحيرة فعلم أن جابان ظهر في تستر في جمع عظيم فوجه إليه المثنى بن حارثة وحنظلة بن الربيع فلما اقتربا منه انسحب إلى داخل ايران. وكان حنظلة مما استأثر بهم خالد في خُروجه من العراق إلى الشام، وغير أن حنظلة وجرير بن عبد الله البجلي ونفراً استأذنوا من خالد وهم في سوي ورجعوا إلى المدينة.

رابعاً: وفرات بن حيان العجلي خبير طرق الجزيرة العربية والعراق، وكان دليلاً لتجارة قريش مع صفوان بن أمية في العام الثالث الهجري، فاعترضته سرية زيد بن حارثة وأسرت فراتاً وعادت به إلى المدينة فأسلم. ثم نجده في العام الثامن من الهجرة دليلاً لسرية زيد بن حارثة لاعتراض تجارة قريش على طريق العراق بالعيص على أربعة ليال من المدينة. وكان فرات في جيش خالد لفتح العراق وكان ممن اختارهم للخروج معه إلى الشام، فلما أبى المثنى إلا إنفاذ أمر أبي بكر تركه له فيمن ترك. وقد شهد البويب وكان مع المثني في غارات الأسواق بشمال العراق وأغرق هو وعتيبة بن النهاس أناساً من بني تغلب والنمر فاستدعاهما عمر لمساءلتهما ثم أعادهما مع سعد إلى العراق.

خامساً: أما عطارد بن حاجب من وجوه بني تميم وسادتهم فقد كان الوحيد في هذا

الوفد الذي دخل إلى إيوان كسرى من قبل اذ كان يفد على ملوك فارس في الجاهلية.

وفي الحديث الصحيح عن نافع بن عمر قال: رأى عمر بن الخطاب عطارداً التميمي يبيع في السوق حلة سميراء وكان رجلاً يغش الملوك ويصيب منهم، فقال عمر: يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها لوفود العرب فقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا يَلْبِسُ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ فِي الآخِرةِ[1]) وفي رواية أخرى[2] عن عطارد بن حاجب أنه أهدى النبي ﷺ ثوب ديباج كساه إياه كسرى، فدخل أصحابه فقالوا: نزل عليك من السماء؟! فقال: (وما تعجبون من ذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا).

سادساً: والأشعث بن قيس الكندي، كان في الجاهلية رئيساً مطاعاً في كندة وفي الإسلام وجيهاً كان اسمه معدي كرب وكان أبداً أشعث الرأس فسمي الأشعث. قدم على النبي ﷺ سنة عشر في وفد كندة ستين أو سبعين راكباً وكان رئيسهم فأسلموا. ثم ارتد بعد النبي وأسره المسلمون في حروب الردة وأرسلوه إلى أبي بكر فأسلم فأطلق سراحه، فقال لأبي بكر: استبقني لحربك وزوجني أختك ففعل أبو بكر وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة.

سابعاً: أما عاصم بن عمرو فهو غني عن التعريف وقد كثر ذكره مع تحركات خالد وأبي عبيد والمثنى. كان على فرقة من ثلاث هم جيش خالد في خروجه من النباج إلى العراق. وكان على ميمنة خالد بذات السلاسل وبالمذار وهو الذي قتل أنو شجان قائد ميسرة الفرس. ثم كان قائد حامية كربلاء بعد الحيرة حتى خروج خالد لإنجاز عمل عياض فخرج معه إلى دومة الجندل، وعاصم هو الذي اعترض طريق أكيدر ملك دومة الجندل فأتى به أسيراً. وقد أجار عاصم بني كلب في فتح دومة الجندل فأنجاهم من سيف خالد. ثم كان مع خالد في موقعة في عين التمر والفراض.

وجعله خالد على الجيوش في رجوعه من الفراض إلى الحيرة بينما انفلت هو سراً ليحج. وكان عاصم ممن اختارهم خالد ليخرج معه إلى الشام ثم تركه للمثنى استرضاء له. ثم وجدنا عاصم على مجردة المثنى في النمارق وفي مطاردة فلول الفرس بعدها كذلك بعثه عبيد لمطاردة فلول معركة السقاطية حتى نهر جوبر فهزم كل جمع لقيه، وشهد بقسياثاً مع أبي عبيد. ولمع في وقفته مع المثنى يوم الجسر لحماية انسحاب المسلمين في ذلك الموقف العصيب وجرح يومها. ثم شهد البويب مع المثنى وتطوع للمطاردة بعدها،

---

(١) مسلم. (٢) الطبري.

وهو أحد الشعراء الفرسان. وأخيراً لو كان المرء يشرف بنسبه بعد ذلك لقينا أنه أخو القعقاع ابن عمرو.

ثامناً: وعمرو بن معدي كرب الزبيدي الشاعر الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع في الجاهلية والإسلام. وفد على النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة وفي وفد بني زبيد فأسلم وأقام مدة في المدينة ثم رجع إلى قومه، غير أنه ارتد مع الأسود العنسي في ردة اليمن، وسار إليه خالد بن سعيد فقاتله حتى عاد إلى الإسلام فأرسلوه إلى أبي بكر فأطلقه وعاد إلى قومه ثم رجع إلى المدينة فبعثه أبو بكر إلى الشام، وشهد فيها اليرموك وكان له فيها بلاء حسناً وقد ذهبت فيها أحدى عينيه، ثم بعثه عمر إلى العراق وله في القادسية من المواقف ما سوف نعرض له. وهو صاحب الصمصامة أشهر سيوف العرب، سأل عمر بن الخطاب يوماً عن أي سيوف العرب أمضى؟ فقيل له صمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فبعث عمر إليه أن يرسل سيفه فبعث به فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك فرد عليه عمرو: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب[1] به.

تاسعاً: والمغيرة بن شعبة من الدهاة المشهورين وكان يجيد الكتابة ويتكلم الفارسية، وإن كنا لا نقطع متى تعلم الفارسية وما إذا كان ذلك قبل وفادته على يزدجرد أو بعدها. وقد اتخذه رسول الله ﷺ من كتبته. فلما أسلمت ثقيف أرسله النبي إلى الطائف لهدم أصنامها وتسوية أموالها. وفيروز المجوسي الذي قتل عمر بن الخطاب وهو يصلي كان مولى للمغيرة بن شعبة.

عاشراً: وأخيراً المعنى بن حارثة عرفناه في الصفحات السابقة نلخصها جميعاً في أنه كان أخا المثنى بن حارثة الشيباني شهد معه مواقعه كلها[2].

الدعوة بالمدائن:

سعد يرسل وفداً من الدعاة لدعوة يزدجرد ملك الفرس:

أخرج الطبري بسنده عن المغيرة بن شعبة قال: فخرجوا من العسكر حتى قدموا

---

(١) الفروسية العربية.

(٢) انظر كتاب القادسية لأحمد عادل كمال من ص٦٦ وما بعدها نقلا عن ت الطبري، فتوح البلدات، الاصابة، الاستيعاب.

المدائن احتجاجاً ودُعاةً ليزدجرد، فطوَوا رستم حتى انتهوا إلى باب يزدجرد فحبسوا، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوهه يستشيرهم فيما يصنع بهم ويقوله لهم، وسمع الناس بهم فحضروا ينظرون إليهم وعليهم المقطعات والبرود، وفي أيديهم سياط دقاق، وفي أرجلهم النعال، فلما اجتمع رأيهم، أذن لهم فأدخلوا عليه[1] فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس ـ وكان سيء الأدب ـ فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال: سلهم ما يسمون هذه الأردية؟ فسأل النعمان وكان على الوفد، ما تسمى رداءك؟ قال: البرد، فتطَّير وقال: برد جهان، وتغيرت ألوان فارس، وشق ذلك عليهم[2].

ثم سألهم عن أحذيتهم فقال: ما تسمون هذه الأحذية؟ فقال: النعال فعاد لمثلها فقال ناله ناله في أرضنا، ثم سأله عن الذي في يده فقال[3]: سوط، والسوط بالفارسية الحريق، فقال: أحرقوا فارس أحرقهم الله، وكان نظيره على أهل فارس، وكانوا يجدون من كلامه[4] ثم قال الملك: سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا، والوُلُوعَ ببلادنا، أمن أجل أنا أجْمَمْناكم واشتغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فقال لهم النعمان بن مقرِّن إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا: بل تكلم وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا[4].

النعمان بن مقرن يتقدم الوفد لدعوة يزدجرد:

قال النعمان ليزدجرد: إن الله رحمنا فأرسل الينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين، فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، فدخلوا معه جميعاً على وجهين، مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً

---

(١) الطبري بتصرف وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٤٦/٧.
(٢) نفسه ٩٤/٤.
(٣) الطبري ٩٤/٤ وانظر البداية والنهاية ٤٦/٧.
(٤) نفسه.

فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف.

فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن، وقبَّح القبيح كله، فإن أنتم أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاءُ[1]، فإن أبيتم فالمناجزة[2]، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

قال: فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم. قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم، فأسكت القوم[3].

المغيرة بن زرارة بن النباش الأَسْيِدي[3] يدعوا يزدجرد:

فقامَ المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي فقال: أيها الملك، إن هؤلاء رؤس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيونِ من الأشراف، وإنما يكرم الأشرافُ الأشرافَ، ويعظمُ حقوقَ الأشرافِ الأشرافُ، ويفخم الأشرافُ الْأشرافَ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك. إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً[4].

فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوء حال منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان[4]، والعقارب والحيتان، فنرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته كراهية أن تأكل من طعامنا[5]. فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك.

---

(١) أي: دفع الجزية. (٢) ت الطبري ٤/٩٤.

(٣) ذكر كثير في البداية والنهاية ٧/٤٦ (المغيرة بن شعبه) ولكنه في الطبري كما ذكرنا (المغيرة بن زرارة) وهو الأرجح.

(٤) ت الطبري ٤/٩٤.

(٥) بنفسه ٤/٩٥.

فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبيلتنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا[1].

فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد، ومن ترب كان له فكان الخليفة من بعده فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله تعالى، وما أمرنا فهو أمر الله تعالى.

فقال لنا: إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت اذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، واليَّ يصير كل شيء، وأنا رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل، لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم من عذابي، ولأحلكم داري ـ دار السلام ـ[2] فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبي فَاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، وأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك.

فقال: أتستقبلني بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمني ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به.

فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي[3].

دعوة الفرس بالقادسية:

زهرة يدعو رستم للإسلام:

قال الطبري[4]: لما نزل رستم على العتيق وبات به أصبح غادياً على التصفح والحذر

---

(١) الطبري ٤/٩٥.

(٢) الطبري ٤/٩٥. (٣) نفسه ٤/٩٥.

(٤) الطبري عن السرى عن شعيب عن سيف النضر عن بن الرفيل عن أبيه ٤/١٠٥.

فساير العتيق نحو خفاف حتى أتى على مُنْقَطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة فتأمل القوم حتى أتى على شيء يشرف منه عليهم، فلما وقف على القنطرة راسل زهرة فخرج إليه حتى واقفه فأراده على أن يصالحهم ويجعل لهم جعلاً على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة ونحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم[1] من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش. يعرض لهم بالصلح وإنما يخبره بصنيعهم والصلح يريد ولا يصرح.

فقال له زهرة: صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك، ولا طلباتنا طلبتهم، أنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمنا الآخرة، كنا كما ذكرت، يدين لكم من ورد عليكم منا ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم.

ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربه فأجبناه، فقال: لنبيه ﷺ إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به أحد إلا عَزّ. فقال له رستم: وما هو؟ة قال: أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى[2].

قال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً؟ قال: واخراج العبادة من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى: قال: حسناً، وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنوا آدم وحواء اخوة لأب وأم.

قال: ما أحسن هذا ثم قال له رستم: أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟ قال: أي والله، ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة، قال: صدقني والله، . . . فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحُموا من ذلك وأنفوا فقال: أبعدكم الله وأسحقكم، أخزي الله أخرعنا وأجبننا فلما انصرف رستم ملت إلى زهرة فكان إسلامي وكنت له عديداً وفرض لي فرائض أهل القادسية.

ولما لم يستجب رستم لدعوة زهرة لم ييأس سعد من ذلك بل أعقب زهرة بوفد من

---

(١) نميرهم: نجلب لهم الطعام. القرطبي مجلد ٣٤٥٣.
(٢) ت الطبري ٤/١٠٥.

الدعاة مكون من تسعة أشخاص لدعوة رستم إلى الإسلام مرة أخرى لعل الله يهدي قلبه ومن معه للإسلام وهم:

١ ـ المغيرة بن شعبة.
٢ ـ بسر بن أبي رهم.
٣ ـ حذيفة بن محصن.
٤ ـ ربعي بن عامر.
٥ ـ فرقة بن زاهر التيمي ثم الوائلي.
٦ ـ مذعور بن عدي العجلي.
٧ ـ عرفجة بن هرثمة.
٨ ـ المضارب بن يزيد العجلي.
٩ ـ معبد بن مرة العجلي وكان من دهاة العرب.

فقال: إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم[1] فما عندكم؟ قالوا جميعاً نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه، فإذا كاء أمر لم يكن منكم فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به، فقال سعد: هذا فعل الحزمة اذهبوا فتهيؤا، فقال ربعي: ان الأعاجم لهم آراء وآداب ومتى نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم، فلا تزدهم على رجل، فمالؤه جميعاً على ذلك. فقال: فسرحوني، فسرحه[2].

المغيرة بن شعبة يدعوا رستم إلى الإسلام:

فقد أقبل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ليدعو رستم إلى الإسلام ودار بينهم الحوار التالي:

قال رستم[3]: إنكم معشر العرب كنتم أهل شقاء وجهد، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير ووافد، فأكلتم من طعامنا وشربتم من شرابنا واستظللتم من ظلالنا، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم... وقد أعلم أن الذي حملكم على هذا معشر العرب الجهد الذي أصابكم فارجعوا عنا عامكم هذا، فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ونحن نُوقِرُ لكم ركائبكم قمحاً وتمراً، ونأمر لكم بكُسوة، فارجعوا عنا عافاكم الله.

---

(١) يعني: الفرس. (٢) الطبري ٤/١٠٦.
(٣) ت الطبري ٤/١٣٨ والبداية والنهاية لابن كثير ٧/٤٣.

وقال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: لا تذكرُ لنا جهداً إلا قد كنا في مثله أو أشد منه، أفضلُنا في أنفسنا عيشاً الذي يقتل ابن عمه ويأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدم والعظام، فلم نزل كذلك حتى بعث الله فينا نبياً وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به، فصدقه منا مصدق، وكذبه منا آخر، فقاتل من صدقه من كذبه حتى دخلنا في دينه من بين موقن به وبين مقهور، حين استبان لنا أنه صادق وأنه رسول من عند الله، فأمرنا أن نقاتل من خالفنا وأخبرنا أن من قتل منا على دينه فله الجنة، ومن عاش ملك وظهر على من خالفه.

فنحن ندعوك إلى أن تؤمن بالله ورسوله، وتدخل في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلا من أحببت، وعليك الزكاة والخمس، فإن أبيت ذلك فالجزية، وإن أبيت ذلك قاتلناك حتى يحكم الله بيننا وبينك[1]. وفي رواية[2]: والإسلام أحب إلينا منهما. فلما لم يستجب رستم لدعوة المغيرة بن شعبة تقدم ربعي ليدعوه للإسلام.

ربعي يدعو رستم للإسلام:

وأقبل ربعي يسير على فرس له زَبَّاءَ[3] قصيرة معه سيف له مشوف[4]، وغمده لفافة ثوب خَلَق، ورمحه معلوب بِقدّ[5] معه حَجَفة من جلود البقر[6] على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف[7] ومعه قوسه ونبلُه، ولما غشي الملك وانتهى اليه وإلى أدنى البُسُط، قيل له: انزل فحملها على البساط، فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين. فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهَوه وإنما أروه التهاون وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجهم وعليه درع له كأنها اضاة، ويلْمَقُه عباءةٌ بعيره، وقد جابها، وتدرعها وشدها على وسطه بسلَب، وقد شد رأسه بمعجرته[8] وكان أكثر العرب شعرة ومعجرته نسعة

---

(١) الطبري ٣/١٣٩. (٢) نفسه ٤/١١٠.
(٣) زباء: شعر (المرجع: ١/٧٦٨).
(٤) أي: جَلْوًا، شاف الشيء جلاه (مختار ص ٣٥١).
(٥) سير مشقوق من جلد غير مدبوغ (مختار ص ٥٢٣).
(٦) حجفة: يقال للترس اذا كان من جلود ليس فيه خشب ولا عقب (مختار ص ١٢٤).
(٧) أديم: جلد مصبوغ (الرائد لجبران مسعود ١/٦٩).
(٨) يلقمه: الثوب المحشو (نفسه ص ١٦٣٦، معجرته: العمامة في الرأس (نفسه ص١٣٩٩

بعيره[1]، ولرأسه أربع ضفائر قد قمن قياماً كأنهن قرون الوعلية[2].

فقالوا: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد وإلا رجعت. فأخبروا رستم فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد؟ فأقبل يتوكأ على رمحه وزجُّه نصل، يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط[3]. فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرماً.

فلما دنا من رستم، تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: أنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوَهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قال:
وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي، فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا، قال: نعم، كم أحب إليكم أيوماً أو يومين[4]؟
قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته، فقال: ان مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدأك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابي، وعلى جميع من ترى، قال: أسيدهم أنت، قال: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم، فَخَلُص رستم برؤساء أهل فارس فقال: ما ترون هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم، لا

---

(١) نسعة: حبل أو سير من جلد عريض تشد به الرحال نفسه ص ١٤٩٨.
(٢) وعلة: مكان منيع من الجبل (نفسه ١٦١٧/٢).
(٣) ت الطبري ١٠٦/٤ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٤٤/٧.
(٤) تاريخ الطبري ١٠٧/٤.

تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب تستخف باللباس، والمأكل، ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ما ترون، وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ويزهِّدونه فيه، فقال لهم:[1] هل لكم إلى أن تُرُوني فأريكم؟ فأخرج سيفه من خرقه كأنه شعلة نار فقال القوم: أغمده فغمده ثم رمى ترساً ورموا حجفته فخُرق ترسهم وسلمت حجفته فقال: يا أهل فارس، إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب، وأنا صَغرناهن، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأرجل[1].

حذيفة بن محصن يدعو رستم للإسلام:

فلما كان من الغد بعثوا أن ابعث الينا ذلك الرجل فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن فأقبل في نحو من ذلك الزي حتى اذا كان على أدنى البساط قيل له: انزل قال: ذلك لو جئتكم في حاجتي فقولوا لملككم أله الحاجة أم لي؟ فإن قال: لي فقد كذب ورجعت وتركتكم، فإن قال له: لم آتكم إلا على ما أحب، فقال: دعوه فجاء حتى وقف عليه ورستم على سريره فقال: انزل قال: لا أفعل فلما أبي سأله ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، فهذه نوبتي قال: ما جاء بكم؟ قال: إن الله عز وجل من علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه، وكنا له منكرين، ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيها أجابوا إليها قبلناها، الإسلام وننصرف عنكم، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، والمنابذة. فقال: أو الموادعة إلى يوم ما، فقال: نعم ثلاثاً من أمس، فلما لم يجد عنده إلا ذلك رده وأقبل[2] على أصحابه فقال: ويحكم ألا ترون إلى ما أرى؟ جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقَّر ما نعظم وأقام فرسه على زبرجنا وربط به، فهو في يمن الطائر ذهب بأرضنا وما فيها اليهم مع فضل عقله، وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا فهو يمن طائر يقوم على أرضنا دوننا حتى أغضبهم وأغضبوه[3]. ولم يستجب رستم لداعي الله.

فأرسل سعد بقية ذوي الرأي جميعاً لدعوة رستم إلى الله.

---

(١) تاريخ الطبري ١٠٧/٤.
(٢) نفسه ١٠٨/٤ وابن كثير في البداية والنهاية ٤٤/٧.
(٣) تاريخ الطبري ١٠٨/٤.

سعد يرسل بقية الوفد لدعوة رستم للإسلام:

يقول الطبري[1]: أرسل سعد بقية ذوي الرأي جميعاً وحبس الثلاثة،[2] فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحاً، فقالوا له: إن أميرنا يقول لك أن الجوار يحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، والعافية أن تقبل ما دعاك الله إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض، إلا إن داركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا وكنا لكم عوناً على أحد أن أرادكم أو قوي عليكم واتق الله يا رستم، ولا يكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغْبَطَ به إلا أن تدخل فيه، وتطرد به الشيطان عنك، فقال: إني قد كلمت منكم نفراً ولو أنهم فهموا عني رجوت أن تكونوا قد فهمتم، وإن الأمثال أوضح من كثير من الكلام، وسأضرب لكم مثلكم تبصّروا، أنكم كنتم أهل جهد في المعيشة وقشف في الهيئة، لا تمتنعون ولا تنتصفون، فلم نُسيء جواركم، ولم ندعْ مواساتكم، تُقْحَمونَ المرة بعد المرة فنميركم[3]، ثم نردكم، وتأتوننا أجَراءَ وتجار فنحسن إليكم، فلما تطاعمتم بطعامنا، وشربتم شرابنا، وأظلكم ظلنا، وصفتم لقومكم فدعوتموهم ثم أتيتمونا بهم، وإنما مثلكم في ذلك ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلباً فقال: وما ثعلب؟ فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم فلما اجتمعن عليه سد عليهن صاب الكرم الجحر، الذي كن يدخلن منه، فقتلهن، وقد علمت أن الذي حملكم على هذا الحرص والطمع والجهد، فارجعوا عنا عامكم هذا وامتاروا حاجتكم ولكم العود كلما احتجتم، فإني لا أشتهي أن أقتلكم[4].

قالوا: فتكلم القوم فقالوا: أمّا ما ذكرتم من سوء حالنا فيما مضى، وانتشار أمرنا، فلم تبلغْ كُنْهَهُ يموت الميت منا إلى النار ويبقى الباقي منا في بؤس، فبينما نحن في أسوء ذلك، بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا، إلى الإنس والجن، رَحمة رحم بها من أراد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن ردَّ كرامته، فبدأ بنا قبيلة قبيلة، فلم يكن أحد أشد عليه ولا أشد انكاراً لما جاء به ولا أجهد على قتله وردّ الذي جاء به من قومه من الذين يلونهم حتى طابقناه على ذلك كلنا فنصبنا له جميعاً وهو وحده فرد ليس معه إلا الله تعالى، فأعطى الظفر علينا فدخل بعضنا طوعاً وبعضنا كرهاً ثم عرفنا جميعاً الحق والصدق لما

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١١٠.
(٢) المغيرة بن شعبة، ربعي، حذيفة بن محصن.
(٣) الميرة: أي الطعام.
(٤) تاريخ الطبري ٤/١١١.

أتانا به من الآيات المعجزة، وكان مما آتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى، فسرنا بذلك فيما بيننا نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لا يخرم عنه ولا ينقض، حتى اجتمعت العرب على هذا وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم، ثم أتيناكم بأمر ربنا نجاهد في سبيله وننفذ لأمره ونتنجز موعده وندعوكم إلى الإسلام وحكمه فإن أجبْتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا بالجزي فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم فاقبلوا نصيحتنا فوالله لإسلامكم أحب الينا من غنائمكم ولقتالكم بعد أحب الينا من صلحكم، وأما ما ذكرت من رثاثتنا وقلتنا فإن أَدَاتَنَا الطاعة وقتالنا الصبر[1].

وأما ما ضربتم لنا من الأمثال فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد والهزل، ولكنا سنضرب مثلكم إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضاً واختار لها الشجر والحب وأجرى اليها الأنهار وزينها بالقصور وأقام فيها فلاحين يكسون قصورها ويقومون على جناتها فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب وفي الجنان بمثل ذلك فأطال نظرتهم فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم استعتبهم فكابروه، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء يملكونهم ولا يملكون عليهم فيسمونهم الخسف أبداً والله إن لو لم يكن ما نقول لك حقاً ولم يكن إلا الدنيا لما كان عما ضربنا به من لذيذ عيشكم ورأينا في زبرجكم من صبر ولقارعناكم حتى نغلبكم عليه فقال رستم: أتعبرون الينا أم نعبر اليكم، فقالوا: بل اعبروا إلينا فخرجوا من عنده عشياً وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم وأرسل إليهم شأنكم والعبور فأرادوا القنطرة فأرسل إليهم لا ولا كرامة أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم تكلفوا معبراً غير القناطر فباتوا يكسرون العتيق حتى الصباح بأمتعتهم[2].

وهكذا كانت رسل سعد تترى رسول في أثر رسول لدعوة ملك الفرس وجيوشه للإسلام قبل قتالهم، ولكن الصلف والغرور الذي تمكن من الفرس، ملكاً وشعباً جعلهم يرفضون دعوة الإسلام.

---

(١) نفسه ٤/١١٢.

(٢) الطبري ٤/١١٢.

دعوة الفلاحين في بَهُرَسير للإسلام: -

دعوة سعد:

وعندما نزل سعد مدينة بهرسير[1]، بعث السرايا والخيول في كل وجه، فلم يجدوا واحداً من الجند، فجمعوا من الفلاحين مائة ألف فحُبسوا، حتى كتب إلى عمر ما يفعل بهم. فكتب إليه عمر: إن كان من الفلاحين لم يعن عليكم وهو مقيم ببلده فهو أمانُة، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به. فأطلقهم سعد بعدما دعاهم للإسلام فأبوا إلا الجزية[2].

دعوة سلمان:

وقد بعث سعد سلمان الفارسي إلى بهرسير عندما امتنعت أشد الإمتناع، فدعاهم سلمان إلى الله عز وجل أو الجزية أو المقاتلة فأبوا إلا المقاتلة والعصيان..[3].

دعوة أهل المدائن[4] التي هي مستقر ملك كسرى:

لما فتح الله لسعد مدينة بهرسير واستقر بها، وقد هرب أهلها عبر دجلة بالسفن إلى المدائن جاءت الأخبار سعداً أن يزدجرد ملك كسرى عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان[5] فخطب سعد المسلمين قائلاً: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا وشئونكم في سفنهم، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا. ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل[6].

فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور وهو يقول: من يبدأ فيمحمي لنا الفراض - يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى - ليجوز الناس إليهم آمنين، فانتدب عاصم بن

---

(١) احدى مدينتي كسرى مما يلي دجلة من الغرب (البداية والنهاية ٧/٧٠) ابن كثير وقدمها سعد في ذي الحجة من سنة خمس عشرة.

البداية والنهاية ٧/٧٠ وانظر ت الطبري ٤/١٦٨.

البداية والنهاية بتصرف.

المدائن: عاصمة الفرس، أنوشروان بن قباذ، وأقام بها هو ومن كان بها من ملوك ساسان (أيام العرب ص ٢٩٤ هامش ١).

(٥) حلوان: مدينة كبيرة عامرة في آخر حدود السودان مما يلي العراق من بغداد.

(٦) البداية والنهاية ٧/٧٢ بتصرف.

عمرو وذوي البأس من الناس وعبروا النهر بفرسانهم وهو مملوء بالماء، فلما رآهم الفرس يطوفون على وجه الماء قالوا: دبوانا دبوانا. يقولون: مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون انساً بل تقاتلون جناً.

ثم نزل سعد ببقية الجيش عندما تحصن الجانب الآخر، وقد أمر سعد الناس عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى عبروه للجانب الآخر لم يغرق منهم أحد.

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض، خرجت خيولهم تنفض أعرافها حتى دخلوا المدائن، فلم يجدوا بها أحداً، بل أخذ كسرى أهله وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة وهرب من المدائن الى حلوان فأخذ المسلمون يسيرون في سكك المدائن لا يلقون أحداً ولا يخشونه غير القصر الأبيض ففيه مقاتلة وهو محصن.

فلما جاء سعد بالجيش إلى القصر الأبيض دعا أهله للإسلام ثلاثة أيام[1].

يقول الطبري[2]: وعرضنا عليهم فقلنا: ثلاثة تختارون منهن أيتهن شئتم قالوا: وما هن؟ قلنا الإسلام فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فمناجزتكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم، فأجابنا مجيبهم: لا حاجة لنا في الأولى ولا في الآخرة ولكن الوسطى[2].

وهي دفع الجزية عن يد وهم صاغرون.

فنزل سعد القصر واتخذ الإيوان مصلى، وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[3] ثم تقدم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح بتسليمة واحدة، وأنه

---

(١) نفسه ٧/ ٧٣ ـ٧٤ بتصرف وانظر ت الطبري ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١.
(٢) ت الطبري ٤/ ١٧١.
(٣) الدخان آية ٢٥ ـ ٢٨.

جمَّع[1] بالإيوان في صفر من هذه السنة فكانت أول جمعة بالعراق، وذلك لأن سعداً نوى الإقامة بها[2].

هكذا فقد فتح الله على المسلمين جميع مدن العراق وفارس، وأصبحت كلها تحكم بشريعة الإسلام شريعة العدل والأمن والرخاء.

---

(١) أي لصلاة الجمعة.

(٢) البداية والنهاية ٧/٧٤.

الفصل الثالث

الدعوة في مصر قبل القتال

قال بن عبد الحكم[1]: . . . فلما كانت سنة ثماني عشرة، وقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية[2]، قام إليه عمرو بن العاص، فخلابه، وقال: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أن أسير إلى مصر، وحرضه عليها ـ وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية، وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها[3] ـ وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب.

فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر فعقد له أربعة آلاف رجل، كلهم من عك، ويقال: على ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقال عمر: سر وأنا مستخير الله في مسيرك، وسيأتي كتابي إليك سريعاً إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئاً من أرضها، فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي، فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ٥٦ لابن عبدالحكم. وانظر حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ١/١٠٦.

(٢) الجابية: بلدة تاريخية تقع بالقرب من دمشق، اشتهرت في التاريخ الاسلامي بحدثين: الأول: عام ١٥ هـ ٦٣٦ م حاصر أبو عبيدة مدينة القدس وطلب أهلها منه أن يتم تسليمها صلحا على يد الخليفة فقدم اليها عمر بن الخطاب. الثاني: عام ٦٤ هـ، ٦٨٣ م توفي معاوية الثاني واختلف الناس في بيعة خلفه وعقد مؤتمر في ذي القعدة من هذه لسنة في الجابية أقر فيه المجتمعون على مبايعة مروان ومن بعده خالد ومن بعدهما عمرو بن سعيد بن العاص (القاموس الاسلامي ١/٥٥ باختصار).

(٣) فتوح مصر ص ٥٣.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح[1]، فتخوف عمرو بن العاص، إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الإنصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قرية بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل: إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى، فقال إن أمير المؤمنين عهد إليّ، وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، وإن لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله[2].

دعوة عمرو بن العاص في مصر:

فقد ذكر ابن كثير عن ابن اسحق وسيف وغيرهما[3] قالوا: لما استكمل عمر بن الخطاب والمسلمون فتح بلاد الشام، بعث عمرو بن العاص إلى مصر، وزعم سيف أنه بعث بعد فتح بيت المقدس، وأردفه بالزبير بن العوام، وفي صحبته بشر بن أرطأه، وخارجة بن حُذافة، وعمير بن وهب الجمحي. فاجتمعا على باب مصر فلقيهم أبو مريم جاثليق[4] مصر، ومعه الأسقف أبو مريام في أهل من الثبات، بعثه المقوقس صاحب الإسكندرية لمنع بلادهم. فلما تصافوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نعذر، ليبرُز إليّ أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد، فبرزا إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمداً ﷺ، بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الأعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظا لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيراً فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة. فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا، وكانت من أهل

---

(١) اسم بلدة بين غزة والعريش على ساحل البحر الابيض بسيناء.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٥٧ وانظر المحاضرة للسيوطي ١/١٠٦ - ١٠٧.

(٣) البداية والنهاية ٧/١٠٨.

(٤) الجاثليق: رئيس النصارى في بلاد الشام.

منف والملك فيهم، فأديل[1] عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام مرحباً به وأهلاً. آمنّا حتى نرجع إليك، فقال عمرو: إن مثلي لا يخدع ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظروا ولتُناظروا قومكما والاّ ناجزتكم.

قالا: زدنا فزادهم يوماً، فقالا زدنا، فزادهم يوماً. فرجعا إلى المقوقس[2].

فأرسل المقوقس[3] إلى عمرو بن العاص: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، إنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، إنما أنتم أسارى في أيدينا فابعثوا[4] الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام، ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم، فابعث إلينا رجلاً من أصحابك نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء.

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم، ويستحلون ذلك في دينهم؟

وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين. فرد عليهم عمرو مع رسله: أنه ليس بيني وبينكم إلا احدى ثلاث خصال: أما أن دخلتم في الإسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين[5].

رأينا أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما حبس رسل المقوقس، كان هدفه من رواء ذلك أن هذه الرسل ترى ما يدور في عسكر المسلمين، من صلاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وقراءة القرآن، وتواضع، ومن جميع فضائل الأعمال والعلاقات الحسنة بين المسلمين. وكل هذا يعتبر دعوة إلى الله بالقدوة الحسنة، لأن هؤلاء الرسل ستنقل كل ما

---

(١) الادالة: الغلبة. ودالت الأيام: دارت (مختار ص ٢١٦).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠٨/٧.
(٣) حسن المحاضرة ١٠٩/١ فتوح مصر ص ٦٥ ابن عبد الحكم.
(٤) في حسن المحاضرة (فارسلو).
(٥) فتوح مصر ص ٦٥ وانظر حسن المحضرة ١١٠/١.

رأته في عسكر المسلمين إلى قومهم حين يرجعوا إليهم، ويكون عمرو بن العاص رضي الله عنه قد حقق ما أراد وهو نشر الإسلام بالقدوة الحسنة.

قال ابن الحكم[1]: لما جاءت رسل المقوقس إليه، قال لهم: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، لئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم.

فرد اليهم المقوقس رسله، وقال: ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم، وتنداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، واحدهم عبادة بن الصامت، وهو أحد من أدرك الإسلام من العرب[2].

دعوة عبادة بن الصامت للمقوقس في مصر:

بعث عمرو بن العاص عشرة نفر، وأحدهم عبادة بن الصامت، وهو أحد من أدرك الإسلام من العرب وطوله عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال، فإن أمير المؤمنين قد تقدم في ذلك إليّ، وأمرني ألا أقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث الخصال.

وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده فقال: نحوّا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني، فقالوا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنّا نرجع

---

(١) فتوح مصر ص ٦٥.
(٢) حسن المحاضرة ١/١١٠.

جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به[1].

فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد عليّ كلامك ازددت لك هيبة. فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنتَ أهيبَ لهم منك لي. وأنا قد وليتُ، وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي، وذلك إنما رغبتنا وبغيتنا الجهاد في سبيل الله تعالى، واتباع رضوان الله، وليس غزونا عدوَّنا ممن حارب الله لرغبته في الدنيا ولا طلباً للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا: أكان قنطار من الذهب، أم كان لا يملك إلا درهماً[2] لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها، يسد بها جوعته، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله، واقتصر على هذا الذي بيده لأن نعيم الدنيا ليس برخاء، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا، وأمر به نبينا، وعهد الينا ألا تكون همةُ أحدنا من الدنيا إلا فيما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضا ربه، وجهاد عدوه. فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟
لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة فقال: أيها الرجل، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم إلا بما ذكرت، ولا ظهرتم على من ظهرتم إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جميع الروم مما لا يحصي عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة، ممن لا يبالي أحدهم من لقي، ولا من قاتل وإنا نعلمكم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد اقمتم بين أظهرنا أشهراً، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم[3]، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم

---

(١) نفسه ١/١١١. (٢) نفسه.
(٣) حسن المحاضرة ١/١١٢.

قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به[1].

فقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: يا هذا؟ لا تغرّنّ نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفوننا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وإنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه، وإن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا، ولا أحب الينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين، وأما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا أن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الإجتهاد منّا، وإن الله تعالى قال لنا في كتابه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] وما منا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أهلله وولده، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلّفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك: أنا في ضنيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا، ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم، ولا نجيبكم إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا.

أما إن أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له مالنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك، فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولا نستحل أذاكم، ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية، فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضي به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم، اذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد الله علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا، أو نصيب ما نريد منكم هذا ديننا الذي ندين الله به، ولا يجوز لنا فيما

---

(١) نفسه.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩.

بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم.

فقال له المقوقس: هذا مما لا يكون أبداً، ما تريدون إلا أن تأخذونا لكم عبيداً ما كانت الدنيا[1].

فقال له عبادة: هو ذاك، فاختر ما شئت.

فقال له المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث؟ فرفع عبادة يده، وقال: لا ورب السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه، فقال: قد فرغ القول فما ترون؟ فقالوا: أو يرضى أحد بهذا الذل؟ أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم، فهذا لا يكون أبداً، ولا نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يسْبُونا ويجعلونا عبيداً أبداً، فالموت أيسر من ذلك، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً، وكان أهون علينا[2].

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرّتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون.

فقام عبادة وأصحابه، فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك: أطيعوني، وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين. فقالوا: أي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذا أُخبركم... أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة، قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً؟ قال: نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً، وتباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً، أنتم وأهلوكم وذراريكم. فقالوا: فالموت أهون علينا.

وأمر بقطع الجسر بين الفُسْطاط والجزيرة، وبالقصر من جمع الروم والقبط جمع كثير فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا بهم، وأمكن منهم فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء[3] من كل وجه، لا يقدرون على أن ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد، ولا

(١) حسن المحاضرة ١/١١٤. (٢) نفسه. (٣) نفسه ١/١١٥.

إلى غير ذلك من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخاف عليكم؟ ما تنتظرون! فوالله لتجيبهم إلى ما أرادوا طوعاً أو لتجيبهم إلى ما هو أعظم منه كرهاً، فأطيعوني من قبل أن تندموا.

فلما رأوا منهم ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال، أذعنوا بالجزية، ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه. وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: أنيّ لم أزل حريصاً على اجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت بها، فأبى ذلك عليّ من حضرني من الروم والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم، وقد عرفوا نصحي لهم، وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أماناً أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي ونفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعاً، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه[1].

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية، حتى يفتح الله علينا، وتصير كلها لنا فيئاً وغنيمة، كما صار لنا القصر وما فيه، فقال عمرو: لقد علمتم ما عهد إليّ أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من هذه الخصال الثلاثة التي عهد إليّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم، فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارات عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم، ولا على النساء شيء...[2].

هكذا فتح الله على المسلمين أرض مصر، وهكذا لم يدخر عمر بن الخطاب ولا المسلمون وسعاً في تجنب القتال مع أعداء الله وأعدائهم، وذلك بإرسال الرسل تترى رسول اثر رسول لدعوة الناس إلى الإسلام أو دفع الجزية إن لم يسلموا فمن أجاب منهم إلى الإسلام صاروا إخواناً للمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، ومن رفض منهم الإسلام وقبل دفع الجزية، كتب لهم عهد أمان، يضمن حريتهم في دينهم، وعدم التعرض للمسلمين في نشر الإسلام في بلادهم... وأما من يرفض الإسلام أو دفع الجزية فلا مناص أمام المسلمين من منازلتهم وقتالهم كما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما سوف نبينه في الفصل التالي إنشاء الله.

---

(١) حسن المحاضرة ١/١١٥.

(٢) حسن المحاضرة ١/١١٦.

الفصل الرابع
القتال في سبيل الدعوة

تمهيد

علمنا من قوله تعالى: ﴿قاتلوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وقاتلوهم حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾[2] وقول رسول الله ﷺ: (إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - إلى قوله: فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ)[3] وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: . . . أن أبوا - أي الإسلام أو دفع الجزية - فقاتلوهم . .)[4] إن الكفار إذا رفضوا الإسلام أو دفع الجزية فلا سبيل للمسلمين إلا قتالهم لنشر الدعوة الإسلامية.

لكن المسلمين لا يبدأوهم القتال إلا بعد أن يبرأوا هم قتالهم، فإذا بدأوا قتال المسلمين، فإن المسلمين لا يردون عليهم إلا إذا قتلوا قتيلاً من المسلمين، فإن قتلوا عُرض عليهم الإسلام أخيراً فإن رفضوا يقاتلوهم. هكذا كانت أوامر رسول الله ﷺ إلى أمراء البعوث والسرايا.

فقد أرسل رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى[5] من قبل الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما نزل مؤتة[6] عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني،

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩.
(٢) سورة الأنفال آية ٣٩.
(٣) سنن أبي داود حديث ٢٦١٢ وانظر صحيح مسلم حديث ١٧٣١.
(٤) خراج أبي يوسف ص ٢١٠.
(٥) بصرى: بلدة الشام.
(٦) كانا في السنة الثامنة من الهجرة ومؤته: موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس (أيام العرب ص ٩٢).

فقال له: إلى أين تريد؟ فقال: الشام. فقال: لعلك من رسل محمد، قال: نعم، فأمر به فأوثق، ثم قدمه فضرب عنقه. ولما علم رسول الله ﷺ بذلك بعث بعثه إلى مؤتة، واستعمل عليه زيد بن حارثة، وندب القوم[1]... وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارثة بن عمير، وأن يَدْعوا مَنْ هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا فليستعينوا عليهم بالله ويقاتلونهم[2].

وقال ﷺ لعلي إذ أرسله إلى اليمن ولمعاذ بن جبل (ولا تقاتلوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم، حتى يقتلوا منكم قتيلاً ثم أروهم ذلك وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا السبيل؟ فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربتها)[3] وفي رواية فقال ـ أي عليّ ـ نقاتلهم حتى يكونوا مِثْلَنَا. فقال ﷺ: (عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)[4].

وجاء في المبسوط للسرخسي[5] أنهم يوجبون على القائدة إذا أبوا الإسلام أو العهد ألا يحارب فور ذلك، بل يذهب إلى الصلاة مع جيشه، إذا أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة، وقالوا: أنه لا يحسن ألا نقاتلهم فور الدعوة والسكوت بل يُبَيِّتَهُمْ ـ أي يتركهم يَبِتُونَ ليلة ـ يتفكرون ويتدبرون ما فيه مصلحتهم. وإذا بدأ القتال والتحمت الصفوف فإن المسلمين يقاتلون أعدائهم طبقاً لأحكام القتال والتي منها: ـ

١ ـ الثبات في القتال: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[6] وقال ﷺ: (لَا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا)[7] وفي رواية: (لَا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ واسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لقيتموهم فاثبتوا واذْكُرُوا الله فإن صخبوا وصاحوا فعليكم الصمت)[8].

٢ ـ ذكر الله تعالى: ﴿واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[9] ولقوله تعالى: ﴿.. إذا

---

(١) ندب القوم: دعاهم للخروج.
(٢) أيام العرب في الاسلام ص ٩٢ وانظر الطبري ١٠٧/٣.
(٣) الدعوة الى الاسلام لابى زهرة ص٧١.
(٤) فتح البارى ٦ حديث ٢٩٤٢ وحمر النعم: وهي الابل وهي خير اموال العرب.
(٥) الدعوة للاسلام لابى زهرة ص ٧١ وانظر المبسوط للسرخسي ٦/١٠.
(٦) سورة الأنفال آية ٤٥.
(٧) متفق عليه انظر رياض الصالحين حديث ١٣٥٨.
(٨) تفسير ابن كثير ج ١٠ ص٣١٧.
(٩) سورة الانفال آية ٤٥.

لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله . .﴾[1] وكان ﷺ يأمر بتلاوة آية الجهاد عند اللقاء. وكذلك كان عمر يفعل في خلافته يجعل قَاصًّا يعظ الناس ويحثهم على القتال، وكان قارىء القرآن يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد[2]. وعن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مرفوعاً قال (أن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة، وقال ﷺ: (أن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه)[3].

٣ ـ الطاعة وعدم التنازع: يجب على الجند طاعة الله ورسوله وطاعة أميرهم حتى لا يفشلوا في القتال قال تعالى: ﴿. . وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا. .﴾[4] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[5] وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً وأمّر عليهم رجلاً وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا. . .[6].

وقال ﷺ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعْ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)[7].

٤ ـ الصبر عند اللقاء: لقوله تعالى: ﴿. . وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[8] قال رسول الله ﷺ (. . . فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ. . .)[9] وكان عمر يوصي أمراء الجند بالصبر عند اللقاء. وعندما كتب له أبو عبيدة يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، كتب إليه عمر رضي الله عنه: أما بعد: فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا، وأنه لن يغلب عسر يسرين[10] إن الله يقول في كتابه ﴿يَآ أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[11].

---

(١) البداية والنهاية ٩/٧.
(٢) تفسير ابن كثير ١٠/ ٧١٣.
(٣) نفسه، والمعنى لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي.
(٤) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٥) سورة النساء آية ٥٩.
(٦) أخرجه أبو داود حديث ٢٦٢٥، وانظر البخاري ٧٨/٩ في الأحكام.
(٧) متفق عليه، انظر رياض الصالحين تحقيق الالباني حديث ٦٧٥.
(٨) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٩) أخرجه أبو داود حديث ٢٦٣١، انظر البخاري ٥٣/٤.
(١٠) موسوعة فقه عمر ص ٢٣٤ عن موطأ مالك ٤٤٦/٢.
(١١) آل عمران آية ٢٠٠.

٥ ـ عدم الفرار من المعركة: لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ،وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللهِ﴾[1] حدَّث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، قال: فحاص الناس حيصة[2] فكنت فيمن حاص، قال: فلما برزنا قلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ فقلنا: ندخل المدينة، فنثبت فيها، ونذهب، ولا يرانا أحد، قال: فدخلنا، قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا، قال: فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه، فقلنا نحن الفرارون، فأقبل إلينا، فقال: (لا، بل أنتم العكارون)[3] قال: فدنونا فقبَّلنا يده، فقال: (أنا فئة المسلمين)[4].

وقد كتب عمر إلى النعمان بن مقرِّن كتاباً قال: إذا لقيتم العدو فلا تفروا وإذا غنمتم فلا تغلوا[5].

٦ ـ التحيز إلى فئة: لقول الله تعالى: ﴿.. إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ﴾[6].

وشتَّان بين الفرار من المعركة، والإنسحاب منها للتحيز إلى فئة، لأن الفرار منها يعني الخوف من العدو، وترك القتال لذلك، أما الإنسحاب للتحيز إلى فئة فإنه يعني التصميم على قتال العدو ولكن المجاهد عندما يرى أن موقفه الحالي غير مؤثر في العدو، فإنه يبدله بموقف آخر أكثر تأثيراً فيه، وذلك هو التحيز إلى فئة، وعلى هذا فإن التحيز إلى فئة يعني: الإنسحاب المدروس لمعاودة القتال بشكل أقوى، ومن هذا التحيز إلى فئة إنسحاب القائد بجنوده من معركة غير متكافئة ريثما يأتيه المدد، ويستكمل استعداده، ليعود للقتال من جديد بشكل أقوى.

وقد استعمل أبا عُبيد الثقفي على جيش في معركة الجسر[7] لقتال الفرس فخاض

---

(١) الأنفال آية ١٥ ـ ١٦.

(٢) حاص الرجل: اذا حاد عن طريقه او انصرف عن وجهه الى جهة اخرى.

(٣) يريد انتم العائدون الى القتال والعاطفون عليه.

(٤) أخرجه أبو داود حديث ٢٦٤٧، وأخرجه أحمد والترمذي.

(٥) الخراج لأبي يوسف ٣٦.

(٦) الأنفال آية ١٦.

(٧) يسمى قس الناطف موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات، ويسمى يوم الجسر لما كان من قطعه وراء المسلمين (ايام العرب ص ٢٣٠).

معركة غير متكافئة مع العدو، وظن أن انسحابه منها هو الفرار من الزحف، فاستمر فيها، فَقُتل هو وجيشه في أرض فارس، فقال عمر: رحم الله أبا عُبيد، لو كان تحيز إلى لكنت له فئة[1]. وفي رواية قال عمر: أنا فئتكم[2] وقد فعل ذلك خالد بن الوليد يوم مؤتة بالشام فلم يعتبره الرسول ﷺ فاراً من الزحف. وذلك عندما أخذ الراية خالد وانسحب بالجيش من مؤتة إلى المدينة فجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله فيقول الرسول ﷺ: (لَيْسُوا فُرَّاراً، ولكنَّهُم الكُرَّارُ)[3].

٧ ـ ولا يجوز لأمير الجند المجازفة بجند المسلمين: فلا يوردهم موارد الرّدى، ولو كان من وراء ذلك الفتح والغنائم، لأن المسلمين إنما يحاربون لإنقاذ الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ظلم الحكام وجورهم إلى عدل الإسلام، ليحرروا عقولهم وقلوبهم من الخرافة والوهم[4].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[5]. وكان عمر يوصي قادة جند المسلمين بالترفق بهم وعدم المجازفة بهم.

كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: . . . وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم. . ويقول، أيضاً: ولا تبعثن سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية. .[6].

وعن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأله: إذا حاصرتم المدينة كيف تصنعون؟ قال: نبعث الرجل إلى المدينة، ونصنع له هنة[7] من جلود، قال: أرأيت إن رمى بحجر؟ قال: إذن يقتل، قال فلا تفعلوا، فوالذي نفسي بيده ما يسرني أن تفتحوا مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل بتضييع رجل مسلم[8]. وكان عمر يقول: لئن استنقذ رجلاً

---

(١) المغنى لابن قدامه ٤٨٥/٨ وانظر موسوعة فقه عمر ص ٢٣٥.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣١/٧ وانظر الطبري في التاريخ ٦٧/٤ـ ٧٠.
(٣) أيام العرب ص ٩٥.
(٤) موسوعة عمر بتصرف ص ٢٣٥.
(٥) سورة البقرة آية ١٩٥.
(٦) جمهرة رسائل العرب ٢٣٤/١ ـ ٢٣٥.
(٧) هن: بوزن أخ، كلمة كِنَاية ومعناها شيء (المختار ص ٤٠٠).
(٨) موسوعة فقه عمر ص ٢٣٥ عن سنن البيهقي ٤٢/٩.

من المسلمين من أيدي الكفار أحبّ إليّ من جزيرة العرب[1]. وقال أيضاً: لرجل مسلم أحب إليّ من كل شيء جئت به[2].

وكان عمر يعتبر الغزو في البحر تعريضاً للجند إلى الهلاك، ولذلك كان لا يأذن به. قال سعيد بن المسيَّب: كان عمر يكره أن يحمل المسلمين غزاة في البحر حيث قال: لا تنزلوا المسلمين ضفة البحر[3] وقد تولد عند عمر هذا الخوف على جند المسلمين من البحر بعد أن بعث علقمة بن مجزّر في أناس إلى الحبشة فأصيبوا في البحر، فحلف عمر بالله لا يحمل فيه أبداً.

٨ ـ من لا يجوز قتله في الحرب: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾[4] وكتب عمر إلى أمراء الأجناد: أن يقاتلوا في سبيل الله ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم[5] ومن هؤلاء الذين لا يقاتلون عادة: النساء والصبيان والشيوخ الذين تقدمت بهم السن، وبدا عليهم الهرم.

لذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتل الشيوخ والنساء والذرية أو التمثيل بقتلى العدو. عن حنظلة الكاتب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فمررنا بإمرأة مقتولة والناس عليها، فأفرجو عنها، فقال رسول الله ﷺ: (ها. ما كانت هذه تقاتل الحق خالدا، فقل له: لا تقتل ذرية ولا عسيفا)[6]. وقال ﷺ في حديث آخر: (أَلَا لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِيّة، أَلَا تَقْتُلَنَّ ذرية)[7] وقال ﷺ: (لَا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً، وَلَا طِفْلاً، وَلَا صَغِيراً، وَلَا امْرَأَةً. .)[8] وقال ﷺ: (. . لَا تَقْتُلُوا وَلَا تُمَثِّلُوا. .)[9].

وقد أوصى عمر رضي الله عنه سلمة بن قيس فقال: لا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا شيخاً هرماً[10] ومن هؤلاء أيضاً الفلاحون الذين شغلتهم أراضيهم عن الحرب، فقال عمر: اتقوا

---

(١) خراج أبو يوسف ص ٢١٢.
(٢) موسوعة فقه عمر ص ٢٣٥.
(٣) المغنى ٣٥٧/٨، وانظر ص ٢٣٥ من موسوعة فقه عمر.
(٤) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٥) الأموال لأبي عبيد ص ٣٧.
(٦) نفسه ص ٣٨ والعسيف: الأجير.
(٧) الأموال ص٣٨ وقد جعل النساءمن الذرية.
(٨) أخرجه أبو داود حديث ٢٦١٤.
(٩) نفسه حديث ٢٦١٣.
(١٠) المغنى ٣٧/٨، موسوعة فقه عمر ص٢٣٦.

الله في الفلاحين فلا تقتلوهم إلا أن ينصبوا الحرب[1]. وأمر عمر أيضاً بعدم التمثيل بالقتلى في الحروب حيث قال: . . ولا تقتلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا[2].

٩ ـ عدم الغلول والغدر في الحرب: والغلول هو: سرقة أحد المجاهدين من الغنيمة، ولا يقام على الغال حد السرقة[3] بل يعزز[4]. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[5].

وقد عظم رسول الله ﷺ أمر الغال، فقد ذكر أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (صَلُّوا عَلَىَ صَاحِبَكُمْ) فتغير وجوه الناس لذلك، فقال: (إن صاحبَكم غلَّ في سبيل الله) ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين[6] وقال ﷺ: (. . أغْزُوا، وَلاَ تَغْدُرُوا، وَلاَ تَغُلُّوا)[7]. وكان عمر رضي الله عنه يأمر قادة جنده وجنده بعدم الغلول: قال عمر لسلمة بن قيس عندما ولاه أمرة الجيش. . . . فإن قاتلكم ـ يعني العدو ـ فلا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا[8].

١٠ ـ وإن طلب الكفار من الإمام وقف القتال مؤقتا جاز أن يجيبهم إليه، ولو طلبوا الصلح والنزول على حكم المسلمين وجب على الأمير إجابتهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ. . .﴾ إلى قوله ﴿وإنْ جَنَحُوا للسِّلم فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَىَ الله. .﴾[9] وقوله صلى الله عليه وسلم: (. . . وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىَ حُكْمِ الله تَعَالَىَ فلا تُنْزِلَهُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ مَا يَحْكُمُ الله فِيهِمْ، وَلَكِن أَنْزِلُوهُم عَلى حُكْمِكُمْ، ثم اقْضُوا فِيهِمْ بَعْدَ مَا شِئْتُم)[10]. قال عمر لسلمة بن

---

(١) موسوعة عمر ص ٢٣٦.
(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٢١٠، وانظر موسوعة فقه عمر ص ٢٣٣ تأليف محمد رواش قلعه جي.
(٣) موسوعة فقه عمر ص ٥٢٠ ـ ٥٢١.
(٤) هو العقوبة المفروضة على ارتكاب جريمة لم يأت الشارع بعقوبة محددة عليها (موسوعة فقه عمر ص ١٦٢.
(٥) سورة آل عمران آية ١٦٠ ـ ١٦١.
(٦) أخرجه أبو داود حديث ٢٧١٠.
(٧) نفسه حديث ٢٦١٣.
(٨) خراج أبي يوسف ص ٢١٠.
(٩) سورة الأنفال آية ٦١.
(١٠) أخرجه أبو داود حديث ٢٦١٢

قيس: . . . وان تحصنوا منكم في الحصن فَسَألوكم أن تنزلوهم على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلوهم على حكم الله ولا حكم رسوله فإنكم لا تدرون ما حكم الله وحكم رسوله فيهم، وإن سألوكم أن تنزلوهم على ذمة الله وذمة رسوله، فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسُوله، وأعطوهم ذمة أنفسكم. . .[1].

١١ ـ وفي أثناء القتال ان طلب أحد أفراد العدو من الكفار، أو جماعة منهم الأمان جاز للأمير أن يبذله لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[2] قال أبو يوسف[3]: ولو أن رجلا أشار إلى رجل بأمان باصبعه ولم يتكلم بذلك فإن الفقهاء اختلفوا في هذا، فمنهم من يقول: يجوز ومنهم من يقول: ليس بأمان، فكان أحسن ما سمعناه في ذلك والله أعلم أنه أمان. لما جاء عن عمر في ذلك أنه جعله أمانا.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ذِمَّةُ الْمُسْلِمِ واحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ[4]) وكذلك لو كلمه بالأمان بلسان الفارسية كان أمانا.

عن الفضيل بن يزيد السرقاسي قال: كتب إلينا عمر: أن عهد المسلمين من المسلمين وذمته من ذمتهم يجوز أمانه، وعن أبي وائل قال: أتانا ونحن بخانقين[5] كتاب عمر: . . وإذا قال الرجل للرجل[6] لا تَوجْلْ فقد أمَّنه، وإن قال له لا تخف فقد أمنه، وإذا قال له: مطّرس[7] فقد أمنه فإن الله يعلم الألسنة[8].

١٢ ـ الأسرى والغنائم:

وإذا تمت غلبة المسلمين على الكافرين بإذن الله كان أفراد الكافرين سَبْياً[9]، وما

---

(١) الخراج لابى يوسف ص ٢١٠.
(٢) سورة التوبة آية ٦.
(٣) الخراج ٢٢٢.
(٤) نفسه ٢٢٢.
(٥) بلدة من سواد بغداد، سميت كذلك لان النعمان خنق بها عدى بن زيد (الخراج لأبى يوسف ص ٢٢٢.
(٦) يعنى: اذا قال الرجل من جند المسلمين للرجل من جند الكفار.
(٧) مطّرس: بتشديد الطاء: معرب مطرس، كلمة فارسية معناها لا تخف.
(٨) الخراج لأبى يوسف ص٢٢٣.
(٩) السبى: أخذ الكفار الحربيين أثناء القتال أو بعد فتح بلادهم عنوة (موسوعة عمر ص٧٣).

يملكون من أموال منقولة وغير منقولة غنيمة[1] للمسلمين.

لقد عشنا بعضا من أحكام القتال في الإسلام، دين السماحة واليسر في السلم وفي الحرب، وبقي أن نعرف كيف كانت الجيوش الإسلامية الفاتحة في عهد عمر رضي الله عنه تطبق هذه الأحكام في ميادين القتال المختلفة؟

لقد كانت الجيوش الإسلامية التي يبعثها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح البلاد ونشر الدعوة الإسلامية تلتزم بتعاليم الإسلام بكل دقة وأمانة في قتالهم مع المشركين، ويحسن بنا أن نسوق بعضاً من الأمثلة الحية على ذلك من واقع ميادين القتال المختلفة بين المسلمين وأعداء الله من المشركين وذلك في ثلاث مباحث.

---

(١) الغنيمة: ما يأخذه المسلمون من مال الحربي الكافر قهرا بالقتال.

المبحث الأول

القتال لنشر الدعوة في بلاد الشام

بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيش المسلمين لفتح بلاد الشام، وأمّر عليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، وأمره أن يدعو القوم للإسلام «أولاً» قبل مناجزتهم. فكان أبو عبيدة نعم الأمير لجند المسلمين، ونعم الطائع لأمير المؤمنين، فلا يُبرم أمرا إلا بعد مشورة ذوي الرأي من أصحابه، ثم إبلاغ أمير المؤمنين بما اتفق عليه طالباً مشورته أيقدم على هذا الأمر أم يحجم عنه.

فمن ذلك مثلا أنه بعد أن أتم الله النصر للمسلمين في وقعة «اليرموك» بلغ أبا عبيدة أن الروم أَرَزوا[1] إلى «فحل» وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشيره: أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الأردن؟ فكتب إليه عمر: أما بعد، فابدؤا بدمشق فانْهَدُوا لَها[2]، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل «فحل» بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحُها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على «فحل» فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمراً وخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته[3].

ولما دعا أبو عبيدة الروم للإسلام في «فحل» ورفضوا الإجابة للدعوة كما رفضوا دفع الجزية، بدأ أبو عبيدة يستعد للقتال في سبيل الدعوة، فوقف من مكانه، فسار في الناس وقال: أصبحوا أيها الناس وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم. فأصبح الناس وخرجوا

---

(١) لاذ.

(٢) أي انهضوا.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٥٧ وانظر جمهرة رسائل العرب ١/١٦٢ ذكي صفوت.

على تعبئتهم ومصافهم[1] ثم أرسل أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كتابا شرح فيه الموقف وما كان من الروم ورفضهم دعوة الحق، وتجمعهم لقتال المسلمين. فرد عليه عمر بن الخطاب بكتاب حرضه فيه على قتالهم، ودعا الله لهم بالنصر حيث قال: . . . أما بعد فإن كتابك جاءني بنفير الروم ومنزلهم الذي نزلوا به، ورسالتهم التي أرسلوا، وبالذي رجعت إليهم فيما سألوك، وقد سُدِّدت بحجتك، وأوتيت رشدك فإن أتاك كتابي هذا وأنتم الغالبون فكثيراً ما تذكر ربنا بالإحسان إلينا وإليكم، وإن أتاكم وقد أصابكم نكب أو قرح[2] فلا تهنوا ولا تستكينوا فأنتم الأعلون، وإنها دار الله وهو فاتحها عليكم، لتصديق منا لقول نبينا ﷺ: فاصبروا إن الله مع الصابرين. . .[3].

ولما وصل رد عمر إلى أبي عبيدة بدأ في قتال القوم حتى هزمهم الله، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأقام المسلمون على الحصون وقد غلبوا على سواد الأردن، وعلى أرضها وعلى ما فيها. فسألهم الروم أن ينزلوا إليهم، وأن يؤمنوهم[4] وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بنصر الله لهم على الروم.

ولما رأى أهل «فحل» أن الأرض ـ أرض الأردن ـ قد غلب عليها المسلمون سألوا الصلح على ألا يقاتلوهم، وأن يعفي لهم عن أنفسهم، وأن يؤدوا الجزية، ومن كان منهم من الروم أن يلحق بالروم ويخلي بلاد الأردن، وعلى أن يقيم منهم من أحب المقام، فيؤدي الجزية. فصالحهم المسلمون فكتبوا لهم كتاباً[5].

هكذا نرى أن الروم في «فحل» لم تقبل الدخول في الإسلام عندما دعاهما كل من معاذ بن جبل وأبو عبيدة رضي الله عنهما.

ولما رفضوا الدخول في الإسلام أو دفع الجزية اضطر أبو عبيدة إلى القتال في سبيل الدعوة. ولما غلبهم المسلمون اضطروا الى دفع الجزية عن يد وهم صاغرون عملاً بالآية الكريمة ﴿قَاتِلُوا الَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَة عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[6].

---

(١) فتوح الشام للأزدى ص ١٢٥.
(٢) ألم. (٣) فتوح الشام للأزدى ص ١٢٥.
(٤) الأزدى ص ١٣٩. (٥) نفسه ص ١٤٠.
(٦) سورة التوبة آية ٢٩.

وقعــة اليرمــوك

رفض باهان قائد الروم دعوة الإسلام عندما دعاه خالد بن الوليد رضي الله عنه ورد عليه قائلاً: إما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم، وإما أن نؤدي الجزية ـ وتنفس صعداً وثقلت عليه وعظمت عنده ـ فقال: سيموت من ترى جميعاً قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها، وأما قولك فاخرجوا حتى يحكم الله بيننا، فلعمري ما جاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله، وأما قولك: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدقت، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها، وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا، فقاتلناهم عليها، فأخرجناهم منها، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء، الذين كنا قاتلناهم فيها فابرزوا على اسم الله فإنا خارجون إليكم.

قال الازدي: فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام، وقمت معه، فمر بقبته فتركها له، ومضينا حتى خرجنا من عسكرهم. قال: وبعث معنا صاحب الروم رجالاً أخرجونا من عسكرهم، وحتى أمّنا قال: فرجعنا إلى أبي عبيدة، فقص عليهم خالد الخبر، وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم، وقال للناس: استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم على ساعة مقاتلون[1].

قال الأزدي:[2] وأقبلت الروم كقطع من الليل حتى إذا حاذوا الميمنة نادى معاذ بن جبل الناس فقال: يا عباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشدّة عليكم. ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر في البأساء. قال:[3] وحمل خالد بن الوليد رحمه الله فقصف بعضهم على بعض وشدخ[4] منهم في المعسكر نحواً من عشرة آلاف رجل... وقال خالد: يا أهل الإسلام لم يبق عند القوم من الحد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدّة الشدّة، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة.

قال الأزدي:[5] فضرب الله وجوه الروم ومنح المسلمين أكتافهم فقتلوهم كيف شاءوا... وأتبعهم المسلمون، يقتلونهم كل قتلة، وركب بعضهم بعضاً حتى انتهوا إلى مكان مشرف على أهوية[6] تحتهم فأخذوا يتساقطون فيها ولا يبصرون، وهو يوم ذو ضباب، فأخذ لا يعلم آخرهم، ما يلقى أولهم، وهم يرتكسون...[7].

---

(١) فتوح الشام للأزدي ص ٢٠٧.
(٢) نفسه ص ٢٢٢.
(٣) نفسه ص ٢٢٥.
(٤) شدخ: قتل (أزدي ص ٢٢٥).
(٥) فتوح الشام للأزدي ص ٢٣٠.
(٦) أماكن منخفضة.
(٧) يسقطون.

واستطرد الأزدي يقول: وبعث أبو عبيدة شداد بن أوس بن ثابت بن أخي حسان ابن ثابت، فعدهم من الغد بعد الوقعة بيوم، فوجد من سقط من تلك الأهوية حين عدهم بالقصب أكثر من ثمانين ألفاً، فسميت تلك الأهوية الواقوصة حتى اليوم، لأنهم وَقَصُوا فيها وما فطنوا، لتساقطهم فيها، حتى انكشف الضباب، فأخذوا في وجه آخر، وقتل المسلمون منهم بالمعركة بعدما أدبروا نحواً من خمسين ألفاً. وأتبعهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، على الخيل، يقتلهم في كل واد، وكل شعب، وفي كل جبل وفي كل ناحية، فلم يزل يقتلهم حتى انتهى الى دمشق، فخرج إليه أهل دمشق، فاستقبلوه، وقالوا: نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم. فقال خالد: أنتم على عهدكم[1].

واستطرد الأزدي يصف الوقعة ويقول: ثم أتبعهم خالد ـ أي جنود الروم ـ فجعل يقتلهم في القرى والأودية وفي الجبال والشعاب، والسهل والجبل، وفي كل وجه. فلم يزل يقتلهم حتى انتهى إلى حمص. فخرج إليه أهل حمص، فقالوا له: مثل ما قال له أهل دمشق. وقال لهم: نحن على ما كان بيننا وبينكم[2].

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أظهره الله على أهل اليرموك فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أمير المؤمنين، من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، أما بعد، فالحمد لله الذي أهلك المشركين، ونصر المسلمين وقديماً ما تولى الله أمرهم، وأظهر فُلجهم، وأعز دعوتهم، فتبارك الله ربّ العالمين، أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله، إنّا لقينا الروم، وهم في جموع لم تلق العرب مثلها جموعاً قط، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ما قوتل المسلمون مثله في موطن قط ورزق الله المسلمين الصبر وأنزل عليهم النصر. . . .[3] وأقبل أبو عبيدة على قتلى المسلمين، يرحمهم الله، وجزاهم عن الإسلام خيراً، فدفنهم[4].

---

(١) فتوح الشام ص ٢٣١.
(٢) نفسه ص ٢٣١.
(٣) نفسه ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٤) نفسه ص ٢٣١.

المبحث الثاني

القتال لنشر الدعوة في بلاد فارس

وقعة القادسية:

لقد رفض يزدجرد ملك الفرس قبول الدعوة الدعوة الإسلامية، وكذلك رفض دفع الجزية ورد الوفد الإسلامي رداً مهيناً وتوعدهم بالحرب. وقال لهم: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، ثم قال: آتوني بوقر من تراب، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن[1]. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم[2] حتى يدفيكم ويدفيه[3] في خندق القادسية وينكل به وبكم من بعده ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور، ثم قال: من أشرفكم؟ فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو وافْتَات ليأخذ التراب، أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحملنيه فقال: أكذاك؟ قالوا: نعم فحمّله على عنقه فخرج به من الإيوان[4] والدار حتى أتى راحلته فحمّله عُليها ثم انجذب في السير فأتوا به سعد وسبقهم عاصم فمر بباب قديس فطواه وقال: بشروا الأمير بالظفر، ظفرنا انشاء الله، ثم مضى حتى جعل التراب في الحجر، ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر فقال: أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم.

وجاء أصحابه وجعلوا يزدادون في كل يوم قوة ويزداد عدوهم، في كل يوم وهناً، واشتد ما صنع المسلمون وصنع الملك من قبول التراب على جلساء الملك، وراح رستم من ساباط إلى

---

(١) ت الطبري ٤ / ٩٥.

(٢) رستم بن الفرّ خزاد الأرمني. قائد جيش الفرس في وقعة القادسية.

(٣) يدفيكم: يقتلكم. وفي قصة قتل مالك بن نوير أن خالداً قال لجنده: دافئوا أسراكم. يقصد أن يدفئوهم من البرد، ففهم الجند من كنانة أنه يريد قتلهم فقتلوهم. وربما كان الأصل يدفئكم فحدث تصحيف (القادسية أحمد عادل كمال) هامش ١ ص ٧٦.

(٤) الإيوان: القصر الذي يقيم فيه كسرى فارس.

الملك يسأله عمّا كان من أمره وأمرهم وكيف رآهم. فقال الملك: ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتهم، دخلوا عليّ وما أنتم بأعقل منهم، ولا أحسن جواباً منهم[1]. وأخبره بكلام متكلمهم وقال: لقد صدقني القوم، لقد وعد القوم أمراً ليدْرِكُنّه أو ليموتن عليه، على أني قد وجدت أفضلهم أحمقهم، لما ذكروا الجزية أعطيتهم تراباً فحمله على رأسه فخرج به ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أعلم. قال: أيها الملك، إنه لأعقلهم، وتَطَيَّر إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه، وخرج رستم من عنده كئيباً غضبانَ، وكان منجماً كاهناً، فبعث في أثر الوفد وقال لثقته: إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءَكم[2].

فرجع الرسول من الحيرة بقواتهم فقال: ذهب القوم بأرضكم غير ذي شك. ما كان من شأن ابن الحجّامة الملك، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا. وكان ذلك مما زاد الله به فارس غيظاً.

وعندما لم يستمع رستم ولم يستجب للدعاة الذين أتوه تترى لدعوته وقومه للإسلام. كان لا بد من مناجزتهم حتى يحكم الله بينهم وهو خير الحاكمين.

لذلك أمر سعد رضي الله عنه جنوده أن يستعدوا لملاقات عدوهم وقال لجنوده[3]: إلزموا مواقفكم ولا تحركوا شيئاً حتى تُصَلُّوا الظهر، فاذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعْطه أحد قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا، ولتَسْتَتِمَّ عندكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبرت الرابعة، فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقاتل سعد وجنده أعداء الله من الفرس بالقادسية حتى أظهره الله عليهم وأعطاه الله مفاتيح بلادهم لينشروا فيها الدعوة الإسلامية.

بعث سعد سلمان الفارسي إلى بهرسير عندما امتنعت أشد الامتناع ولم تقبل الإسلام ولا دفع الجزية، وأبوا إلاّ المقاتلة والعصيان، فقاتلهم سعد حتى فتح الله على المسلمين وهرب أهلها[4].

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٩٥.
(٢) تاريخ الطبري ٤ / ٩٦.
(٣) تاريخ الطبري ٤ / ١١٦.
(٤) البداية والنهاية بتصرف ص ٧ / ٧٠. وبهرسير: احدى مدينتي كسرى مما يلي دجلة إلى الغرب.

إنه يستفاد مما ذكرناه أن القتال في الإسلام للدعوة الحرة، لا للإجبار، ولا للإكراه على الإسلام بل لفتح الطريق أمام الدعوة الحرة إلى الإسلام.

ويستفاد أيضاً أنه لا يكون القتال إلا بعد أن يعتدى أهل الشرك بالفعل، ويقتلوا ليتحقق الاعتداء منهم، ويكون القتال من بعد ذلك لرد الاعتداء الذي ابتدأوه.

ويستفاد من ذلك أن يستأنى بهم ليتفكروا ويتدبروا[1].

---

(١) الدعوة للإسلام أبو زهرة ص ٧٢ بتصرف.

الفصل الخامس
الدعوة في أعقاب القتال

القتال في الإسلام لا ينتهي بإثارة الأحقاد، فلا يقول الجيش المؤمن المنتصر: ويل للمغلوب، ولكن يقول: رحمة بالمغلوب ورفقاً به، لأنه لا يقاتل الشعوب، إنما يقاتل معسكر السلطان فقط، لأن السلطان هو الذي يحول بين الشعب وبين الدعوة إلى الإسلام، ثم الدخول راغباً لا راهباً لمن يريد اعتناقه، واتباع الهدى[1].

ولأن انتهاء القتال بفتح باب الدعوة يكون العفو والمعذرة، ويدخل في الإسلام من أراد، ويبقى على دينه من يريد. لقد خطب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم)؟ قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[2] وكان ﷺ قد دخلها عليهم عنوة.

ومن يبقى على دينه يُحكم بالعدل لا بالعسف والظلم، فالظلم حرام أياً كان المظلوم والعدل مطلوب أيا كان من ينتفع به، إذْ بعد القتال لا غالب ولا مغلوب، بل مودة وحسن جوار وعدل، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ والتقوى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأثمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[4].

لقد كان الفتح الإسلامي فتحاً لباب الدعوة الإسلامية على مصراعيه، وكان أيضاً فتح خير وبركة على البلاد المفتوحة، لا فتح سلب ونهب لممتلكاتهم، ففي أعقاب الحرب

---

(١) الدعوة الى الإسلام لأبي زهرة ص ٧٣.
(٢) سيرة الرسول لابن هشام ٤/٣٢.
(٣) سورة المائدة آية ٢.
(٤) سورة المائدة آية ٨.

وانتصار المسلمين بفضل الله تعالى قام عمر رضي الله عنه والمسلمون الفاتحون على الفور يحققون الهدف الأساسي من تلك الفتوح، وهو نشر الدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولتحقيق ذلك عمدوا إلى الآتي:

أولاً: نشر الإسلام وتعليمه للناس جميعاً:

قلنا أن الهدف الأساسي من الفتوح الإسلاميه ـ كما تقدم آنفاً ـ هو نشر الإسلام بالدعوة إليه، وعلى هذا بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدعاة وقال لهم: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فإني إنما بعثتهم لِيُعلِّموا الناسَ دينهم وسنّة نبيهم ﷺ[1].

ثانياً: حماية تعاليم الإسلام:

وكان عمر يحمي الإسلام في كل البلاد الإسلامية والمفتوحة من المنحرفين الذين يندسوا بين صفوف المسلمين، ومن أهل البدع والخرافات. فقد كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنه بلغني أن ناساً من قبلك دعوا بدعوة الجاهلية ـ يا آل ضبة ـ فإذا أتاك كتابي هذا فأنهكهم عقوبة في أموالهم وأجسامهم حتى يفرقوا إذا لم يفقهوا[2].

وأمر أيضاً بجلد شاربي الخمر عندما تأولوا الآية الكريمة ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ فِي جنَاحُ فِيمَا طَعِمُوا﴾[3]. وأمر بقطع الشجرة التي بايع تحتها النبي ﷺ حتى تسد باب الفتنة، كما نهى عن اتخاذ مصلى النبي ﷺ في الطريق مصلى فقال: ،،، من عرضت له منكم الصلاة فيه، فليصل،، ومن لم تعرض له الصلاة فليمض[4].

ثالثاً: الدفاع عن أرض الإسلام:

فالدفاع عن أرض الإسلام واجب المسلمين جميعاً وبصفة خاصة ولي أمر المسلمين.

قال عمر: إني حريص على ألاّ أدع حاجة إلا وسددتها[5] وكان يتخذ في كل مصر

---

(١) خراج أبو يوسف ض ١٥.
(٢) موسوعة فقه عمر ص ١٠٣.
(٣) سورة المائدة آية ٩٣، وانظر البداية والنهاية ١٠٢/٧.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيميه ص ٣٦٨.
ت الطبري ١٤٥/٤.

على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عُدَّةً لِكَوْن كان[1] وكان هذا بمثابة جيش مرابط للدفاع والمحافظة على ارض الإسلام، وكان عمر يقول: ولكم عليَّ أن أسد ثغوركم[2].

رابعاً: الدفاع عن شعوب الدولة الإسلامية:

فكان عمر يوصي عماله بالدفاع عن قاطني الدولة الإسلامية يستوي في ذلك المسلم والذميّ قال عمر: أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله. وأوصيه بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم وكرامتهم. وأوصيه بالأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم. وأوصيه بأهل الأمصار فإنهم ردء الإسلام، وغيظ العدو وجباة المال، أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم، وأوصيه بالأعراب، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم[3].

خامساً: العدل بين الرعية:

لقد ساعد نشر العدل بين السكان مسِلِمِهم ومعَاهَدِهم إلى سرعة إنتشار الإسلام، فالإسلام دين العدالة، وإذا كان لكل دين سمة فسمة الإسلام العدالة، لأنه يأمر بالعدل حتى مع أعدائه[4] يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ[5] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[6] ولقد جاء الإسلام نوراً في ظلمات الجاهلية، كان الأمر في بلاد الفرس والروم التي فتحها المسلمون أمْر الأمَرَاء والملوك الذين يتوارثون الناس، وأموالهم، وأنفسهم، كما يتوارث المالك ما كان يملكه أبوه، فهم إن كانوا أحراراً، وليسوا عبيداً فيما يظهر من عامة أمورهم ليسوا مالكين ولأنفسهم، وإنما يملكها الملك الذي ورثهم. فإذا قتل الملك إنساناً من

---

(١) نفسه ٤/١٩٥.

(٢) موسوعة فقه عمر ص ١٠٤.

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ١٥ - ١٣٦، وانظر الأموال لأبي عبيد ص ١٢٦.

(٤) الدعوة للاسلام أبو زهرة ص ٧٩ بتصرف.

(٥) شنئان: بغض.

(٦) سورة المائدة آية ٨.

رعيته، فدم المقتول هدر، لا دية له. ولما جاء الإسلام، وقرر أن الدماء متساوية، وأنها جميعاً حرام، ولم يفرق بين السيد والمسود فالكل أمام الإسلام سواء، أقبل على اعتناقه غالبية الشعب الواقع تحت ظلم كسرى فارس وقيصر الروم لأنه وجد في الإسلام نفسه وعرف أن حرمة دمه كحرمة دم الملك، اقرأ لغير المسلم الأعجمي الذي كان يحكمه كسرى فارس أو قيصر الروم قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ علَى أَنْفُسِكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَالله أولَى بِهِمَا، فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا، فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[1].

ولم يكن العدل الإسلامي في أول الفتح كلمات تتلى في القرآن أو تَرِدُ على اللسان، بل كان عملاً قائماً وتنفيذاً شاملاً، فمن ذلك: ـ

١ ـ إنصاف المظلوم من الظالم

قال عمر رضي الله عنه: ولست أدع أحداً يظلم أحدا ولا يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر، حتى يذعن للحق[2]. وقال أيضاً: إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعل به فليرفعه إليّ أقصه منه، قال عمرو بن العاص: لو كان رجلاً أدب بعض رعيته أتقصه منه؟ قال: إي والذي نفسي بيده أقصه، وقد رأيت رسول الله ﷺ أقصّ من نفسه[3] وكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص: يقطع سعيد بن زيد أرضاً فأقطعه أرضاً لبني الرفيل، فأتى ابن الرفيل عمر فقال: يا أمير المؤمنين، على ما صالحتمونا؟ قال: على أن تؤدوا إلينا الجزية، ولكم أرضكم وأموالكم وأولادكم، قال: يا أمير المؤمنين أقطعت أرضاً لسعيد بن زيد؟ قال: فكتب إلى سعد: ترد عليه أرضه، ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم[4].

وقال عمر: أيما عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته[5].

---

(١) سورة النساء آية ١٣٥.

(٢) الخراج ص ١٢٧، وانظر موسوعة فقه عمر ص ١٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود حديث ٤٥٣٧، والنسائي حديث ٤٧٨١.

(٤) الخراج يحيى بن آدم فقره ١٨٤.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٣٠٥.

٢ ـ العدل في فرض الجزية:

فلا يكلف إنسان بما لا يطيق، قال عمر رضي الله عنه لحذيفة بن اليمان وعثمان وعثمان بن حنيف: انظر ما لديكما، انظر ألا تكونا حملتما أهل الأرض ما لا يطيقون. فقال عثمان: وضعت عليهم شيئاً لو أضعفته عليهم لكانوا مطيقين لذلك. وقال حذيفة: وضعت عليهم شيئاً ما فيه كثير فضل[١]. وكان عمر يوصي ألا يكلف أهل الذمة فوق طاقاتهم[٢].

وأُتِيَ عمر بمال كثير فقال: إني لأظنكم قد أهلتكم الناس، قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا عفواً صفواً. قال: بلا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يديّ ولا في سلطاني[٣].

٣ ـ الرفق في اجتباء الجزية:

قال عمر لسعيد بن عامر: مالك تبطىء بالخراج؟ قال: أمرتنا أن لا نزيد الفلاحين عن أربعة دنانير، على أربعة دنانير، فلسنا نزيدهم على ذلك. ولكنا نؤخرهم إلى غلاتهم. فقال عمر: لا عزلتك ما حييت[٤].

٤ ـ العدالة في ضمان الحد الأدنى من العيش للفقراء:

قال عمر: أما والله لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعنهن لا يفتقرون إلى أمير بعدي[٥]. ومر عمر رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ[٦] له شيء من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: أنظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم[٧].

---

(١) الأموال فقرة ١٠٦ وانظر الخراج لأبي يوسف ص ٤٠.
(٢) الخراج لأبي يوسف ص ١٣٦.
(٣) الأموال فقرة ١١٤ وانظر موسوعة فقه عمر ص١٠٤.
(٤) الأموال فقرة ٥، والمغني ٥٣٧/٨، وانظر موسوعة عمر ص ١٠٥.
(٥) الخراج لأبي يوسف ص ٤٠.
(٦) رضخ له رضخا من باب نفع، ورضيخاً: أعطاه شيئا ليس بكثير.
(٧) الخراج لأبي يوسف ص ١٣٦، وضرباءه: أي نظراءه.

لقد ساعد على إقامة صرح العدالة أمور منها: ـ

١ ـ ترك الأمير الإحتجاب عن الرعية، وإزالة الحواجز بينه وبينهم، ليستطيع كل مظلوم أن يوصل صوته إلى الأمير، وقد بلغ عمر أن سعداً اتخذ باباً وقال: انقطع الصوت، فأرسل إليه عمر فحرق الباب.

وأرسل محمد بن مسلمة الأنصاري ـ وكان رسول عمر إلى الأمراء ـ فأخذ بيد سعد وأخرجه وأجلسه وقال: هنا إجلس للناس، فاعتذر إليه سعد[١].

٢ ـ أن يتولى النظر في مظالم الناس بنفسه:

فإن كان وقته لا يساعده على ذلك فليستعن بمن يثق به.

قال الزهري: ما اتخذ رسول الله ﷺ قاضياً حتى مات، ولا أبو بكر ولا عمر، إلا أنه قال لرجل في آخر خلافته أكفني بعض أمور الناس[٢].

٣ ـ تفقد أحوال الرعية:

كان عمر دائم العسس[٣] بالمدينة ليتفقد أحوال الرعية ويصلح من شأنها، ويكشف أهل الريبة وكان يقول: من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يشغله إلا ذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين[٤]. وقال عمر أيضاً: من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله[٥].

ولقد كان لصدق الإسلام كدين عبادات ومعاملات أن سارع الناس الى الدخول فيه واعتناقه وذلك لكونه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٦] ولقول رسول الله ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ..)[٧] وهو الدين الذي لا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى قال تعالى: ﴿يَا

---

(١) موسوعة فقه عمر ص ١٠٥

(٢) نفسه.

(٣) العسس: الطواف بالليل، انظر تاريخ عمر ص ١٠٠ وقد أفرد فصلاً كاملاً عن عسس عمر في المدينة وهو الرابع والثلاثون.

(٤) تاريخ عمر لابن الجوزى ص ٩٥.

(٥) نفسه. (٦) سورة الروم آية ٣٠.

(٧) أخرجه أبو داود حديث ٤٧١٤، والبخاري في الجنائز ومسلم في القدر.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] وقال ﷺ: (. . . أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ أَلَا لَا فَضْلَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. . .)[2] فلا تفاضل بينهم إلا بميزان التقوى.

فالإسلام منهج شامل متكامل لكافة حياة البشر، ومتطلباتهم في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فإذا درست الإسلام تجد أن له منهاجه السياسي المستقل حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى موضوع الأمة. من شورى وقضاء. . . إلخ.

وتجد فيه أيضاً منهاجه الإجتماعي المستقل. حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى الإنسان رجلاً كان أو إمرأة.

والإسلام أيضاً له منهاجه الأخلاقي المستقل. حيث تجد طريقاً أخلاقياً واضحاً كاملاً شاملاً راقياً واقعياً. وكذلك تجد في الإسلام منهاجه التعليمي المستقل الذي يعمر الدنيا ولا ينسى الآخرة قال تعالى: ﴿وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا. .﴾[3].

وفي الإسلام منهاجه العسكري المستقل في الأهداف والتطلعات. وكذلك فإن للإسلام منهاجه الإقتصادي المستقل الذي يحارب الربا بشتى صوره وأشكاله، وكل ما يتنافى ومبادىء الإسلام. وهكذا لا نجد قضية من قضايا الوجود البشري إلا وللإسلام فيها حكم ينظمها.

وبجانب ذلك كان المسلمون الفاتحون قدوة حسنة في كل شيء في جوارهم وفي حسن أخلاقهم، ومعاملتهم لأهل البلاد المفتوحة.

فكانت أخلاق المسلمين[4] الإجتماعية والأخوية التي تربوا عليها في ظل الإسلام تجلب المحبة لهم، والإئتلاف لهم، واتخاذهم قدوة حسنة، وأن ذلك يجعل العقيدة تسري في نفوسهم من قلوب محبة ومحبوبة، فما كانوا يشعرون الأهالي في البلاد المفتوحة بالغلب، بل كانوا يضعون في نفوسهم أنهم أخوة متحابون، وليسوا غالبين

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) إقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ١٤٤ وانظر تاريخ الطبري ١٦٨/٣.

(٣) سورة القصص آية ٧٧.

(٤) الدعوة الى الإسلام لابي زهرة ص ٧٧.

يتحكمون، فكانت هذه الأخلاق مقربة مدنيّة، وذلك فوق ما في الحقائق الإسلامية من معان تدركها العقول، وأن البراهين لا تدنى إلى الإيمان وحدها، بل لا بد أن يكون معها ألف وائتلاف. فكان أمامَ غير المؤمن أوالمسلم أمران يجذبانه إلى الإسلام، أولهما: تآلف النفوس، وثانيهما: براهين العقول، فيدخل الإيمان إلى قلبه من غير تردد ولا عوج[1].

فمن تآلف هذه النفوس وحبهم للمسلمين الفاتحين، أنهم كانوا يساعدون المسلمين ضد الغزاة من الروم أو الفرس. وكان قبط مصر يصلحون للمسلمين الطرق، ويقيمون لهم الجسور، وصاروا أعواناً لهم على قتال الروم[2] ويمدون المسلمين بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة[3].

ويقول توماس ادسون: أن سرعة الفتح الإسلامي في مصر يرجع إلى ترحيب المصريين ليتخلصوا من الرومان، وأن من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام هو عدم الضغط والتسامح الديني[4]. وكان الدعاة المسلمون متمسكون بأوامر النبي ﷺ في الرفق بالناس وكان عمر يوصي جنده بأهل مصر خيرا ويقول: . . . استوصوا بما جاورتموه من القبط خير[5]. فلقد كان النبي ﷺ يقول: (يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا)[6] وكان عمر رضي الله عنه يوصي عماله بالرفق بأهل البلاد، فقد سأل عثمان بن حنيف، وحذيفة ابن اليمان الذين كلفا بوضع الخراج على أرض السواد قائلاً لهما: لعلكما كلفتما أهل عملكما ما لا يطيقون؟ فقال حذيفة: لقد تركت فضلاً. وقال عثمان: لقد تركت الضعف عندئذ: أما والله لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعنهم لا يفتقرون إلى أمير بعدي[7].

وقد أوجد الفتح الإسلامي جواراً حسناً بين المسلمين وغير المسلمين، سواء أكان أولئك الجيران من العرب، أو ممن دخلوا في الإسلام من غير العرب، فكانت هذه المعاملة مع العلم بأن الإسلام دعا إليها في كتابه الكريم إذ قرن الاحسان بالجار بالاحسان إلى الأقربين وقرن الاحسان بعبادة الله وحده لا شريك له،

---

(١) نفسه.
(٢) الخطط للمقريزي ١/١٦٣.
(٣) نفسه ١/١٦٤.
(٤) الدعوة للاسلام ص ١٢٣ - ١٢٤ بتصرف.
(٥) حسن المحاضرة ١/١٥٤.
(٦) متفق عليه. رياض الصالحين حديث ٦٤١ وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ حديث ١٢ أخرجه مسلم.
(٧) الخراج لأبي يوسف ص ٤٠.

فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والمساكين ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[1] وأن ذلك بلا ريب يقرب النفوس، ويؤلفها، وإذا تآلفت النفوس سهل وصول الحق إليها ودخل إلى القلوب من أبوابها، وخصوصاً إذا كان العقل يؤيد ما يدعون إليه فإن المعاملة الحسنة تدنيّ والجفوة تبعد، والقول الطيب يهدي وغيره ينفر[2]، ولقد قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[3] ويأمر الله تعالى المؤنين أن يقولوا قولاً حسناً، فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً..﴾[4] وأن القدوة الحسنة تهدي، وتجعل الجميع يهتدون بأهل الخير وخصوصاً إذا كان ما هم عليه دين قويم يؤيده العقل، ويُعليه، فما من أمر جاء في الإسلام إلا كان موافقا للعقل السليم، وما من أمر حرمه إلا كان الفعل يجافيه.

وبذلك يتبين أن المسلمين في الأراضي التي فتحها الإسلام ما دخلوا في الإسلام رهباً، وما دخلوا تقليداً للأقوياء، ولكن دخلوا رغباً، واقتناعاً وإدراكا.

ولقد كان القرآن الكريم منار الدعوة، وحصن الدعاة، والقرآن بذاته كان دعوة قوية للإسلام، لأنه بما اشتمل عليه من أخبار الأولين، وما فيه من شرائع وأحكام، وعلوم إنسانية، .. إلخ. كان كافياً للدعوة إذا أحسن بيانه.

وقد عكف العلماء عليه يتدارسونه، ويتعرفون مبادئه وأحكامه، ولم يكن غريباً أن نجد كثيراً من الفرس في صدر الإسلام قد انصرفوا إلى فهم القرآن الكريم، وكان كثيرون من تلاميذ الصحابة الذين لازموهم من الفرس وغيرهم من الذين دخلوا في الإسلام في عصر الصحابة ومن جاء بعدهم.

وأن تلاوة الصحابة للقرآن في البلاد التي يفتحونها، كانت تجذب القلوب إليهم بترتيله، وجمال فواصله، ونغماته العربية، وحلاوة تلاوته فالقرآن كان وحده داعية للإسلام.

---

(١) سورة النساء آية: ٣٦.
(٢) الدعوة للاسلام لأبي زهرة ص ٧٨.
(٣) سورة الحج آية ٢٤.
(٤) سورة البقرة آية ٨٣.

وكان عمر رضي الله عنه يرسل عماله إلى الأمصار لتعليم الناس القرآن وأمور الدين فقد بعث عمار بن ياسر على الصلاة والحرب، وبعث عبدالله بن مسعود على القضاء وبيت المال، وبعث عثمان بن حنيف على مساحة الأرضين[1]. وكان عمر رضي الله عنه يقول: إنما بَعَثْتُ عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، ويقيموا بينكم دينكم[2].

وإذا كان القرآن الكريم هو كتاب المسلمين المقدس الذي يُتعبد به، فإن اللغة العربية هي اللغة التي شرفها الله تعالى لتكون لغة لهذا القرآن ومادته. قال تعالى: ﴿قرآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ . .﴾[3] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (أُحبُّ العَرَبَ لِثَلاثَةٍ لأني عَرَبي وَالْقُرْآنُ عَرَبي وَكَلَامُ أهل الْجَنَّةِ عَرَبي)[4] وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مِنْ يُحْسِنُ أَنْ يَتَكَلَّم بِالْعَرَبِيَّةِ فَلَا يَتَكَلَّمُ بِالْعَجَمِيَّة. فَإِنَّهُ يُورِثُ النِّفَاق)[5].

وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب. فإن فهم الكتاب والسنة فرض. ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها: ما هو واجب على الأعيان ومنها: ما هو واجب على الكفاية. وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة بسنده قال: كتب إلى أبيموسى الأشعري رضي الله عنهما: أما بعد فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، واعربوا القرآن. فإنه عربي[7]. وعن عمر رضي الله عنه قال: تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض، فإنها من دينكم[8]. وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة: يجمع ما يحتاج إليه. لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية: هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة: هو الطريق إلى فقه أعماله[8]. وقد كره الشافعي لمن يعرف العربية أن يسمى بغيرها، وأن يتكلم بها خالطاً لها بالعجمية. وهذا الذي ذكره قاله الأئمة مأثوراً عن الصحابة والتابعين[9]. يقول الشافعي: وذلك أن اللسان الذي اختاره الله عز وجل لسان العرب

---

(١) الخراج ٣٩/٤٠ وانظر فتوح البلدان ص ٣٣٠ وانظر الإحكام في أصول الاحكام لابن حزم ص ٥٥٩.
(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٩.
(٣) سورة الرمز آية ٢٨.
(٤) القرطبي ١/٢٠.
(٥) انقضاء السراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٥.
(٦) نفسه. (٧) نفسه ص ٢٠٧.
(٨) نفسه. (٩) نفسه ص ٢٠٥.

فأنزل به كتابه العزيز، وجعله لسان خاتم أنبيائه محمد ﷺ ولهذا نقول: ينبغي على كل أحد يقدر على تعلم العربية: أن يتعلمها. لأنها اللسان الأولى بأن يكون مرغوباً فيه من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بالعجمية»[1]. وأما اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن، حتى يصير عادة للمصر وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه: فلا ريب أن هذا مكروه. فإنه من التشبه بالأعاجم[2].

ولهذا كان المسلمون المتقدمون، لما سكنوا أرض الشام ومصر، ولغة أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان، ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب، ولغة أهلها بربرية: عودوا أهل هذه البلاد العربية[3]، حتى غلبت على هذه الأمصار مسلمهم وكافرهم[4]. ولهذا انتشرت اللغة العربية في البلاد المفتوح مما أدى معه إلى حفظ القرآن والسنة بيسر وهذا مما ساعد كثيراً على نشر الإسلام في تلك البلاد المفتوحة.

ونورد فيما يلي شهادة بعض مؤرخي الغرب عن الفتوح الإسلامية[5] وهي شهادة «شاهد من أهلها».

شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الإسلامي

نريد في هذا المقام أن نستشهد بأقوال مؤرخين وكتاب لا يمتون إلى الإسلام بصلة، وإنما هم علماء اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من العناية ويضعون الأمور في نصابها.

قال الدكتور جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: سَيَرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب

---

(١) نفسه ص ٢٠٤. (٢) نفسه ص ٢٠٦.
(٣) أي عودهم التكلم باللغة العربية.
(٤) إقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٠٦.
(٥) نقلاً عن كتاب (روح الدين الاسلامي) تأليف: عفيف عبد الفتاح طباره من ص ٣٩٥ـ ٣٩٨.

العدْل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى.

ويقول في موضع آخر: كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ويسيئون معاملة المغلوبين ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في أنحاء العالم، ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت بعد غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سوريا مؤخراً. ولكن الخلفاء السابقين، الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أدركت أن النظم والأديان ليست مما يفرض قَسْرا، فعاملوا أهل سوريا ومصر وأسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم، وحفظ الأمن بينهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب.

ورحمة الفاتحين وتسامحهم كانا من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، وإن أنكر ذلك المؤرخون وتعد مصر أوضح دليل على ذلك فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب وحافظت عليه ولم يستطع الفاتحُون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقبلوا الحضارة الفرعونية القديمة وأن يحملوها على ما أتوها به.

ويقول في موضع آخر: وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المنصفين الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب. قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية.

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية: أن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان ـ على الخصوص ـ لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس. وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها.

ويقول الكونت هنري دي كاستري في كتابه (الإسلام خواطر وسوانح): بعد أن دانت

العرب وآمنت بالقرآن واستنارت القلوب بنور الدين الحنيف برز المسلمون في ثوب جديد أمام أهل الأرض قاطبة، هو المسالمة وحرية الأفكار في المعاملات. وتتابعت آيات القرآن تأمر بالمحاسنة بعد تلك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة...

هكذا كانت تعاليم النبي بعد إسلام العرب وقد اكتفى أثره فيها الخلفاء من بعده، وذلك يحملنا على القول كما قال (روبرتسون) أن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم، وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح وهي سبب لا حرج فيه. فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة، إذ أغاروا على الشام وساروا سير الصواعق إلى أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي ولم يتركوا أثراً للعسف في طريقهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

ولانتشار الإسلام ورضوخ الأمم لسلطانه سبب آخر في هاتين القارتين آسيا وأفريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فإنه كان قد بلغ منتهى العسف ووصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس فلماء جاء الإسلام تراموا إليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال.

على أن الإسلام لم يكن له عمال مخصصون يقومون بالدعوة له وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو أنه كان له أناس قوامون لسهل علينا أشكال معرفة السبب في تقدمه القريب فإننا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشرو فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الأمم حربا تجعل الولدان شيبا، ولكنا لا نعلم للإسلام (مجمعا دينيا) ولا رسلا وأحبارا وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب.

وقد اعترف كثير من المؤرخين بأن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كانت نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحي وبسبب ما وجدوه في الإسلام من خير لهم، وقدرته على نشلهم من الفوضى التي يتخبطون بها: أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة

السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي تمزقت بفعل الإنقسامات الداخلية... وتزعزعت قواعدها الأساسية واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذا الريب، ولم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب.

وجاء في كتاب (العالم الإسلامي الجديد): ولم يبتغ العرب من فتوحهم إحراز المغانم ودرس المعالم، بل كانوا ضد ذلك أبناء أمة كريمة تحب العلم والتعلم وتجل ميراث الحضارة السابقة. وقد تشابكت بين الغالبين والمغلوبين أرحام المصاهرة وعقدت قلوبها على الأخوة الدينية فلم يلبث الفريقان أن امتزج بعضهما ببعض ليخرجا للناس حضارة جديدة، هي حضارة الإسلام التي أحيت آثار اليونان والفرس والروم وطبعتها بطابع العزيمة العربية والعبقرية الإسلامية.

الخاتمة

وبعد،

فقد عشنا مع هذا البحث (الدعوة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وعلمنا من خلاله أن الله عزت قدرته وجلت حكمته أرسل رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا. فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال، وكان ﷺ في دعوته وعبادته، وفي حربه وسلمه، وفي أسرته وبين أصحابه، وفي كل مظهر من مظاهر حياته، مصداقاً، لقول الله تعالى: ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾[1] حتى جعلت دعوته الصادقة القوية، وأخلاقه السامية كثيراً من العقلاء الذين هداهم الخلق النبوي، والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين إلى نبذ معبوداتهم والإصغاء لداعي الحق والاستماع لآيات الله البينات، عاملين بها مخلصين دينهم لله، وصاروا نوراً يهتدى بهم في الظلمات، فزاد عدد المسلمين، وأخذوا يتكاثرون، ولم يترك الرسول ﷺ وسيلة من وسائل الدعوة إلا سلكها وأمر أصحابه رضي الله عنهم بالتأسي به والسير على نهجه.

وكان ﷺ يسلك في دعوته وسائل شتى فكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة في الجامع والأسواق، وهجرة أصحابه في سبيل الله وإعلاء كلمته وإرسال كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء، بل كانت حياة الصحابة يومئذ في ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساساً لهداية الناس إليه.

والدعوة الإسلامية دعوة عامة وللناس كافة، فلم يبعث ﷺ لقوم دون قوم، ولا جنس

---

(١) سورة ن آية ٤.

دون جنس، لأن الإسلام هو دين الله الخاتم بعث به محمد ﷺ وهو النبي الخاتم.

قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشير منذراً﴾[1] وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[2] لهذا كانت دعوة الإسلام دعوة عامة ومهيمنة على كل ما جاء قبلها من الرسالات، فهي الرسالة الخاتمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مَثَلي وَمَثل الأنبياءِ من قَبْلي كَمَثل رَجُلٍ بَنىَ بَيْتاً فأحسنه وأجمله إلَّا موضع لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناسُ يَطُوفون به ويعجبون له ويقولون: هلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنَةُ؟: فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خَاتَمُ النبيين)[4] وقال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[5].

وقد كلف الله رسوله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم وجميع من بلغته الدعوة وآمن بالله ورسوله بحمل أمانة التبليغ فكان تكليف النبي ﷺ تكليف لأمته وقد صرحت بذلك الآيات البينات من كتاب الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾[6] وقال تعالى: ﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[7] وقال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير..﴾ الآية[8].

وقال صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار[9] وقال ﷺ: (نضّر الله إمرأ[10] سمع منّا شيئا

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨.
(٢) سورة الأعراف آية ٥٧.
(٣) سورة المائدة آية ٤٨.
(٤) رواه الشيخان: فتح الباري ح /٥٣٥.
(٥) أخرجهم مسلم.
(٦) سورة يوسف آية ١٠٨.
(٧) سورة الأنعام آية ١٩.
(٨) سورة آل عمران آية ١٠٤.
(٩) البخاري (رياض الصالحين حديث ١٣٨٧).
(١٠) أي: نعمة من النضارة وهي الحسن. والمراد حسّن الله خلقه وقدره.

فبلغه كما سمعه فربّ مبلّغ أوعى من سامع)[1] وقال ﷺ: (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار القيامة)[2].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية ابن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ فكنا نتناوب النزول على رسول لله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بعلم ذلك اليوم، وإذا نزل فعل مثل ذلك[3].

ومن وسائل التبليغ أيضاً الجهاد في سبيل الله باللسان واليد ولهذا فرضه لله على المسلمين حتى قيام الساعة. فالجهاد باللسان أن ندعوا الناس أولاً إلى الإسلام بالحجة البالغة وبالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن دون قتالهم، والجهاد باليد أن نقاتل في سبيل الله من عاند وتكبر على الإسلام والمسلمين ورفض الدعوة الإسلامية وحاربها ووقف في طريق نشرها، فما شرع القتال إلا لحماية الدعوة ومنع الإعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم وعقيدتهم، وذلك ما فعله رسول الله ﷺ وعلمه صحابته رضي الله عنهم وقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه خير قيام. فكان رضي الله عنه ينظم جيوشه ويوصيهم بتقوى الله تعالى، ويرسم لهم الخطط الحربية ويختار القواد من الأتقياء الغير متهورين الذين لهم دراية بالحرب والكر والفر، ومن السابقين للإسلام فكان رضي الله عنه يعد الجند للقتال إعداداً معنوياً بأن يوصيهم بتقوى الله تعالى في جميع أحوالهم وإعداداً مادياً بأن يوفر لهم السلاح والكراع... الخ.

كما يعدهم إعداداً بشرياً بأن يسعى جهده أن لا يتناقص أعداد المجاهدين كما كان يدربهم باستمرار على تحمل قسوة القتال وبهذا فقد أيده الله بنصره دائماً وفتح على يديه الفتوح في كل من بلاد الشام والعراق ومصر ودخل معظم أهلها ـ طوعاً ـ في دين الله أفواجاً ولله الحمد في الأولى والآخرة.

وإذا كان الجهاد باللسان واليد من الوسائل الهامة في نشر الدعوة الإسلامية. فإن للإجتهاد أيضاً أهميته القصوى كذلك في نشر الدعوة والمحافظة عليها. فقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه رضي الله عنهم كيفية الإجتهاد ويدربهم على ذلك في كل مناسبة. وقد رأينا من خلال بحثنا أن رسول الله ﷺ حين بعث معاذاً قاضياً على اليمن أن أمره بأن

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود حديث ٣٦٥٨، والترمذي وحسنه (انظر رياض الصالحين حديث١٣٩٧) ـ الألباني

(٣) حياة الصحابة للكندهلوى ٢٨١/٣، مع الرعيل الأول محب الدين الخطيب ص ٦٤.

يحكم: أولاً بأحكام القرآن، ثانياً: بأحكام السنة إذا لم يجد نصاً من القرآن، ثالثاً: بالإجتهاد والرأي عندما لا يجد نصاً في السنة.

ورأينا من خلال بحثنا أيضاً كيف كانت لاجتهادات عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية وإعزاز المسلمين في كل مكان، ولهذا كانت آثار رأيه محمودة فيها صلاح الدين والدنيا فهو الذي فتح بلاد فارس والروم وأعز الله به الإسلام وأذل به الكفر والنفاق وهو الذي وضع الديوان، وفرض العطاء، وألزم أهل الذمة بالصّغار، وكان الإسلام في زمنه أعز ما كان.

نتيجة البحث: ـ

أولاً: أن الدعوة الإسلامية قول وعمل وجهاد واجتهاد وليست ـ كما يتصور الناس ـ أنها وعظ وإرشاد فقط بل هما شعبة من شعبها، فالدعوة هي الإسلام ذاته، هي كل عمل إسلامي يعمله العبد المؤمن خالصاً لله تعالى نافعاً له ولجماعة المسلمين في دنياهم وآخرهم.

وقد رأينا من خلال بحثنا كيف كان عمر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين يدعون إلى الله بالقول والعمل والجهاد والإجتهاد حتى نصرهم الله تعالى وانتشرت دعوة الإسلام في ربوع الجزيرة العربية وتعدتها إلى بلاد فارس والروم.

ثانياً: أن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الدعوة الإسلامية لا يجب أن يوصد بأي حال من الأحوال بل يجب أن يكون مفتوحاً حتى قيام الساعة كما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وللجهاد سبلاً عدة

الجهاد بالقول والبيان والحجة الدامغة كما قال تعالى: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا﴾[1] أي بالقرآن.

والجهاد بالمال حينما يبذله المسلم في سبيل الله لتجهيز الجيوش الإسلامية للدفاع عن الإسلام والديار المسلمة، كما قال تعالى: ﴿.. وجاهدوا بأموالكم..﴾[2].

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٢.

(٢) سورة التوبة آية ٥١.

الجهاد بالنفس بقتال أعداء الإسلام للذب عن المسلمين وديار المسلمن والإستشهاد في سبيل الله. كما قال تعالى: ﴿.. وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله..﴾[1].

وقد رأينا من خلال بحثنا كيف طبق عمر رضي الله عنه والمسلمون واجب الجهاد في سبيل الله خير تطبيق بالقول والعمل، ولم يقعدوا عنه قيد شعرة، ولم ترهبهم قوة أعدائهم وكثرة عددهم وعُددهم. ﴿.. فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا..﴾[2] بل قالوا لنبيهم ﷺ: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ولم يقولو مثل ما قال بنوا إسرائيل لنبيهم: ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾[3] نعم ولم يجبن منهم أحد بل ولم يقل منهم أحد: ليس لنا طاقة بقتال الفرس والروم ـ وهم أعتى الأمم وأشدها على الإطلاق، وأكثرها عدداً وعددا ـ كما يقوله المنهزمون ـ وهم كثر ـ هذه الأيام: ليس لنا طاقة بقتال أمريكا وروسيا...

فيجب أن تتأسى الأمة الإسلامية بسلفها الصالح وتتمسك بالجهاد في سبيل الله فهو الوسيلة الوحيدة لإنقاذها من التيه في بحر الظلمات الغرقى فيه.

ثالثاً: أن الدين وسياسة الدنيا به أمران متلازمان لا ينفصلان، بل ولا يجب أن ينفصلان، إذ أنهما كوجهي العملة، لن يتم النفع بأحدهما في معزل عن الآخر، وإنما يتم النفع، وينال المقصود بالعمل بهما مجتمعين هكذا يكون الدين والسياسة، أو يكون الدين والدولة.

ولنا في كتاب الله تعالى الآيات المحكمات التي تأمر المسلمين وتلزمهم بالحكم بكتاب الله تعالى وسياسة الدنيا به، وتنهاهم عن الحكم بخلاف ذلك اتباعاً لأهواء البشر.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾[4] وقال تعالى: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[5].

وأوجب الله تعالى على المسلمين عند التنازع والإختلاف أن يتحاكموا إلى ما أنزل الله. قال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾[6] وقال أيضاً: ﴿فإن

---

(١) سورة التوبة آية ٥١.
(٢) سورة آل عمران آية ١٤٦.
(٣) سورة المائدة آية ٢٤.
(٤) سورة الأعراف آية ٣.
(٥) سورة الجاثية آية ١٨.
(٦) سورة الشورى آية ١٠.

تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[1] والله تعالى أعلم بخلقه ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2] وهو أعلم بالإنسان وبأنه أكثر شيء جدلا، لذلك فقد جاءنا سبحانه بنصوص لا سبيل فيها إلى جدال أو استنتاج، تقضي أن الحكم لله وحده في الدنيا والآخرة: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾[3] وبين سبحانه للمسلمين أنه لم يرسل الرسل إلا مبشرين ومنذرين، وأنه لم ينزل الكتب السماوية إلا ليتخذها الناس دستوراً في حياتهم الدنيا يحكّمونها ويحكمون بمقتضاها في كل شؤونهم. قال تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[4] وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[5] كما حذر الله تعالى الحاكم المسلم من أن يترك بعض ما أنزل الله، أو يفتن عنه: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾[7].

وقد جعل سبحانه وتعالى الحكم بما عداه حكماً جاهلياً يقوم على الباطل، وأنه وصف من يبتغي غير حكم الله بأنه يبغي حكم الجاهلية القائم على الأهواء والضلال: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[8].

من هذه النصوص القاطعة أن نعرف الله تعالى حرم الحكم بغير ما أنزل كما حرم عليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعل من لم يحكم بما أنزل الله كافراً، وظالماً، وفاسقاً: قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمِا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ ﴿... الظَّالِمُونَ﴾، ﴿... الْفَاسِقُونَ﴾[9] وإذا كان الظلم والفسق بمعنى الكفر كما عبر عن ذلك القرآن، فيكون فسق من لم يحكم بما أنزل الله وظلمه هو الكفر ويكون من لم يحكم بما

---

(١) سورة النساء آية ٥٩.
(٢) سورة الملك آية ١٤.
(٣) سورة القصص آية ٧٠.
(٤) سورة البقرة آية ١٢٣.
(٥) سورة النساء آية ١٠٥.
(٦) سورة المائدة آية ٤٨.
(٧) سورة المائدة آية ٤٩.
(٨) سورة المائدة آية ٥٠.
(٩) الآيات الثلاثة من سورة المائدة ٤٤، ٤٥، ٤٧، على التوالي.

أنزل الله كافراً في كل الأحوال بنص القرآن الكريم، فالإسلام ليس عقيد فقط، ولكنه عقيدة ونظام، وليس ديناً فحسب، ولكنه دين ودولة[1]. ولنا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدليل العملي والتطبيقي ـ كما ظهر جلياً من خلال البحث ـ على مدى التزام الحاكم المسلم بأمور دينه وسياسة الدنيا به، والنجاح المنقطعَ النظير الذي صاحبه وحقق به العزة للإسلام والمسلمين.

إننا نهيب بالمسلمين في هذا العصر حكاماً ومحكومين أن يتحاكموا إلى كتاب الله تعالى، وأن يلتزموا العمل بسنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين ويعضوا عليها بالنواخذ كما قال ﷺ: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله والسَّمْع والطَّاعَة وإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيّ، وإنه مَنْ يَعِشْ منكم فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّة الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّين عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذْ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)[2].

وحتى يكتب لهذه الأمة الإسلاميِّة العزة بعد ذل، والنصر بعد هزيمة، والهداية بعد الضلال.

رابعاً: إن الإجتهاد من الأمور الهامة في الإسلام والتي لا غنى للداعية عنه، فهو المدخل الذي يدخل منه لمواجهة كثير من المشاكل العملية التي تواجه الدعوة، وقد رأينا من خلال بحثنا أن عمر رضي الله عنه أعمل ذهنه في استنباط الأحكام وقياسها على نظائرها وأشباهها، لخدمة وصالح الإسلام والمسلمين، فقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهده رضي الله عنه بكثرة الفتوح الإسلامية واستتبع ذلك ضرورة وجود تشريعات إسلامية تلاحق هذه التوسعات الكبيرة وتضبطها وتخضعها لتعاليم الإسلام، حيث جدت أمور كثيرة لم تكن معهودة في زمن رسول الله ﷺ ولا في زمن خليفته الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقد ظهرت في عهده رضي الله عنه القضايا الإجتماعية والسياسية، والإقتصادية التي امتحنت قدرة المنهج الإسلامي على التشريع لمواجهة ما يجد من مشاكل، وقد أثبت نجاحاً منقطع النظير في حل كل ما واجهه منها حلاً إسلامياً بحتاً، ولم يستورد الحل من الفرس الملاحدة أو الروم الحاقدة. وبهذا أعز عمر رضي الله عنه

---

(١) بتصرف من مقالة بعنوان، ، لله الحكم والأمر، لعبد القادر عودة، مجلة المجتمع عدد ٦٣٠ ص ٢٦ ـ ٢٧ في ١٤٠٣/١٠/١٦ هـ.

(٢) رواه أبو داود والترمزي وقال حديث حسن صحيح«والنواجذ: الأنياب والأضراس. (رياض الصالحين حديث ١٦١ تحقيق الألباني).

الإسلام والمسلمين باجتهاداته ـ كما مر علينا ـ وأصبحت الدولة الإسلامية في عهده في قمة أمنها الداخلي والخارجي فقد وسعت التشريعات الإسلاميِّة رعايا هذه الدولة الفتية وشملتهم جميعاً مسلمهم ومعاهَدِهم وعاش الكل تحت راية الإسلام في رضا تام الأمر الذي جعل غير المسلمين يهرعون إلى الدخول في دين الله أفواجا.

لذا فنحن ندعوا المسلمين في كل مكان من الأرض وبصفة خاصة أولياء أمورهم والدعاة إلى الله أن يكونوا على قلب رجل واحد، منتهجين في مسلكهم نهج رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، وليأخذوا من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعظم تجربة حية ورائدة في نجاح تطبيق المنهج الإسلامي في شتى أمور الحياة، كي يعزوا بعد ذلة وينصروا بعد هزيمة.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك والله أعلم
والحمد لله وحده وصلى الله وسلم
على سيدنا محمد وآله وأصحابه
وأزواجه وذريته والتابعين لهم
بإحسان، وسلم تسليماً كثيرا

ثبت المراجع

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر البحث وقد رتبت أسماء المؤلفين بحسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة الوفاة إن أمكن.

ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني.

١ ـ الكامل في التاريخ ١٢ جزءا (طبعة بيروت ١٣٨٥هـ).
٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ٦ أجزاء (المكتبة الاسلامية (بدون تاريخ).

الأزدي (ت: ٢٣١هـ) محمد بن عبد الله.
٣ ـ تاريخ فتوح الشام (مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠م) تحقيق عبد المنعم عامر.

آدم عبد الله الألوري
تاريخ الدعوة بين الأمس واليوم (مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٩هـ).

أحمد عز الدين البيانوني
٥ ـ الدعوة الى الاسلام وأركانها (مكتبة الهدى حلب ١٣٩٢هـ).

ابراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان (ت: ١٣٥٣هـ) الشيخ.
٦ ـ منار السبيل في شرح الدليل تحقيق زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت

أحمد ذكي صفوت
٧ ـ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (البابي الحلبي ١٣٥٢هـ).
٨ ـ جمهرة رسائل العرب (البابي الحلبي ١٣٥٦هـ).

أحمد أمين
٩ ـ فجر الاسلام (النهضة المصرية ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

أحمد عادل كمال
١٠ ـ الطريق الى دمشق (دار النفائس ١٤٠٢هـ).
١١ ـ القادسية (دار النفائس ١٤٠١هـ).
١٢ ـ الطريق الى المدائن (دار النفائس ١٤٠٢هـ).
١٣ ـ سقوط المدائن (دار النفائس ١٤٠١هـ).

أرنولد: (سير توماس. و.).
١٤ ـ الدعوة الى الاسلام (ترجمه الى العربية د. حسن ابراهيم وآخرين القاهرة ١٩٥٧).

أحمد عطية الله
القاموس الاسلامي (النهضة المصرية ١٣٩٠).

الألباني: محمد ناصر الدين
١٦ ـ مختصر صحيح البخاري (المكتب الاسلامي ١٣٩٩هـ).

البخاري: (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهَ البخاري الجعفي.
١٧ ـ صحيح البخاري ٨ أجزاء (دار الفكر بيروت بدون تاريخ).

البلازري: (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر.
١٨ ـ فتوح البلدان (النهضة المصرية بدون تاريخ ـ تحقيق صلاح الدين المنجد).

ابن تيمية: (ت ٦٦١هـ/٧٢٨م) أبو العباس تقي الدين أحمد ابن عبد الحليم.
١٩ ـ مجموعة الفتاوى ٣٧ مجلد الدار العربية بيروت ١٣٩٨ هـ. جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.
٢٠ ـ السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية (دار الكاتب بدون تاريخ).
٢١ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ جزآن ـ (مطابع المجد بدون تاريخ).
٢٢ ـ اقتضاء الصراط المستقيم (مطابع المجد بدون تاريخ).
٢٣ ـ الحسبة في الاسلام (دار الكتب العربية ١٢٨٧هـ).
٢٤ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ٤ أجزاء وبهامشه الكتاب

المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول. (مكتبة الرياض الحديثة ١٣٢٢هـ).
٢٥ ـ المنتقى من أخبار المصطفى ﷺ ـ جزآن ـ (دار الفكر ١٣٩٣هـ).
٢٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (مطبعة المدني بمصر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
٢٧ ـ القياس في الشرع الاسلامي (دار الآفاق بيروت ١٤٠٠هـ).

ابن الجوزي: (ت: ٥٩٧هـ) الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي.
٢٨ ـ تاريخ عمر بن الخطاب (تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي).

جبران مسعود:
الرائد (معجم لغوي عصري دار العلم بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

ابن حجر: (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني).
٣٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٣ جزءا (المطبعة السلفية بدون تاريخ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ محب الدين الخطيب).
٣١ ـ الاصابة في تمييز الصحابة (دار النهضة بدون تاريخ).
٣٢ ـ تقريب التهذيب جزآن (دار المعرفة ١٣٩٥هـ).
٣٣ ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام (دار الجيل مصر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) تحقيق ابراهيم عسر.

ابن حزم: (ت ٤٥٦هـ) الحافظ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري).
٣٤ ـ الإحكام في أصول الأحكام (مطبعة العاصمة بمصر بدون تاريخ).
٣٥ ـ جمهرة أنساب العرب (دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ) تحقيق عبد السلام هارون.

حسن البنا: الامام الشهيد
٣٦ ـ مذكرات الدعوة والداعية (المكتب الاسلامي ١٣٩٤هـ).

حسن ابراهيم حسن: الدكتور
٣٧ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي (مكتبة النهضة بمصر ١٣٩٥هـ).

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)
٣٨ ـ تاريخ خليفة (مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧هـ تحقيق د. أكرم ضياء العمر).

الخطيب البغدادي: (ت ٤٦٣هـ) الامام الحافظ المحدث أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت.

٣٩ ـ الكفاية في علم الرواية (المكتبة العلمية بالمدينة المنورة بدون تاريخ).
٤٠ ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام (دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ).

الخضري: الشيخ محمد بك
٤١ ـ تاريخ التشريع الاسلامي (المكتبة التجَارية بمصر ١٣٩٠هـ).

أبو داود (ت ٢٧٥هـ) بالامام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي.
٤٢ ـ سنن أبي داود (دار الكتب لبنان ١٣٨٨هـ). تحقيق الدعاس.

الدواليبي: محمد معروف
٤٣ ـ المدخل الى علم أصول الفقه (دار العلم بيروت ١٣٨٥هـ).

الذهبي: (ت: ٧٤٨هـ) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.
٤٤ ـ سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) تحقيق صلاح الدين المنجد.

رفاعي سرور
٤٥ ـ حكمة الدعوة (مكتبة وهبة بمصر ١٣٩٨هـ).

رفيق العظم
٤٦ ـ أشهر مشاهير الاسلام في الحروب والسياسة (دار الفكر بيروت ١٣٩٢هـ).

الرازي: الشيخ الامام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر.
٤٧ ـ مختار الصحاح (دار المعارف بمصر ١٩٧٧م).

ابن رشد: (ت ٥٩٥هـ) الامام أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القرطبي.
٤٨ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد (البابي الحلبي ١٣٩٥هـ).

ابن رجب: (ت ٧٩٥هـ) زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد.
٤٩ ـ جامع العلوم والحكم (البحوث العلمية والافتاء بالرياض).
٥٠ ـ الاستخراج لأحكام الخراج (المطبعة الاسلامية بالأزهر ١٣٥٢هـ).

الزهري: (ت ١٢٤هـ)
٥١ ـ المغازي النبوية (دار الفكر ١٤٠٠هـ) تحقيق الدكتور سهيل زكار.

أبو زهرة: الشيخ محمد

٥٢ ـ الدعوة الى الاسلام (دار الفكر العربي ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
سيد قطب
٥٣ ـ في ظلال القرآن (دار الشروق الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ).
السيوطي: (ت ٩١١هـ) الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن.
٥٤ ـ الاتقان في علوم القرآن ـ جزآن ـ (دار الفكر بدون تاريخ).
٥٥ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (الباب الحلبي بمصر ١٣٨٧هـ).
٥٦ ـ تاريخ الخلفاء تحقيق محمد أحمد شاكر.
ابن سعد: (٢٢٠هـ/٨٣٥م)
٥٧ ـ الطبقات الكبرى ٨ أجزاء (دار صادر بيروت بدون تاريخ).
ابن سلام: (ت ٢٢٤هـ) الامام أبي عبيد القاسم بن سلام.
٥٨ ـ الأموال تحقيق محمد حامد الفقي.
السرخسي: (ت ٤٩٠هـ) محمد بن أحمد
٥٩ ـ شرح السير الكبير (املاء) السرخسي تحقيق صلاح الدين المنجد.
سليمان الدبشة. الدكتور
٦٠ ـ الدعوة الى الاسلام ووسائلها (دار الهدى بمصر ١٤٠١هـ).
السيد سابق: الشيخ
٦١ ـ دعوة الاسلام (دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ).
سليمان الطماوي: (الدكتور
٦٢ ـ عمر بن الخطاب وأصول السياسة والادارة الحديثة (دار الفكر بيروت ١٣٩٦هـ).
الشافعي: (ت ٢٠٤هـ) الامام محمد بن إدريس
٦٣ ـ الأم ٧ أجزاء (كتاب الشعب ١٣٨٨ هـ).
٦٤ ـ الرسالة تحقيق أحمد محمد شاكر ١٣٠٩هـ.
الشوكاني: (ت ١٢٥٥هـ) محمد بن علي بن محمد
٦٥ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ٩ أجزاء (دار الفكر ١٤٠٢هـ).
الشربيني: الشيخ محمد الخطيب.

٦٦ـ مغني المحتاج الى معرفة ألفاظ المنهاج ٤ أجزاء (البابي الحلبي ١٣٧٧هـ).

الصديقي: (ت ١٠٥٧هـ) **محمد بن علان الصديقي الشافعي**

٦٧ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٨ أجزاء (دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ).

صالح بن ابراهيم البليهي

٦٨ ـ السلسبيل في معرفة الدليل، حاشية على زاد المستقنع (دار الهلال بالرياض سنة ١٤٠١هـ).

صبحي الصالح: الدكتور

٦٩ ـ النظم الاسلامية (دار العلم بيروت ١٣٩٦هـ).

الطبري: (ت ٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير.

٧٠ ـ تاريخ الأمم والملوك ١٢ جزء (دار الفكر ١٣٩٩هـ).

٧١ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن (مطبعة البابي الحلبي ١٣٨٨هـ).

٧٢ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة (الخانكي وشركاه ١٣٢٧هـ).

الطهطاوي: (ت ١٣٦٢هـ) السيد عبد الرحيم عنبر

٧٣ ـ هداية الباري الى ترتيب صحيح البخاري جزآن (دار الرائد بيروت ١٣٩٩هـ).

الطنطاويان: الشيخ علي ـ وناجي

٧٤ ـ أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر طبع المكتب الإسلامي بيروت.

ابن عبد الحكم: (٢٥٧هـ/٨٧٠م) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري.

٧٥ ـ فتوح مصر وأخبارها (القاهرة ١٩١٤).

علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي: (ت ٩٧٥هـ)

٧٦ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (حلب بدون تاريخ).

وعلى هامش مسند الإمام أحمد . طبع المكتب الإسلامي.

ابن عبد البر: (ت ٤٦٣هـ) أبو عمر يوسف النمري القرطبي الأندلسي

٧٧ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ـ جزآن ـ (مطبعة المنيرة بمصر بدون تاريخ).

٧٨ ـ الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ـ جزآن ـ (مكتبة الرياض ١٣٩٨هـ).

عفيف عبد الفتاح طبارة
٧٩ ـ روح الدين الاسلامي (دار الكتب لبنان ١٣٨٤هـ).

عبد البديع صقر
٨٠ ـ كيف ندعو الناس (المكتب الاسلامي ١٣٩٩هـ).

ابن العربي: (ت ٤٥٣هـ) القاضي أبي بكر.
٨١ ـ العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ. (مكتبة أسامة بيروت ١٣٩٩هـ) تحقيق محب الدين الخطيب.

علي محفوظ
٨٢ ـ هداية المرشدين الى طرق الوعظ والخطابة (السعادة بمصر ١٣٥٧هـ).

عبد الرازق نوفل
٨٣ ـ الدعوة الى الاسلام (الشعب ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).

عبد الكريم زيدان: الدكتور
٨٤ ـ أصول الدعوة (الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ). مكتبة المنار الكويت.

عبد اللطيف حمزة: الدكتور
٨٥ ـ الاعلام في صدر الاسلام (دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

العقاد: (عباس محمود العقاد)
٨٦ ـ عبقرية عمر (وزارة التربية والتعليم بمصر ١٣٨٨هـ).

عبد المتعال الصعيدي
٨٧ ـ المجددون في الاسلام من القرن الأول الى الرابع عشر (دار الحمامي للطباعة بمصر ١٣٨٢هـ).

عبد الكريم الخطيب
٨٨ ـ عمر بن الخطاب الوثيقة الخالدة (دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

غوستاف لوبون
٨٩ ـ حضارة العرب ـ نقله الى العربية عادل زُعَيْتر (البابي الحلبي بدون تاريخ).

الفيروز أبادي: (٨١٦هـ) مجد الدين محمد بن يعقوب

٩٠ ـ القاموس المحيط (المطبعة المصرية ١٣٥٢هـ).

الفيومي
٩١ ـ المصباح المنير (القاهرة).

القرطبي: (ت ٦٧١هـ) أبو عبد الله محمد بن أحمد
٩٢ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم ٨ مجلدات (دار الشعب القاهرة بدون تاريخ).

ابن قدامة: (ت ٦٢٠هـ) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد.
٩٣ ـ المغني ـ ٩ أجزاء ـ (مكتبة الرياض الحديثة بدون تاريخ).

ابن قيم الجوزية: (ت ٧٥١هـ) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر.
٩٤ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين ٤ أجزاء (دار الفكر بيروت ١٣٩٧هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
٩٥ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ـ جزآن (البحوث العلمية والافتاء الرياض).
٩٦ ـ أحكام أهل الذمة ـ مجلدان ـ (دار العلم ١٤٠١هـ) تحقيق د. صبحي الصالح.
٩٧ ـ الفروسية (مطبعة الأنوار ١٣٦٠هـ).

ابن كثير: (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) الامام أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي.
٩٨ ـ تفسير القرآن العظيم (دار الفكر لبنان ١٤٠٠هـ).
٩٩ ـ البداية والنهاية في التاريخ (دار العربي الرياض بدون تاريخ).

الكندهلوي: محمد يوسف
١٠٠ ـ حياة الصحابة رضي الله عنهم ٣ مجلدات (دار النصر بالقاهرة ١٣٨٩هـ).

كمال الدين محمد بن الهمام: (ت ٨٦١هـ)
١٠١ ـ فتح القدير (المطبعة الأميرية بمصر ١٣١٥هـ).

الماوردي: (ت ٤٥٠هـ/١٠١٥م) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري.
١٠٢ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية (دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ).

المنذري: (ت ٦٥٦هـ) زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي.
١٠٣ ـ الترغيب والترهيب ٤ أجزاء (مكتبة الارشاد بدون تاريخ).
١٠٤ ـ مختصر صحيح مسلم (المكتب الاسلامي ١٣٩٣ هـ) تحقيق الألباني

المقريزي (٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي.

١٠٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، (دار صادر بيروت بدون تاريخ).

ابن منظور

١٠٦ ـ لسان العرب ٢٠ جزء (بولاق ١٣٠٠هـ).

محمد حميد الله: الدكتور

١٠٧ ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (دار الارشاد بيروت ١٣٨٩هـ).

محمد فؤاد عبد الباقي

١٠٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (دار الفكر بيروت بدون تاريخ).

مناع خليل قطان: الشيخ

١٠٩ ـ مباحث في علوم القرآن (مؤسسة الرسالة ١٣٩٦هـ).

محمد رواس قلعة جي

١١٠ ـ موسوعة فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه (مكتبة الفلاح الكويت ١٤٠١هـ).

١١١ ـ محمد أبو الفضل ابراهيم. أيام العرب في الإسلام (دار الفكر ١٣٨٨ هـ).

محمود شيت خطاب

١١٢ ـ الفاروق القائد (دار الفكر بيروت ١٣٩١هـ).

محمد الراوي: الشيخ

١١٣ ـ الدعوة الاسلامية دعوة عالمية (دار العربية بيروت بدون تاريخ).

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي).

١١٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المؤسسة المصرية للتأليف والنشر بدون تاريخ).

محب الدين الخطيب

١١٥ ـ مع الرعيل الأول (مكتبة أسامة بيروت بدون تاريخ).

محمد الخضري بك: الشيخ

١١٦ ـ اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء (المكتبة التجارية بمصر ١٣١٦هـ).

محمد ضياء الدين الريس
١١٧ ـ الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦١م).

أبو المجد السيد نوفل: الدكتور
١١٨ ـ الدعوة الى الله تعالى خصائصها ومقوماتها ومناهجها (دراسة مقارنة). (مطبعة الحضارة العربية بمصر ١٣٩٧هـ).

محمود شلبي: الدكتور
١١٩ ـ حياة عمر (دار الجيل بيروت ١٣٩٤هـ).

محمد بلتاجي: الدكتور
١٢٠ ـ منهج عمر بن الخطاب في التشريع (دار الفكر بيروت ١٣٩٠هـ).

المسعودي (ت ٣٤٦هـ) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي
١٢١ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر.

محمد الغزالي: الشيخ
١٢٢ ـ مع الله دراسات في الدعوة والداعية (دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٠هـ).

النووي (ت ٦٧٦) الامام أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي.
١٢٣ ـ صحيح مسلم لشرح النووي (دار الفكر بيروت ١٣٩٢هـ).
١٢٤ ـ رياض الصالحين (دار المأمون دمشق بدون تاريخ) تحقيق عبد العزيز رباح ـ أحمد يوسف.
١٢٥ ـ رياض الصالحين (المكتب الاسلامي دمشق ١٣٩٩هـ) تحقيق الألباني.

الندوي أبو الحسن علي الحسيني
١٢٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ (دار القلم الكويت الطبعة الثالثة عشر ١٤٠٢هـ).

ابن هشام (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المغافري
١٢٧ ـ سيرة النبي ﷺ ـ ٤ أجزاء ـ (دار الفكر ١٣٥٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

الهمذاني (ت ٤١٥هـ) القاضي عبد الجبار بن أحمد
١٢٨ ـ تثبيت دلائل النبوة (دار العربية بيروت بدون تاريخ).

هيكل: الدكتور محمد حسين
١٢٩ ـ الفاروق عمر (دار المعارف بمصر ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

الواقدي (ت ٢٠٧هـ) محمد بن عمر
١٣٠ ـ كتاب المغازي تحقيق د. مارسدن جونس.

أبو يوسف (ت ١٩٢هـ/٨٠٧/٨٠٨م) يعقوب بن إبراهيم
١٣١ ـ الخراج (المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٩٢هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر.

يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ).
١٣٢ ـ كتاب الخراج (المطبعة السلفية ١٣٤٧هـ).

اليعقوبي (٢٨٢هـ/٨٩٥م) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح الكاتب العباسي
١٣٣ ـ تاريخ اليعقوبي (دار صادر بيروت ١٣٧٩).

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) شهاب الدين أبو عبد الله
١٣٤ ـ معجم البلدان ١٠ أجزاء (مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣هـ).

يعقوب بن الصَّلت (ت ٢٦٢هـ)
١٣٥ ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (المطبعة الامريكانية بيروت ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م).

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
التمهيد	١٥
معنى الدعوة في اللغة والاصلاح	١٧
حكم تبليغ الدعوة	١٨
مراحل تطبيق الدعوة	٢٢
الخصلة الأولى	٢٣
الخصلة الثانية	٢٤
الخصلة الثالثة	٢٤

الباب الأول

نشر الدعوة الاسلامية

الفصل الأول: (نشر الدعوة هدف الاسلام الأساسي)	٣١
المبحث الأول (دعوة الرسول ﷺ دعوة عامة)	٣١
أولاً: مرحلة النبوة والاعداد للتبليغ	٣١
الرؤيا الصادقة	٣٢
ما يلقيه الملك في روعه صلى الله عليه وسلم	٣٢
الملك يتمثل له رجلا	٣٣
كان يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس	٣٣

رؤيته ﷺ للملك في صورته الحقيقية ٣٣
ما أوحاه الله اليه في ليلة المعراج ٣٣
كلام الله له بلا واسطة ٣٣
ثانياً: مرحلة التبليغ ٣٥
الدعوة السرية ٣٥
الدعوة الجهرية ٣٧
دعوة عشيرته الأقربين ٣٧
دعوة أهل الطائف ٤٠
دعوة قبائل العرب في موسم الحج ٤٢
دعوة من لم تبلغه الدعوة من عرب الجزيرة ٤٤
المبحث الثاني (مسئولية المسلمين عن التبليغ) ٤٩
الفصل الثاني (الجهاد وعلاقته بالدعوة) ٦١
تمهيد ٦١
مشروعية الجهاد في الاسلام ٦٣

الباب الثاني

عمر الداعية المجتهد

تمهيد ٨٩
بين الداعية والمجتهد ٨٩
الفصل الأول: (حجية قول الصحابي) ٩١
تعريف الصحابي ٩١
في اللغة ٩١
في الاصطلاح ٩٢
المبحث الأول (ما ورد في حجية قول الصحابة) ٩٦
حكم قول الصحابي أمرنا بكذا ونهينا عن كذا ١٠٥
حكم قول الصحابي كنا نقول كذا ونفعل كذا على عهد .....
رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠٦

المبحث الثاني (ترجيح قول الخلفاء الراشدين) ١٠٨
المبحث الثالث (ترجيح قول أبي بكر وعمر على الصحابة) ١١٠
المبحث الرابع (ما ورد في حجية قول عمر بن الخطاب) ١١١
الفصل الثاني: (بعض اجتهادات عمر وأثرها على نشر الدعوة) ١١٥
تمهيد (تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً) ١١٥
شروط المجتهد ١١٦
حكم الاجتهاد التكليفي ١١٧
أدلة وجوب الجهاد من الكتاب والسنة ١١٧
المبحث الأول (عدم تقسيم أرض السواد بين
المجاهدين وأثره على نشر الدعوة) ١١٩
أولاً: عدم تقسيم أرض السواد ١٢٠
قول عمر والصحابة في ذلك ١٢٠
قول الأئمة ١٢٥
الترجيح بين الأقوال ١٢٦
ثانياً: أثر عدم تقسيم أرض السواد بي
بين الغانمين على نشر الدعوة ١٢٦
المبحث الثاني (المؤلفة قلوبهم) ١٣٨
تمهيد: من هم المؤلفة ١٣٨
قول عمر رضي الله عنه والفقهاء في المؤلفة ١٤١
أثر المنع على نشر الدعوة الاسلامية ١٤٤

الباب الثالث

عمر الداعية الفاتح

الفصل الأول (حالة بلاد الفرس والروم قبل الفتح الاسلامي) ١٤٩
المبحث الأول: الحياة الدينية ١٤٩
المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية ١٥٢
المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية والسياسية ١٥٧

الفصل الثاني (أخلاق الجهاد وأساليبه عند عمر وقادة الفتح) ١٦١
تمهيد ١٦١
المبحث الأول: عمر القائد الداعية ١٦٦
المبحث الثاني: الاعداد للجهاد ١٨٧
الاعداد المعنوي ١٨٧
الاعداد المادي ١٩٥
الاعداد البشري ١٩٦
أمثلة على مدى تطبيق الاعداد المعنوي
والمادي والبشري في ساحات القتال ١٩٨

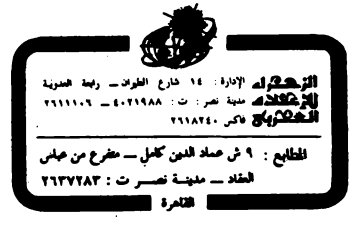
الباب الرابع

الفتوحات الاسلامية في عهد عمر وأثرها في نشر الدعوة

التمهيد ٢١١
تبشير الرسول ﷺ بالفتوح ٢١١
الفصل الأول: (الدعوة في بلاد الشام قبل القتال) ٢٢٥
دعوة معاذ بن جبل للروم في فِحَل ٢٢٦
دعوة أبي عبيدة للروم في فحل ٢٣٠
دعوة الروم في وقعة اليرموك (دعوة خالد لباهان) ٢٣١
دعوة أهل ايلياء (القدس) ٢٣٥
دعوة أبي عبيدة أهل ايلياء (القدس) ٢٣٦
الفصل الثاني: (الدعوة في بلاد العراق وفارس قبل القتال) ٢٣٩
الدعوة بالمدائن (سعد يرسل وفداً لدعوة يزدجرد) ٢٤٤
الدعوة بالقادسية (زهرة يدعو رستم للاسلام) ٢٤٧
ربعي يدعو رستم للاسلام ٢٥٠
حذيفة بن محصن يدعو رستم للاسلام ٢٥٢
سعد يرسل بقية الوفد لدعوة رستم للاسلام ٢٥٣
دعوة سعد للفلاحين في بَهُرسير ٢٥٥

دعوة أهل المدائن ٢٥٥
الفصل الثالث: (الدعوة في مصر قبل القتال) ٢٥٩
دعوة عمرو بن العاص في مصر ٢٦٠
دعوة عبادة بن الصامت للمقوقس في مصر ٢٦٢
الفصل الرابع: (القتال في سبيل نشر الدعوة) ٢٦٧
تمهيد ٢٦٧
المبحث الأول (القتال لنشر الدعوة في بلاد الشام) ٢٧٦
وقعة اليرموك ٢٧٨
المبحث الثاني (القتال لنشر الدعوة في فارس) ٢٨٠
وقعة القادسية ٢٨٠
وقعة بَهُرسير ٢٨١
الفصل الخامس: (الدعوة في أعقاب القتال) ٢٨٣
شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الاسلامي ٢٩٣
الخاتمة ٢٩٧
نتيجة البحث ٣٠٠
جريدة المراجع ٣٠٥
الفهرس ٣١٦

رقم الإيداع: ١١٨١٩/ ٩٤
الترقيم الدولي: ×-٠-٢٢٣-٢٥٧-٩٧٧


الزهراء للإعلام العربي
الإدارة: ١٤ شارع الطيران - رابعة العدوية
مدينة نصر: ت: ٤٠٢١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦
فاكس ٢٦١٨٢٤٠
المطابع: ٩ ش صلاح الدين كامل - مفرع من عباس العقاد - مدينة نصر ت: ٢٦٣٧٢٨٣
القاهرة